إقـــــرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

دور الخطر المغولي في توحيد الجبهة الداخلية للمماليك (648-741هـ/1250-1341م)

The Role of the Manghuli Danger in Uniting the Mamluks Internal Front (1250-1341 AD / 648–741 AH)

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وإن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

DECLARATION

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification

اسم الطالب/ة: محمد الياس أبو مصطفى Student's name

التوقيع: محمد Signature

التاريخ: 16/ 04 / 2016 Date:

الجامعة الإسلامية ـ غزة
عمادة الدراسات العليا
كلية الآداب
قسم التاريخ والآثار

دور الخطر المغولي في توحيد الجبهة الداخلية للمماليك

(٦٤٨-٧٤١هـ/١٢٥٠-١٣٤١م)

The Role of the Manghuli Danger in Uniting the Mamluks Internal Front

(1250-1341 AD / 648–741 AH)

إعداد الباحث:

محمد الياس أبو مصطفى

إشراف الأستاذ الدكتور:

رياض مصطفى شاهين

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي من قسم التاريخ بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية بغزة – فلسطين

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

غزة – فلسطين

بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الإسلامية – غزة
The Islamic University - Gaza

مكتب نائب الرئيس للبحث العلمي والدراسات العليا هاتف داخلي 1150

الرقم.....ج.س.غ/35/..... Ref

التاريخ.....2026/02/14م..... Date

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة شئون البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ **محمد الياس إسماعيل أبو مصطفى** لنيل درجة الماجستير في **كلية *الآداب*/ قسم التاريخ**، وموضوعها:

دور الخطر المغولي في توحيد الجبهة الداخلية للمماليك (648 – 741هـ / 1250 – 1341م)

وبعد المناقشة العلنية التي تمت اليوم الأحد 05 جمادى الأولى 1437هـ، الموافق2016/02/14م الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً بمبنى القدس، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

أ.د. رياض مصطفى شاهين	مشرفاً و رئيساً	.....
د. غسان محمود وشاح	مناقشاً داخلياً	.....
أ.د. محمد مؤنس عوض	مناقشاً خارجياً	.....

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الماجستير في **كلية *الآداب*/قسم التاريخ**.

واللجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتقوى الله ولزوم طاعته وأن يسخر علمه في خدمة دينه ووطنه.

والله ولي التوفيق ،،،

نائب الرئيس لشئون البحث العلمي والدراسات العليا

أ.د. عبدالرؤوف علي المناعمة

P.O. Box 108, Rimal, Gaza, Palestine fax: +970 (8) 286 0800 فاكس Tel: +970 (8) 286 0700 ص.ب. 108 الرمال، غزة، فلسطين هاتف
public@iugaza.edu.ps www.iugaza.edu.ps

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى من سهر على راحتي والدي حفظهما الله.

إلى إخوتي وأهلي حفظهم الله.

إلى أصدقائي وزملائي الأعزاء.

إلى أساتذتي في قسم التاريخ في جامعة الأقصى، وقسم التاريخ والآثار في الجامعة الإسلامية.

إلى المجاهدين في كافة أرجاء فلسطين.

إلى المرابطين في المسجد الأقصى المبارك.

إلى إخواننا الأسرى في السجون.

إلى الشهداء الأكرم منا جميعاً.

إليهم جميعاً أهدي هذه الدراسة العلمية المحكمة.

الباحث : محمد الياس أبو مصطفى

شكر وتقدير

الحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، أما بعد:

اِنطلاقاً من قول رسول الله ﷺ {**من لا يشْكُر النَّاس لا يشْكُر اللَّه**} ، واعترافاً لذوي الفضل بفضلهم، ورداً للمعروف إلى أهله من غير نقصان ولا نكران، أحمد الله تعالى الذي أكرمني، ويسر لي إتمام هذه الرسالة، فالشكر له وحده أولاً وأخيراً، وأتقدم بالشكر والتقدير لأستاذي العزيز الأستاذ الدكتور: **رياض مصطفى شاهين؛** الذي تكرم وتفضل علي بقَبول الإشراف على هذه الرسالة، وقد أعطاني من وقته الثمين، لقراءة الرسالة، وإسداء التوجيهات النافعة.

كما وأتقدم بالشكر والتقدير لعضوي لجنة المناقشة، فضيلة الدكتور: **غسان محمود وشاح** أستاذ التاريخ الإسلامي في الجامعة الإسلامية بغزة، وفضيلة الأستاذ الدكتور: **محمد مؤنس عوض** "أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة الشارقة"، اللذان تفضلا وقبلا مناقشة هذا البحث، لإثرائه بعلمهما الغزير، فجزاهما الله كل خير.

كما وأتقدم بالشكر والتقدير لهيئة التدريس في قسم التاريخ والآثار بكلية الآداب بالجامعة الإسلامية الذين أمدوني بالعلم والمعرفة، وأخص بالذكر الأستاذ الدكتور: رياض مصطفى شاهين، والدكتور: زكريا إبراهيم السنوار، والدكتور: نهاد محمد الشيخ خليل، والدكتور: غسان محمود وشاح، والدكتور: سامي حمدان أبو زهري، والدكتور: أحمد محمد الساعاتي.

ولا أنسى أن أتقدم بالشكر لعمي العزيز الأستاذ: **أيمن إسماعيل أبو مصطفى** على مراجعة وتدقيق الرسالة، كما وأتقدم لصديقي الأستاذ: **سامي عطا الحلاق**، وجاري الأستاذ الفاضل: **محمد عبد الله حمدان**، على تدقيقهما للرسالة إملائياً، فجزاهما الله خيراً.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء.....	ب
شكر وتقدير.....	ج
المحتويات	د
الملخص باللغة العربية.....	ح
Abstract.....	ط
المقدمة	١
دراسة تحليلية لأهم مصادر البحث.....	٤
تمهيد.....	١٠
الفصل الأول: أثر توحيد جبهة المماليك الداخلية في تحقيق النصر على المغول في معركة عين جالوت عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م:	١١
المبحث الأول- تشتت المماليك البحرية بعد مقتل أقطاي الجمدار، وغزو المغول لبلاد الشام.....	١٢
أولاً – مقتل توران شاه وسلطنة شجر الدر وأيبك	١٢
ثانياً – الخلافات والصراع بين المعز أيبك وأقطاي.....	١٥
ثالثاً- مقتل أقطاي وتشتت المماليك البحرية.....	١٧
رابعاً – مقتل أيبك وشجر الدر.....	٢٤
خامساً- تحريض المماليك البحرية (المشردين) للمغيث عمر على محاربة الناصر يوسف.....	٢٧
سادساً – سقوط الخلافة العباسية في يد المغول.....	٢٨
سابعاً – تحريض المماليك البحرية (المشردين) للمغيث عمر على غزو مصر.....	٢٩
ثامناً – سلطنة قطز وطلب الناصر يوسف النجدة منه.....	٣٢
تاسعاً- سقوط ميافارقين وبلاد الشام بيد المغول وموقف المماليك البحرية من الغزو المغولي...	٣٦
المبحث الثاني- الوحدة ودورها في تحقيق النصر على المغول في معركة عين جالوت عام ٦٥٦هـ/١٢٦٠م.....	٤١

أولاً – الاتصالات والمراسلات بين المماليك البحرية المشردين في الشام وقطز من أجل الوحدة، ومواجهة الخطر المغولي..... ٤١
ثانياً– استمرار هروب الناصر يوسف من المغول، ودخول كثير من الشاميين إلى مصر وتوحدهم مع قطز..... ٤٥
ثالثاً – جهود قطز في ضم ملوك الشام الذين دخلوا في طاعة المغول إلى صفه..... ٤٧
رابعاً– رأي الشيخ عز الدين بن عبد السلام في جهاد المغول..... ٥٠
خامساً– استعدادات قطز لمواجهة المغول ومعركة غزة..... ٥٠
سادساً– جهود قطز في تحييد الصليبيين..... ٥٣
سابعاً– ردة فعل المغول من استعدادات قطز لمواجهتهم..... ٥٣
ثامناً– معركة عين جالوت ودور الوحدة في تحقيق النصر..... ٥٤
تاسعاً– مقتل قطز – القاتل الحقيقي وأسباب مقتله الحقيقية..... ٦٥
الفصل الثاني : أثر توحيد جبهة المماليك الداخلية في تحقيق النصر على المغول في معركة حمص الثانية عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م: ٧٢
المبحث الأول: الخلافات بين قلاوون وبعض أمراء المماليك، واستغلال المغول لذلك..... ٧٣
أولاً– دور الأمير أقطاي المستعرب والسلطان الظاهر بيبرس في الحفاظ على الوحدة الداخلية بعد مقتل المُظفر قطز..... ٧٣
ثانياً – سلطنة بركة وسلامش ابناء الظاهر بيبرس وخلعهما..... ٧٨
ثالثاً– سلطنة المنصور قلاوون والقبض على المعارضين من المماليك الظاهرية..... ٧٩
رابعاً– تمرد سنقر الأشقر واعلان استقلاله بملك بلاد الشام..... ٨٠
خامساً – انضمام أمراء العرب والشام والمماليك الظاهرية إلى سنقر الأشقر..... ٨٢
سادساً – استعدادات المنصور قلاوون لمواجهة سنقر الأشقر..... ٨٣
سابعاً– معركة الجسورة بين المنصور قلاوون وحلف سنقر الأشقر عام ٦٧٩هـ/١٢٨٠م..... ٨٤
ثامناً– مراسلات سنقر الأشقر لأبغا بن هولاكو من أجل التحالف معه، وتأسيسه لدولة جديدة... ٨٨
تاسعاً– هجوم منكوتمر بن هولاكو على حلب أثناء الصراع الدائر بين قلاوون وسنقر..... ٩١
عاشراً– تحييد المنصور قلاوون للصليبيين..... ٩٣
أحد عشر – تشتت المماليك الظاهرية وانضمامهم إلى سنقر الأشقر..... ٩٥

المبحث الثاني– الوحدة ودورها في تحقيق النصر على المغول في معركة حمص الثانية عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م..... ٩٧
أولاً– مراسلات قلاوون مع سنقر من أجل الوحدة..... ٩٧
ثانياً – عقد الصلح بين السلطان قلاوون وسنقر الأشقر والمسعود خضر..... ٩٨
ثالثاً– استعدادات قلاوون وأمراء المماليك المتصالحين معه لمواجهة المغول معاً..... ١٠١
رابعاً– معركة حمص الثانية (٦٨٠هـ/١٢٨٠م)..... ١٠٥
خامساً– دور الوحدة في تحقيق النصر في معركة حمص الثانية..... ١١٨
الفصل الثالث : أثر توحيد جبهة المماليك الداخلية في تحقيق النصر على المغول في معركة مرج الصُفر (شقحب) عام ٧٠٢هـ/١٣٠٣م: ١٢٠
المبحث الأول: سوء الأوضاع السياسية في دولة المماليك بعد مقتل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، وغزو المغول لبلاد الشام..... ١٢١
أولاً– استمرار الوحدة من معركة حمص الثانية حتى مقتل الأشرف بن قلاوون..... ١٢١
ثانياً– سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الأولى (٦٩٣–٦٩٤هـ/١٢٩٣–١٢٩٤م)..... ١٢٤
ثالثاً – سلطنة العادل زين الدين كتبغا..... ١٢٦
رابعاً– خلع العادل كتبغا وسلطنة المنصور لاجين..... ١٢٧
خامساً– تفكك الجبهة الداخلية للمماليك، وهروب أمراء من الشام إلى زعيم المغول غازان، في عهد المنصور لاجين..... ١٣٠
سادساً– مقتل السلطان حسام الدين لاجين المنصوري..... ١٣٣
سابعاً– سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية، والغزو المغولي لبلاد الشام..... ١٣٤
المبحث الثاني– الوحدة بين المماليك بعد احتلال غازان لبلاد الشام، ودور الوحدة في تحقيق النصر على المغول في معركة مرج الصُفر (شقحب) عام ٧٠٢هـ/١٣٠٣م..... ١٤٧
أولاَ– المراسلات بين الناصر محمد بن قلاوون وأمراء المماليك الموالين لغازان من أجل الوحدة..... ١٤٧
ثانياً– دخول الأمراء قفجق وبكتمر وإلبكي إلى مصر وإتمام الوحدة مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون..... ١٤٨
ثالثاً– إتمام الوحدة بين زين الدين كتبغا، والسلطان الناصر محمد بن قلاوون..... ١٤٩

رابعاً– عودة الشام بيد المماليك بعد توحيد جبهتهم الداخلية..... ١٥٠
خامساً– محاولات غازان إعادة السيطرة على بلاد الشام واستعدادات الناصر محمد بن قلاوون للمواجهة..... ١٥١
سادساً– قضاء الناصر محمد بن قلاوون على الخطر الصليبي قبل المواجهة مع المغول..... ١٥٦
سابعاً– استعدادات الناصر محمد بن قلاوون لمواجهة المغول في بلاد الشام..... ١٥٧
ثامناً– معركة مرج الصُفر ودور الوحدة في تحقيق النصر..... ١٦٢
تاسعاً– تصفية الخلافات الداخلية بعد الانتصار في معركة مرج الصُفر..... ١٧٢
الخاتمة ونتائج البحث..... ١٧٦
الملاحق..... ١٧٨
المصادر والمراجع ٢٠٠

ملخص الرسالة

قسم الباحث دراسته إلى ثلاثة فصول هي:

الفصل الأول: تناول دول دور الخطر المغولي في توحيد جبهة المماليك الداخلية، بعد الصراع العنيف الذي نشأ عام ٦٥٢هـ/١٢٥٤م، على إِثر مقتل زعيم المماليك البحرية فارس الدين أقطاي الجمدار، والذي أستمر حتى غزو المغول للعراق عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ولبلاد الشام عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، وتناول الباحث دور الوحدة في تحقيق النصر على المغول في معركة عين جالوت، ثم تصفية الخلافات الداخلية بين المماليك بعد معركة جالوت، وحلل الباحث الروايات التاريخية، التي تناولت مقتل سيف الدين قطز، وبين تضارب الروايات التاريخية حول ذلك.

الفصل الثاني: تناول الباحث كتمهيد للفصل الثاني، دور الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب الصغير في حقن دماء المماليك وإنقاذ الوحدة الداخلية بعد مقتل قطز، وتناول دور الظاهر بيبرس في الحفاظ على الوحدة الداخلية خلال سلطنته التي استمرت سبعة عشر عاماً، ويبدأ الفصل فعلياً بضعف السلطان السعيد بركة بن بيبرس، واستبداد المماليك على أخيه سُلامش بن بيبرس، ثم الصراع العنيف الذي نشأ بين المنصور قلاوون من جهة، وتحالف ثلاثي ضم سنقر الأشقر، والمسعود خضر، والمماليك الظاهرية، واستمر هذا الصراع من عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩م حتى غزو المغول لبلاد الشام عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م، فيسرع سنقر الأشقر والمسعود خضر والمماليك الظاهرية بإتمام الوحدة مع السلطان المنصور قلاوون، والمواجهة المشتركة ضد المغول في معركة حمص الثانية عام ٦٨٠هـ/١٢٨١، وتناول الباحث دور الوحدة المماليك في تحقيق النصر على المغول في هذه المعركة.

الفصل الثالث: تناول الباحث استمرار الوحدة في عهد المنصور قلاوون، وابنه الأشرف خليل بن قلاوون، ثم تناول الصراع الفعلي بين أمراء المماليك بعد مقتل الأشرف خليل بن قلاوون، والتنافس على السلطنة في ظل سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الأولى، وبالرغم من ذلك لم يحدث انقسام بين المماليك في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الأولى، وسلطنة العادل كتبغا، ويتشتت المماليك فعلياً في سلطنة المنصور حسام الدين لاجين؛ بسبب قيامه بتصفية الخلافات السابقة مع الأمراء، فيهرب كثير من أمراء المماليك إلى المغول، وبعد مقتل لاجين يُعيد الأمراء في مصر الناصر محمد بن قلاوون إلى السلطنة، وفي سلطنته الثانية شعر زعيم المغول غازان، بضعف الجبهة الداخلية، فقرر الهجوم على بلاد الشام، بتشجيع من الأمراء الفارين إليه، وعند هجومه تمكن من هزيمة الناصر محمد بن قلاوون، في معركة وادي الخزندار عام ٦٩٩هـ/١٢٩٩م، ثم احتلال المغول للشام، وبعد ذلك يدفع الخطر المغولي المماليك للوحدة، والتي كان لها دور كبير في تحقيق النصر على المغول في معركة مرج الصُفر عام ٧٠٢هـ/١٣٠٣م.

Abstract

The Researcher has divided his dissertation into three chapters, as follows:

Chapter 1: In this chapter, the researcher addresses the role of Mongols threat in uniting Mamluk's Home Front, which came after a violent conflict emerged in 652 AH - 1254 AD following the murdering of the leader of Mamluk's navy forces Faris ad-Din Aktai al-Jemdar. This conflict continued until the date of Mongols invasion of Iraq in 656 AH - 1258 AD, and of the Levant in 658 AH - 1260 AD. The researcher discusses the role of unity in achieving victory against Mongols at the Battle of Ain Jalut. Then, he discusses the settlement of internal disputes among Mamluks after the battle of Ain Jalut. He also analyses the historical narratives, which deal with the case of murdering of Saif ad-Din Qutuz, and he clarifies the inconsistencies in these historical narratives.

Chapter 2: In this chapter, as a preface, the researcher addresses the role of the Emir Faris Ad-Din Aktai al-Mostareb in sparing the blood of Mamluks and saving the internal unity after murdering Qutuz. He also deals with the role of al-Zahir Baibars in maintaining internal unity during his rule which lasted for seventeen years. Then, the chapter continues to discuss the weakness of the Sultan al-Said Barakah the son of Baibars, and the Mamluks' control over his brother Badr ad-Din Solamish the son of Baibars. Then, the researcher continues to address the fierce struggle that emerged between al-Mansur Qala'un and a Tri-alliance consisted of Sunqur Ashqar, al-Masood Khader, and Mamluks Zaheria. This struggle had continued from 678 AH - 1279 AD until the Mongols invasion of the Levant in 680 AH - 1281 AD., where the Tri-alliance (Sungur Ashqar, al-Masood Khader, and Mamluks Zaheria) hurried up to reunite with the Sultan al-Mansur Qala'un and jointly face Mongol army in the Second Battle of Homs in 680 AH - 1281 AD. Finally, the researcher clarifies the role of Mamluks' unity in achieving victory over Mongols in this battle.

Chapter 3: In this chapter, the researcher discusses the unity permanence during the reign of Sultan al-Mansur Qala'un and his son al-Ashraf Salah ad-Din Khalil ibn Qala'un. Then, he deals with the actual struggle among Mamluks Emirs after the murdering of al-Ashraf Salah ad-Din Khalil ibn Qala'un and the conflict over the rule of the Sultanate during the first reign of an-Nasir Nasir ad-Din Mohammed ibn Qala'un, though there was no division took place among Mamluks in this reign and the reign of al-Malik al-Adil Kitbugha. Indeed, Mamluks dispersed during the reign of al-Malik al-Mansour Hossam ad-Din Lachin as he took revenge on the Emirs, that makes many of Mamluks Emirs flee and turn to Mongols. After the murdering of Lachin, Emirs re-install an-Nasir Nasir ad-Din Mohammed ibn Qala'un as sultan. And in his second reign, the leader of Mongols, Ghazan, feels the weakness of home front of Mamluk's Sultanate, so he prepares to attack the Levant under the encouragement of the Emirs who fled to him. He attacks an-Nasir Mohammed army and defeats it in the Battle of Wadi al-Khazandar in 699 AH - 1299 AD. Then, Mongols continues to invade and occupy the Levant. This danger of Mongols leads Mamluks for maintaining their unity once again, which has a significant role in achieving the victory over Mongols in the Battle of Marj al-Saffar in 702 AH - 1303 AD.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبة أجمعين، أما بعد:

لعب الخطر المغولي دوراً مهماً في توحيد الجبهة الداخلية للمماليك، ورص صفوفهم، واجتماعهم على راية واحدة، بعد خلاف وصراع عنيف دار بينهم لأسباب مختلفة من فترة لأخرى، وتحدث الوحدة بين المماليك منذ بداية تقدم العدو نحو بلادهم، فيسرع هؤلاء المتخاصمين للتلاحم مع بعضهم البعض، ونسيان الخلافات الداخلية تماماً، مهما كانت شدتها وأسبابها، وبعد إتمام الوحدة، يستعد جميع المماليك المتصالحين معاً لمواجهة العدو المشترك.

بدأت ظاهرة التكتل في دولة المماليك بعد سقوط الخلافة العباسية على يد المغول، واقترابهم نحو بلاد الشام، مما دفع المماليك المتحاربين في مصر والشام، للاتصال ببعضهم البعض، من أجل التلاحم ونسيان الصراع الداخلي الدائر بينهم؛ للتصدي للعدو القادم نحو مصر، وبدأت هذه الظاهرة الإيجابية، في عهد المُظفر قطز، وتكررت هذه الظاهرة الإيجابية مرتين، فكانت المرة الثانية في عهد قلاوون، والمرة الثالثة في عهد الناصر محمد بن قلاوون.

أهم أسباب اختيار موضوع الدراسة:

١- إبراز دور الوحدة في تحقيق النصر على العدو.

٢- قلة الدراسات التي تتعلق بتكتل المسلمين إبّان الأخطار الخارجية.

٣- يشمل البحث في هذا المجال موضوعاً جديداً لم يكتب به أحد من قبل يساهم في إثراء المكتبة العربية ويفيد القارئ العربي والمسلم.

أهمية الدراسة:

١- تساهم في تنبيه الحكام المسلمين من الفرقة والصراع.

٢- توضيح دور الخطر الخارجي في توحيد جبهة المماليك الداخلية.

٣- إبراز حكمة المماليك في إنقاذ الأمة من خلال توحيد جبهتهم الداخلية.

٤- بيان دور الوحدة في تحقيق النصر.

حدود الدراسة:

أولاً -الحد المكاني:

تركز الدراسة على مصر وبلاد الشام، في عهد المماليك.

ثانيا – الحد الزماني:

تركز الدراسة على دولة المماليك من بدايتها ٦٤٨هـ/١٢٥٠م حتى وفاة السلطان محمد بن قلاوون عام٧٤١هـ/١٣٤١م.

منهج الدراسة:

اتبع الباحث المنهج التاريخي الوصفي التحليلي.

الدراسات السابقة:

بعد إطلاع الباحث في محركات البحث العالمية، والمكتبات الإلكترونية، وفهارس المكتبات المحلية والعربية لم يعثر الباحث على أي دراسة سابقة تناولت موضوع، دور الخطر المغولي في توحيد الجبهة الداخلية للمماليك.

المشاكل والصعوبات:

تتلخص الصعوبات التي واجهت الباحث، في الحصول على تعريف بعض القادة العسكريين المغول، علاوة على صعوبة تعريف بعض الشخصيات المملوكية، حيث لم تتوفر أي معلومات لتعريف الشخصيات النادرة، من كتب التاريخ والتراجم، وتغلب الباحث على المشكلة من خلال تناول معلومات من كتب عربية مهمة ونادرة.

تقسيمات الدراسة:

قسم الباحث دراسته إلى ثلاثة فصول هي:

الفصل الأول: يتناول دور الخطر المغولي في توحيد جبهة المماليك الداخلية، في عهد السلطان المظفر قطز، ودور الوحدة في تحقيق النصر على المغول في معركة عين جالوت عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م.

الفصل الثاني: تناول الباحث دور الخطر المغولي في توحيد جبهة المماليك الداخلية في عهد السلطان المنصور قلاوون، ودور هذه الوحدة في تحقيق النصر على المغول في معركة حمص الثانية عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م.

الفصل الثالث: تناول الباحث دور الخطر المغولي في توحيد جبهة المماليك الداخلية، في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ودور الوحدة في تحقيق النصر على المغول في معركة مرج الصُفر عام ٧٠٢هـ/١٣٠٣م.

دراسة تحليلية لأهم مصادر البحث:

١- **كنز الدرر وجامع الغرر، لابن أيبك**[١] (ت: ٧١٣هـ/١٣١٣م)، تناول المؤرخ ابن أيبك تفاصيل مهمة، حول شخصية السلطان المنصور قلاوون وابنه الناصر محمد، وركز في الجزء الثامن على الحياة السياسية والعسكرية لهما، وبين شجاعتهما من خلال ابيات الشعراء، وقد تناول تفاصيل لم يتطرق لها أحد غيره، ووصف بعد التفاصيل من خلال الشعر، واستفدت كثيراً من الجزء الثامن **الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية**، وأخذت من هذا الجزء في الفصل الأول والثاني، أما الجزء التاسع فهو بعنوان: **الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر**، وأخذت من هذا الجزء معلومات للفصل الثالث من الرسالة، وعظم المؤرخ ابن أيبك في هذا الجزء الناصر محمد بن قلاوون، وبين دهاءه السياسي والعسكري، في تطبيق الوحدة، وكان ابن أيبك أميراً وابنَ أمير، مما يمنحهُ ميزة أنه أمير ومؤرخ كبيبرس المنصوري، وقرطاي العزي، وابن تغري بردي، وغيرهم.

٢- **كتاب زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، وكتاب مختار الأخبار، للأمير بيبرس المنصوري**[٢] (ت:٧٢٥هـ/١٣٢٥م)، يتميز المؤرخ بيبرس المنصوري، كونه أحد كبار أمراء المماليك، وكان يختلط كثيراً بالأمراء والسلاطين، وقد تناول معلومات مهمة جداً، عن الصراع الداخلي بين المماليك، وأشار إلى الوحدة وأهميتها، وأهمية احترام السلطان، وعدم التمرد عليه، وكان بيبرس المنصوري شاهد عيان على الأحداث التي عاشها، خاصة في سلطنة المنصور قلاوون، وابنه الناصر، وكان ينقل الأحداث التي لم يشاهدها بعينه من الأمراء الثقات، وكان يتحدث عن نفسه، في قيادته للحملات والمعارك، وهو من المصادر المهمة والقوية التي تناولت دولة المماليك، من تأسيسها حتى عهد محمد بن قلاوون، وتم الاستفادة في البحث من كتابان لبيبرس وهما: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ومختار الأخبار الذي تناول فيه احداث

---

(١) أبو بكر بن عبد الله بن أيبك صاحب صرخد، وكان والده من أمراء المماليك، ويعرف بالدواداري نسبة للأمير سيف الدين بلبان الرومي الدوادار الظاهري، ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ١ – ٣.

(٢) الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصوري، هو من كبار مماليك السلطان المنصور سيف الدين قلاوون، ولقبه بالمنصوري نسبة إليه، تولى نيابة قلعة الكرك في عهد سيده المنصور، ثم عُزل عنها وعاد مع جملة الأمراء في عهد الأشرف خليل بن قلاوون، وعاد يأخذ مكانة السياسي والعسكري، في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وكان يتميز بولعه بالتاريخ، وكان من أقوى المؤرخين في العصر المملوكي، وألف كتاب «زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة»، النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٣٣ ، ص ١٣٨ ، ١٣٩.

من تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٣م.

٣- **ذيل مرآة الزمان، لليونيني**[١](ت:٧٢٦هـ/١٣٢٦م) يُعد من المصادر الموسوعية والمهمة، التي تناولت جوانب سياسية، وعسكرية، واجتماعية، فترة الدراسة، وخاصة العلاقات بين المماليك في مصر والشام، الإنقسام، والتكتل، ودور المغول في التسبب في إجبار المماليك على التلاحم، وروى المؤرخ اليونيني، أحداث شاهدها بنفسه، مثل مشاهدته لقيام المغول بالطواف برأس الشهيد الكامل محمد الأيوبي صاحب ميافارقين، عندما وصلوا بها إلى مدينة بعلبك، وهي المدينة التي عاش بها المؤرخ اليونيني، وقد وصف اليونيني الأحداث التي عاشها في العصر المملوكي بدقة كبيرة.

٤- **المختصر في أخبار البشر لأبو الفداء**[٢] (ت:٧٣٢هـ/١٣٣٢م)، من المصادر الأولية المهمة التي تناولت أحداث أواخر الدولة الأيوبية، والنصف الأول من دولة المماليك، وتناول أبو الفداء الصراع الداخلي بين المماليك، والخطر المغولي، ودور هذا الخطر في إحداث التلاحم بين قوى المماليك المتصارعة، وتم الاستفادة من هذا المصدر في جميع فصول البحث الثلاثة.

٥- **نهاية الآرب في فنون الأدب، للنويري**[٣] (ت:٧٣٣هـ/١٣٣٣م)، من الكتب المهمة التي تناولت، الأوضاع السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والاجتماعية في العصر المملوكي، والخطر المغولي، ودور هذا الخطر في توحيد الجبهة الداخلية للمماليك، وتم الاستفادة من

---

(١) قطب الدين موسى بن محمد بن أبي الحسن اليونيني الحنبلي البعلبكي، ويعود نسبه لجعفر الصادق حفيد علي بن أبي طالب، ولد في صفر سنة ٦٤٠هـ/١٦٤٢م، وتوفي في شوال سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م، تتلمذ على يد والده العلامة أبو عبد الله اليونيني، وألف كتاب ذيل مرآة الزمان، وروى أحداث شاهدها بنفسه عن بعلبك، وكان عالماً ثقة، نشأ بين عائلته المتدينة والمليئة بالعلماء، والزهاد ، الذهبي : من ذيول العبر ، ج ١ ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ ؛ الذهبي : المعجم ، ج ١ ، ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٢٧ ؛ ابن ناصر الدين الدمشقي: الرد الوافر ، ج ١ ، ص ٦٠.

(٢) أبو الفداء الأيوبي : إسماعيل بن علي بن المظفر تقي الدين محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب الملك المؤيد أبو الفداء الأيوبي الشافعي صاحب حماة ولد سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٣م وتوفي سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م، البغدادي، إسماعيل : هدية العارفين ، ج ٥ ، ص ٢١٤.

(٣) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري الكندي، أحد كبار المؤرخين في العصر المملوكي، ألف كتاب نهاية الآرب في فنون الأدب في بداية سلطنة الناصر محمد بن قلاوون، وقد توفي سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م، حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ٨٥.

هذا المصدر في جميع فصول البحث، وكان يذكر أسماء معظم قادة المسلمين، وقادة المغول، في المعارك بين المماليك والمغول، وبذلك وضع إضافة ممتازة، تكمل وصف المؤرخين لهذه المعارك.

٦- **تاريخ مجموع النوادر، لقرطاي العزي**[١](٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م)، الأمير قرطاي العزي الخزنداري، من كبار المؤرخين المماليك، وهو يأخذ ميزة بيبرس المنصوري، كونه مؤرخ وأمير مملوكي في نفس الوقت، تناول أحداث من شهود عيان، مثل الروايات التي نقلها عن الأمير صارم الدين أزبك الأشرفي، وتناول قرطاي العزي معلومات نادره في مخطوط تاريخ مجموع النوادر، الذي يعتبر حقاً من النوادر، تناول فيه معلومات داخلية عن المغول، وطريقة معيشتهم، وتصرفاتهم، وسلوكهم العدواني، وذلك من روايات صارم الدين أزبك، كما أنه المؤرخ الوحيد الذي كتب بشكل مباشر دون إشارات فقط، عن تفرق وتفكك المماليك، ثم تلاحمهم مرة ثانية بعد صراع دار بينهم؛ بسبب الخطر المغولي، كما أنه ذكر أحداث لم يذكرها أي مؤرخ غيره عن معركة عين جالوت، وغيرها من المعلومات النادرة.

وما يميز قرطاي العزي عن غيره من المؤرخين، أنه كان ينقل الأحداث من الأمراء كما فعل بيبرس المنصوري، وتوقف عن الكتابة في مطلع سلطنة الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، ولم يكشف المؤرخين عن سبب توقفه عن الكتابة، ولم يبين قرطاي نفسه لماذا توقف عن الكتابة، فمن المرجح أنه تعرض لضغوط سياسية، بعد أن اعْتَزَلَ السياسة في أواخر حياته، وربما يكون قد عُزل من قبل السلطان، ومنع عن الكتابة، ومهما يكن الأمر، فقد قدم العزي معلومات نادرة جداً، عن تاريخ الحقبة التي عايشها وكتب عنها، وتم الاستفادة من هذا المصدر في الفصلين الأول والثاني.

٧- **كتاب تاريخ الإسلام وكتاب دول الإسلام، للذهبي**[٢] (ت:٧٤٨/١٣٤٧م)، عاصر العلامة

---

(١) قرطاي العزي الخزنداري: أمير مملوكي، تنوع في المناصب، فكان أحد أمراء المماليك في دمشق، وعمل حاجباً في نيابة حلب، ثم تولى نيابة طرابلس، وتوفي قرطاي سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م، فوق سن الستين ، العبادي ، أحمد مختار : في التاريخ الأيوبي والمملوكي ، ص ١٥٣ ، هامش ٢.

(٢) شمس الدين بن محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي الدمشقي، محدث كبير، مؤرخ، من أشهر مؤلفاته كتاب تاريخ الإسلام، وكتاب الموت وما بعده، وقد فقد الذهبي بصره في آخر عمره، ولد سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م، وقبل موته ترجم لشخصيات دمشقية مشهورة، ومعاصره له، وهم على قيد الحياة ، ابن الوردي : تاريخ ، ج٢ ، ص ٣٣٧ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٢ ، ص ٦٣.

شمس الدين الذهبي العصر المملوكي، وله مؤلفان تناول فيهما الصراع الداخلي بين المماليك، وهما: تاريخ الإسلام، ودول الإسلام، فتناول معلومات عن القتل والصراع، وأهمية الشخصيات ووزنها الحقيقي في الدولة، وتم استخدام هذه الكتب في معظم الفصول في البحث، حيث أشار المؤلف الصراع الداخلي بين المماليك، والخطر المغولي، والوحدة الداخلية، وأثر الوحدة الداخلية في تحقيق النصر على المغول، كما وتم الاستفادة من كتابان في التراجم، سير أعلام النبلاء، والعبر في خبر من غبر .

٨- **تتمة المختصر في أخبار البشر المعروف بـ(تاريخ ابن الوردي)، لابن الوردي**[١] (ت:٧٤٩هـ/١٣٤٨هـ)، من المصادر المهمة، التي تناولت الصراع السياسي والعسكري بين المماليك، وكان ابن الوردي يصف نشأة وتطور الصراع الداخلي بين المماليك وصفاً دقيقاً، وأشار للإيجابيات والسلبيات، في دولة المماليك، واستفدت منه كثيراً، في بيان الصراع الداخلي الذي نشأ بعد مقتل أقطاي، وكانت كتاباته متشابهة كثيراً مع الذين سبقوه والذين عايشوا عصره، وقليل ما جاء بالمعلومات الجديدة، ووصف المؤيخ ابن الوردي خطورة الغزو المغولي، وتدمير الخلافة العباسية، كما بين أثر هذا الخطر في توحيد الجبهة الداخلية للمماليك .

٩- **البداية والنهاية، لابن كثير**[٢] (ت: ٧٧٤هـ/١٣٤٣م)، من المصادر المهمة، والتي عاصر مؤلفها الفترة المملوكية، وقد رتب الأحداث حسب السنين، ويعد من المصادر الأساسية التي تم استخدامها في معظم الفصول، سواء في الحديث عن الصراع الداخلي بين المماليك، أو الهجوم المغولي المستمر على بلاد الشام، ودور هذا الخطر في توحيد الجبهة الداخلية

---

(١) عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس، أبو حفص، زين الدين ابن الوردي المعرّي الكندي المعروف بابن الوردي، صاحب كتاب تتمة المختصر في اخبار البشر(تاريخ ابن الوردي)، ونبغ ابن الوردي في القرن الثامن من الهجرة، وتوفي ابن الوردي سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨م ، ابن عبد الهادي : العقود الدرية ، ج ١ ، ص ٥٢٣ ؛ فانديك ، ادوارد : اكتفاء القنوع ، ص ٧٤ ، ٧٥.

(٢) عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ذرع البصروي الأصل الدمشقي الشافعي، ولد سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م، كان أبوه خطيباً، وتتلمذ على يد الشيخ برهان الدين الفزاري وغيره، وهو مؤرخ ومفسر، ومن أشهر مؤلفاته في التاريخ البداية والنهاية، توفي في شعبان سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٣م، ابن ناصر الدين الدمشقي: الرد الوافر، ج١ ، ص٩٢،٩٣ ؛ ينظر، ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة ، ج١ ، ص ٤٤٥، ٤٤٦.

للمماليك، وأثر وحدة المماليك الداخلية في تحقيق النصر على المغول.

١٠-**تاريخ ابن خلدون، لابن خلدون**[١] (ت : ٨٠٨هـ/١٤٠٦م)، من المصادر الموسوعية والمهمة، التي تناولت العصر المملوكي، ويَعتبر كثير من المؤرخين أن ابن خلدون، من المؤرخين المخضرمين، والعلماء الفلاسفة، وبالرغم من أنه يعيش في بلاد المغرب العربي، إلا أنه نقل معلومات قيمة عن دولة المماليك، وكان ابن خلدون يزور مصر وبلاد الشام، وينقل ما يشاهده من الأوضاع الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والعسكرية، وتم الاستفادة من هذا المصدر في جميع فصول البحث، وقد بين ابن خلدون قسوة الصراع الداخلي، لكنني من خلال تدقيقي في الجزء الذي تناول فيه الصراع الذي كان بين المماليك، وجدته يسلط الضوء على سلبيات الصراع، دون أن يبين مدى استفادة المماليك من فترة الصراع، كالخبرة في الكر والفر، كما أنه ذكر بعض معلومات من الواضح ان فيها لبس، مثل قوله بأن المماليك البحرية ترصدوا لقطز من أجل الثأر لأقطاي.

١١- **صبح الأعشى في كتابة الإنشا، للقلقشندي**[٢] (ت: ٨٢١هـ/١٤١٨م)، من المصادر الموسوعية والمهمة، التي تناولت جوانب إدارية، وسياسية، وعسكرية، واقتصادية، واجتماعية، وما يميز المؤلف أنه عمل رئيساً لديوان الإنشاء في القاهرة، وقد تم الاستفادة من هذا المصدر، في الحديث عن الجوانب الإدارية في مصر وبلاد الشام في العهد المملوكي، وتم الاستفادة من هذا المصدر في تعريف، الوظائف، والرتب الإدارية والعسكرية، والألقاب

---

(١) ولي الدين ابو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، فيلسوف المؤرخين الذين صنفوا في اللغة العربية، من عشيرة رحلت الى الاندلس ولد في تونس الغرب سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م وتولى وظيفة في الدولة الحفصية بتونس عام ٧٥٢م/١٣٥١م، ثم تولى وظيفة عند حاكم فاس، وفي سنة ٧٧٣هـ/١٣٦٢م اجتمع مع سلطان غرناطة في الاندلس، وسجن في شمال افريقيا سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٤م، وتوجه ابن خلدون إلى مصر وأقام فيها ثلاث سنين، ثم تولى فيها قضاء المالكيين، ثم ذهب إلى الشام، وعندما كان في الشام وقع ابن خلدون في أسر تيمور لنك في غزوه لبلاد الشام، وخدع ابن خلدون تيمور لنك، ونجا من القتل، بدهائه الكبير، وقد توفي ابن خلدون في سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م، ومن مؤلفاته المهمة، تاريخ ابن خلدون، حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٢٧٨ ؛ فانديك ، ادوارد : اكتفاء القنوع ، ص ٧٦.

(٢) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله القلقشندي، أحد كبار مؤرخي العصر المملوكي، وهو أديب فقيه، شافعي المذهب، وكان يعمل رئيساً لديوان الإنشاء في القاهرة، وقد توفي في جمادى الأخرة سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م، وبلغ من العمر خمس وستين سنة، ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر، ج ٧ ، ص ٣٣٠ ، ٣٣١.

المملوكية.

١٢- **السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي**[١] (ت:٨٤٥/١٤٤١م)، يُعد من المؤلفات المهمة والمميزة في العصر المملوكي، وكانت كثير من المعلومات التي سردها عن تأسيس دولة المماليك، وقوتها وتطورها في كافة المجالات، ويتضح ذلك من خلال كتاباته، أنه ذكر أسماء شخصيات لم يذكرها أحدٌ سواه من المؤرخين، في عهد بيبرس وقطز، وأشار المقريزي للصراع الداخلي بين المماليك، وأشار إلى توحيد الجبهة الداخلية للمماليك، إبان الخطر المغولي وأهمية ذلك، وأثرها على قوة دولة المماليك، ودورها في تحقيق النصر على المغول، وتم الاستفادة من كتاب المقريزي السلوك لمعرفة دول الملوك، في فصول الرسالة الثلاثة.

١٣- **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، للعيني**[٢](ت:٨٤٥/١٤٤١م)، من المصادر المهمة في العصر المملوكي، ونقل العيني عن المؤرخين الكبار، مثل بيبرس المنصوري، الذي نقل عنه كثيراً، كما نقل عن ابن كثير والمقريزي وغيرهم، وكان العيني يأتي إليها بإضافات، فتناول جميع جوانب الحياة في مصر الدينية، والسياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والاجتماعية، في العصر المملوكي في هذا الكتاب، وتم الاستفادة من هذا الكتاب في موضوع الدراسة في كافة الفصول الثلاثة.

١٤- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي**[٣] (ت:٨٧٤/١٤٦٩م)، من المصادر المهمة التي تناولت تاريخ المماليك، وقد تناول ابن تغري بردي معلومات نقلاً عن

---

(١) أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن تميم العبيدي الاصل القاهري، ويعرف بابن المقريزي، نسبة لحارة المقارزة في بعلبك، كان جده من كبار المحدثين، وانتقل والده إلى القاهرة، وقد تولى المقريزي الكثير من الوظائف في مصر وتعلم على يد شيوخ من أقاربه، وغير أقاربه من مصر، وكانت نشأة المقريزي حسنة، فحفظ القرآن، وكان مؤرخاً فذا ودقيقاً، السخاوي: الضوء اللامع، ج٢ ، ص٢١، ٢٢.

(٢) بدر الدين محمود بن أحمد العيني، من كبار مؤرخي العصر المملوكي، وأشهر مؤلفاته عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، وتوفي سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م، حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ١١٥٠.

(٣) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الأمير الكبير سيف الدين تغري بردي الحنفي الأتابكي، ولد بالقاهرة سنة ٨١٣هـ/١٤١٠م، رباه زوج أخته قاضي القضاة ناصر الدين بن العديم، وعندما توفي تزوج أخته جلال الدين البلقيني الشافعي، فتولى مهمة تربيته، وحفظ القرآن الكريم، وتعلم ابن تغري بردي الفقه، والنحو، وأصبح عالماً في اللغة العربية، ثم أهتم بعلم التاريخ، ولازم مؤرخي عصره كالمقريزي، والعيني، وغيرهم، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ٣١٧ ؛ الشوكاني : البدر الطالع ، ج ٢ ، ص ٣٥١ ، ٣٥٢ ؛ فانديك ، ادوارد : اكتفاء القنوع ، ص ٧٥ ؛ البغدادي ، إسماعيل : هدية العارفين، ج٦، ص٥٦٠.

أستاذته المقريزي والعيني، وتناول معلومات إنفرَدَ بها، وهو من المؤرخين المميزين في العصر المملوكي، ونقلت الكثير من المعلومات المهمة من هذا المصدر في فصول البحث الثلاثة، وأشار ابن تغري بردي للصراع الداخلي بين المماليك، ثم التلاحم الذي يحدث؛ بسبب الخطر المغولي.

١٥- **بدائع الزهور ووقائع الدهور، لابن إياس**[١] (٩٢٩هـ/١٥٢٣م)، من المصادر الموسوعية الموسوعية المهمة، وبالرغم من المؤرخ ولد في أواخر العصر المملوكي، إلا أنه قدم معلومات مهمة، وأضاف معلومات جديدة تختلف عن المؤرخين الذين نقل عنهم، وتناول ابن إياس جميع جوانب الحياة في العصر المملوكي، وتناول الصراع الداخلي بين المماليك، والخطر المغولي، وأشار إلى دور هذا الخطر في توحيد جبهة المماليك الداخلية.

(١) محمد بن أحمد بن الياس المصري الحنفي المؤرخ الشهير بابن إياس، له عدة مؤلفات، أهما بدائع الزهور ووقائع الدهور، وعقود الجمان في وقائع الأزمان، ونزهة الأمم في العجائب والحكم، ونشق الأزهار في العجائب الاقطار، والجواهر الفريدة والنوادر المفيدة، وغيرها، وتوفي ابن إياس عام ٩٣٠هـ/١٥٢٤م، البغدادي، إسماعيل : هدية العارفين ، ج ٦ ، ص ٢٣١.

تمهيد:

عاش المغول في المنطقة الواقعة في وسط آسيا، بين نهري سيحون وجيحون غرباً حتى حدود الصين الجبلية شرقاً ممتدة حتى جنوب شرقي آسيا، وتوسع البعض في حدودها حتى امتد بها الأدرياتيكي، ويوجد في هضبة منغوليا الكثير من الجبال والأنهار، وساعد مُناخها الدافئ شتاءً على توفر المراعي لحيواناتهم، وينتقل المغول في الصيف لأعالي الجبال للرعي، وكانوا عدة قبائل متفرقة، وقد وحدهم الزعيم المغولي جنكيز خان المعروف بتموجين، فأسس الإمبراطورية المغولية الضخمة، وقد أسقط العديد من الدول، منها: الدولة الخوارزمية المسلمة(١).

قرر أحفاد جنكيز خان التوجه غرباً نحو الخلافة العباسية وبلاد الشام ومصر، لتنفيذ مخططهم في السيطرة على العالم، بعد احتلالهم لمعظم قارة آسيا، وقد كانت الخلافة العباسية في حالة ضعف شديد(٢)، وقد كانت الدولة الأيوبية في بلاد الشام مقسمة إلى عدة دويلات(٣)، وأما مصر فقد كان يحكمها سلطان شجاع وقوي هو الصالح نجم الدين أيوب، الذي عمل على تقوية دولته لمواجهة الخطر الصليبي، ومن الإجراءات التي أتخذها الصالح أيوب، شراء المماليك، وقد كان يشتريهم أطفالاً من التجار، وهؤلاء الأطفال متعددو الجنسيات، لكن معظمهم من الترك، أي من أواسط قارة آسيا، وبعد أن يتم شراءهم، يتم تربيتهم، تربية دينية، ثم يتم تعليمهم على كافة أشكال علوم وفنون القتال، بالقرب من حصن دمياط على نهر النيل (جزيرة الروضة)، وكان عددهم يناهز الألف مملوك، وبعد إتمام تدريبهم تدريباً عسكرياً عالياً، يشاركوا في الجهاد ضد أعداء الأمة، وكانت أول مشاركة جهادية لهم، تصديهم للحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك الفرنسي لويس التاسع، وقد نجحوا في التصدي لهذه الحملة وأسر الملك الفرنسي، وحمل هؤلاء المماليك راية الجهاد بعد مقتل السلطان المعظم توران شاه بن أيوب، وتصدوا للمغول بقوة وحزم، وقاموا بتطهير بلاد الشام من الصليبيين(٤).

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٠ ، ص ٤٠١ – ٤٠٣ ؛ أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر، ج١، ص ٣٩٣–٣٩٥ ؛ الصلابي، علي : دولة المغول والتتار بين الانتشار والانكسار، ص ٢٧ – ٢٩ ؛ لاين، جورج : عصر المغول ، ص ٧ – ٣٨ ؛ حمدي، حافظ: الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١٢٧ – ١٣٥.

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٣٣ ؛ ينظر، النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ٢٣٧–٢٤١.

(٣) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٧ ، ص ٢٩٢ ؛ ينظر، أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٣٦ ، ٤٣٧.

(٤) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٧ ، ص ٦٩٢ – ٦٩٤.

الفصل الأول: أثر توحيد جبهة المماليك الداخلية في تحقيق النصر على المغول في معركة عين جالوت عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م:

- **المبحث الأول- تشتت المماليك البحرية بعد مقتل أقطاي الجمدار، وغزو المغول لبلاد الشام:**
- **المبحث الثاني- الوحدة ودورها في تحقيق النصر على المغول في معركة عين جالوت عام ٦٥٦هـ/١٢٦٠م:**

المبحث الأول- تشتت المماليك البحرية بعد مقتل أقطاي الجمدار، وغزو المغول لبلاد الشام:

أولاً – مقتل توران شاه وسلطنة شجر الدر وأيبك:

قَتل أمراء المماليك السلطان المعظم توران شاه[١]؛ بسبب قيامه بتهديد ووعيد لأمراء أبيه ومماليكه، وقيامه بتركهم، واعتمد على بطانته الذين وصلوا معه من حصن كيفا[٢]، وكانوا أطرافاً أراذل[٣]، وأما السبب المباشر فهو قيام توران شاه بن أيوب بتهديد زوجة ابيه أم خليل (شجر الدر) وطلب منها الأموال والجواهر، وقد خافت منه كثيراً فكتبت إلى أمراء المماليك البحرية تستنجد بهم[٤]؛ فاجتمع قادة المماليك البحرية على قتله بعد نزوله بفارسكور[٥]، وهجموا عليه بالسيوف، وكان أول من ضربةُ ركن الدين بيبرس البندقداري[٦]، فهرب توران شاه منهم إلى برجه الخشبي الذي نصبه بفارسكور[٧]، وطالبوه بالنزول إليهم من أعلى البرج فرفض، فما كان منهم

---

(١) المعظم توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الكامل ملك مصر في التاسع عشر من ذي القعدة سنة ٦٤٧هـ/١٢٥٠م، وكانت مملكته واحد وتسعين يوماً وهو آخر من ملك مصر من بني أيوب ، ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص٣٨.

(٢) حصن كيفا ويقال كيبا في أرمنية وهي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر ، ياقوت الحموي ، معجم البلدن ، ج ٢ ، ص ٢٦٥ ؛ ينظر ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٧ ، ص٤٤٤ ؛ القزويني : آثار البلاد ، ج ١ ، ص ١٧١ ؛ ابن ناصر الدين القيسي : توضيح المشتبه، ج ٣ ، ص ٢٦٢ ؛ العيني : عمدة القاري، ج ٢١ ، ص ١٨٨ ؛ المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص١٢.

(٣) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر، ج ١ ، ص ٤٣٤.

(٤) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٩ ، ص ٢٣٣.

(٥) مدينة تقع على ساحل النيل، وهي قريبة من مدينة دمياط ، ابن بطوطة : تحفة النظار، ج ، ص٥٠؛ السخاوي : البلدانيات، ج ١، ص ٢٣٤.

(٦) ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي النجمي، أصله تركي الجنس، أُسر من بلاد القفجاق، وهو طفل سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م، وبيع في دمشق لشخص اسمه العماد الصايغ، ثم أشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار الصالحي، وإليه ينسب، ولما قَبض السلطان الصالح نجم الدين أيوب على الأمير أيديكن البندقداري، أخذ مماليكه، ومنهم بيبرس، فأعتقه وسار من جملة المماليك البحرية، وكان بيبرس شهماً شجاعاً، برزت مواهبة وقدراته العسكرية في معركة المنصورة ضد الصليبين عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، وأظهر فيها شجاعة لم يسمع بمثلها من قبل، ولما قام المماليك بقَتل السلطان المظفر قطز في القرين (بالقرب من الصالحية)، تولى بيبرس السلطنة وتلقب بالملك الظاهر، ابن إياس : بدائع الزهور، ج ١ ، ق ١ ، ص٣٠٨ ، ٣٠٩ ؛ ينظر، الصُقاعي: تالي كتاب وفيات الاعيان ، ص٥٠.

(٧) مدينة تقع في الضفة الشرقية لنهر النيل، الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، ص ٣٣٩.

إلا أن أشعلوا النار في البرج النار؛ فهرب توران شاه من البرج باتجاه البحر؛ ليركب في حراقته، فحالوا بينه وبينها بالنشاب، فطرح نفسه في البحر، ثم أدركوه وقتلوه[١].

أدى مقتل السلطان توران شاه بن أيوب إلى ترك فراغ كبير، ولسد هذا الفراغ كان على الأمراء المماليك اختيار سلطان جديد[٢]، واتفقوا على أن يقيموا شجر الدر زوجة الملك الصالح أيوب في المملكة، وأن يكون عز الدين أيبك الصالحي، المعروف بالتركماني، أتابك العسكر[٣]، وحلفوا على ذلك، وخطب لشجر الدر على المنابر، وضربت السكة باسمها، وكان نقش السكة المستعصمية الصالحية، ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل، وكانت شجر الدر قد أنجبت من الملك الصالح ولداً ومات صغيراً، وكان اسمه خليل، فسميت والدة خليل، وكانت صورة علامتها على المناشير والتواقيع، والدة خليل[٤]، وعندما علم الخليفة العباسي المستعصم بالله[٥] أن أهل مصر قد سلطنوا امرأه، أرسل يقول لهم: «أعلموا إن كان ما بقى عندكم في مصر من الرجل من يصلح للسلطنة، فنحن نرسل إليكم من يصلح لها، أما سمعتم في الحديث عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»، وأنكر عليهم بسبب ذلك غاية الإنكار، وعندما علمت شجر الدر ذلك جمعت الأمراء والقضاة، وخلعت نفسها برضاها[٦]، وقد اتفق الامراء المماليك على وجوب تولية واحد منهم، خشية فساد شؤون السياسة والحكم[٧]،

---

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ج ١ ، ص ٤٣٤.

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٢١.

(٣) الأتابك وأصلها أطابك، معناه الوالد الأمير، وهو لفظ يتكون من مركب من «أتا» بمعنى الأب و«بك» بمعنى الأمير الوصي، ومعناها مجتمعتين، الأمير المربي، أو الأمير الوالد، وهو مصطلح تركي ظهر في عهد السلاجقة، وأعتمد عليهم في الجيش والقصور، حتى أصبحوا أوصياء على أبناء السلاطين، وأتابك العسكر في العصر المملوكي هو أكبر أمراء الدولة بعد نائب السلطان في الدولة المملوكية، القلقشندي: صبح الاعشى، ج ١١ ، ص١٦٥ ؛ الطرطوسي: تحفة الترك، ج١، ص ٧٤ ؛ ينظر، حلاق، حسان وصباغ، عباس: المعجم الجامع، ص ١٤ ؛ دهمان، محمد : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص١١.

(٤) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ج ١ ، ص ٤٣٥.

(٥) هو أبو أحمد عبد الله بن المستعصم بالله كان خليفة ضعيف الرأي والبصر بتدبير أمور الدولة، وبويع له بالخلافة عقب موت أبيه المستنصر في جمادى الآخرة سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م، باتفاق من أهل الدولة، وبقى حتى قتله المغول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، القلقشندي: مآثر الإناقة ، ج ٢ ، ص ٨٩.

(٦) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ، ١ ، ص ٢٨٧.

(٧) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ج ١ ، ص ٤٣٥.

وقد وقع اختيارهم على عز الدين أيبك التركماني؛ لأنه أمير معروف بين أمراء المماليك بالسداد، وملازمة الصلاة، ولين الصدر، والكرم، وسلطنوه بناءُ على ذلك في عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م[١]، وتزوج أيبك التركماني من شجر الدر، بعد أن خلعت نفسها عن الملك وسلمتها إليه السلطنة في العام نفسه، وتلقب بالملك المعز[٢]، وقد اتفق الأمراء فارس الدين أقطاي الجمدار[٣]، وركن الدين بيبرس البندقداري وسيف الدين بلبان الرشيدي، وسنقر شمس الدين سنقر[٤] الرومي[٥] على أن يختاروا شخص ضعيف من بني ايوب، يحكمون البلاد ويديرونها بأسمة، وقد وقع اتفاقهم على الطفل الأشرف موسى[٦]، وكان عمره نحو عشر سنين؛ وخطبوا له وجعلوا أيبك التركماني أتابك، وكانت التواقيع تخرج وصورتها «رسم بالأمر العالي المولى السلطاني الملكي الأشرفي والملكي المعزي»[٧].

يتبين مما سبق أن اختيار الأمراء المماليك لطفل أيوبي يضعونه شريكا في الحكم لأيبك؛ بسبب عدم استيعاب الناس لحكم المماليك؛ ولإضفاء الشرعية بشكل غير مباشر على حكمهم، وجعل الناس يستوعبون حكم المماليك تدريجياً.

---

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ص ٢١ ، ٢٢.

(٢) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٢٩ ، ص ٢٣٣.

(٣) جمدار من «جامه» بمعنى اللباس و«دار» أي المسؤول، وفي الاصطلاح شاعت في العهد المملوكي للدلالة على المسؤول عن لباس السلطان، كما يدل المصطلح أيضاً على فرقة من الحرس السلطاني في عهد المماليك ، حلاق ، حسان وصباغ ، عباس: المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية، ص ٦٧.

(٤) شمس الدين سنقر الرومي، كان جمدار السلطان الصالح أيوب، وكان صديق لبيبرس البندقداري، وكان بيبرس يتفقده بالمال والقماش، وبالرغم من صدقتهما أمر الظاهر بيبرس بسجنه في ١٤ ذي الحجة سنة ٦٦٣هـ /٢٦ سبتمبر ١٢٦٥م ؛ لأخطاء أرتكبها سنقر الرومي، وتوفي في سجنه في ١١ جمادى الأول سنة ٦٧٦هـ/ ١٠ أكتوبر سنة ١٢٧٧م، النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٨٠.

(٥) الرومي كان يطلق في العهد المملوكي على المملوك المجلوب من أوروبا، وفي الغالب من أوروبا الشرقية ، دهمان ، محمد : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، ص ٨٤ ؛ حلاق ، حسان وصباغ ، عباس: المعجم الجامع ، ص ١٠٤.

(٦) الأشرف مظفر الدين موسى بن الناصر يوسف بن المسعود أقسيس بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن نجم الدين أيوب ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥ ، ٦ ؛ ينظر ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ، ص ١٩٨.

(٧) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ص ٢١ ، ٢٢.

ثانياً – الخلافات والصراع بين المعز أيبك وأقطاي:

كان فارس الدين أقطاي الجمدار كبير الأمراء، وكان جميل الشكل وافر الحشمة، يعرف بشجاعته وكرمه، اشتراه تاجر فرباه وباعة بألف دينار وكانت الإسكندرية إقطاعة وله من المماليك ما لسلطان، وكان أكبر أمراء المماليك البحرية تحت لواءه كبلبان الرشيدي وركن الدين بيبرس البندقداري، وكانت شخصية فارس الدين أقطاي الجمدار قوية، وله هيبة، وكان موكبه كمواكب الملوك، وكان لا يعبر السلطان المعز أيبك، ولا يعمل له أي قيمة، وكان يتعامل معه على أنه اقل منه درجة وهو كذلك حقاً[١]، وبالرغم من ذلك لم يكن فارس الدين أقطاي الجمدار ينظر للسلطنة، وكانت محبة أمراء البحرية لأقطاي جاءت من تواضعه معهم[٢].

عظمت قوة فارس الدين أقطاي الجمدار بمصر، وكانت نية أمراء المماليك البحرية الكبار من حزبه جَعَلِه سلطاناً على مصر[٣]، وكانوا يُسمونه الملك الجواد فيما بينهم[٤]، ونزل ركن الدين بيبرس البندقداري بدار الوزارة، وصار من كبار أمراء الدولة، وكذلك سيف الدين بلبان الرشيدي، وشمس الدين سنقر الرومي، وشمس الدين سنقر الأشقر، وعز الدين أيبك الأفرم[٥]، وكان السلطان أيبك خائف من قوتهم وثورتهم، وكان المماليك العزيزية (أنصار السلطان المعز أيبك) لا يساوون شيء أمام حزب أقطاي الموحد والقوي[٦]، وحتى يزيد فارس الدين أقطاي حب الجند

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ، ص ٢٩٨.

(٢) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٣٢.

(٣) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٤٨ ، ص ٧.

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠ ، ١١.

(٥) عز الدين أيبك الأفرم الصالحي من المماليك البحرية، قائد عسكري مخضرم، وأبرز ما قام به في عهد المعز أيبك وهو مساعد فارس الدين أقطاي الجمدار في الحملة التي أرسلها المعز أيبك لقمع عربان الصعيد (ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٣٣) ، ودخل في خدمة المظفر قطز، لمواجهة الخطر المغولي القادم (اليونيني: ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٩) ، ودخل في خدمة الظاهر بيبرس وأبرز ما قام به في عهده كان أحد قادة حملة فتح بلاد النوبة (السودان)، ودافع عن السلطان السعيد بركة ابن الظاهر بيبرس، ورفض فتح قلعة الجبل أثناء حصارها من قبل قلاوون الألفي، (الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٥٠ ، ص ١٨ ، ٣٧) ، وأصبح الأفرم نائب السلطنة في عهد المنصور قلاوون (المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٢٣) وشارك بدور مهم في تحرير عكا من الصليبيين في عهد الأشرف خليل بن قلاوون، ودخل في خدمة أخية الناصر محمد بن قلاوون، وتوفي الأفرم في سلطنة العادل كتبغا عاشر سلاطين المماليك يوم الأربعاء ٢٦ صفر سنة ٦٩٥هـ/ ٣ يناير ١٢٩٦م، (النويري نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ١٣٤ ، ١٧٥ ، ١٩٤) .

(٦) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٤٨ ، ص ٧.

والناس فيه أخذ يوزع الإقطاعات على الأمراء، والأموال على الناس، ونتج عن ذلك كثر أتباعه ومحبيه، فتضايق المعز أيبك من تصرفاته، وأخذ يفكر في التخلص منه[١]، وبالرغم من ذلك، قام فارس الدين أقطاي، بقمع ثورة الصعيد عام ٦٥٢هـ/١٢٥٤م، التي قامت ضد المعز أيبك[٢].

لم يكن لأيبك القدرة على التصدي لأقطاي؛ لتحالف كبار أمراء المماليك البحرية معه، كبيبرس البندقداري وبلبان الرشيدي[٣]؛ ولم يكن من المناسب التخلص منه في ظل تهديدات الناصر يوسف لمصر[٤]، لأنه أقطاي هو الشخص الوحيد القادر على هزيمة الناصر يوسف، الذي سار بجيشة من بلاد الشام إلى مصر للسيطرة عليها عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م، بصبحة افضل قادته وهما شمس الدين لؤلؤ[٥]، وضياء الدين القيمري[٦].

في عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م أرسل الخليفة العباسي المستعصم بالله الشيخ نجم الدين البادرائي[٧]؛ ليعقد الصلح بين الملكين المتحاربين الناصر يوسف والمعز أيبك، ونجح البادرائي في عقد اتفاق بينهما، وبموجبه يأخذ الملك المعز أيبك من الملك الناصر يوسف القدس وغزة، وساحل فلسطين إلى حدود نابلس، فأستلم ذلك، بعد حلف كل من الملكين للآخر [٨].

---

(١) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٣٢.

(٢) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٢٧٥.

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ، ص ٢٩٨.

(٤ صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ويلقب بالملك الناصر، وكان ملكاً على دمشق وحلب، أبو الفداء : المختصر ، ج١ ، ص ٤٣٥ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٧.

(٥) شمس الدين لؤلؤ، مملوك أرمني الجنس، كان قائد جيش الناصر يوسف ضد المعز أيبك، وقد أمر فارس الدين أقطاي الجمدار بضرب عنقه ؛ لأنه تحد أقطاي وقال : «سأخذ مصر بمائتي فارس»، وكان عمر لؤلؤ عندما قتل، بضع وستون سنة ، النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٢٤٤.

(٦) النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٤٩ ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٤٧ ، ص٥٩ ، ٦٠.

(٧) الشيخ نجم الدين البادرائي، مبعوث ولعب دور وسيط لوقف الحروب بين مصر والشام، بين الناصر يوسف والصالح نجم الدين أيوب، وبين الناصر يوسف والمعز أيبك، بتكليف من الخليفة العباسي المستعصم بالله، النويري : فنون الأدب ، ج ٢٩ ، ص ٢١٣ ، ٢٤٤ ، والبادرائي نسبة إلى بادرايا وهي قرية من أعمال واسط ، التميمي : الأنساب ، ج ١ ، ص ٢٤٩ ؛ ابن الأثير: اللباب ، ج ١ ، ص ١٠٤ ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣١٦ ؛ ابن قاضي شبهة : طبقات الشافعية ، ج٢ ، ص١٠٦ ؛ السيوطي : لب اللباب ، ج١ ، ص٩٠.

(٨) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٢٧٥.

من خلال ما سبق يتبين أن أيبك كان يُبقي على حياة أقطاي في بداية حكمه؛ لخوفه من قوته، وللاستفادة من خبرته العسكرية العالية في محاربة جيوش بلاد الشام – أي أنه أبقى على حياته للمصلحة، الجدير بالذكر أن اقطاي اضطلع بالمهام الموكلة إليه في تأديب حركات التمرد في الصعيد وغيرها، وقمع حركات التمرد منذ بداية حكم أيبك لمصر؛ ونتج عن الصلح بين المعز أيبك والناصر يوسف، التخلص من فارس الدين أقطاي الشخص القوي والوحيد الذي كان يستطيع إيقاف الناصر يوسف عند حده وهزيمته بسهوله، وبعد أن أصبح لا فائدة من أقطاي، وأن خطره أكثر من فوائده على أيبك، أصبح من الضروري أن يتخلص أيبك منه، خوفاً من قيام أقطاي بعزله، أو قتله في أي لحظة وهو على ذلك قادر، نظراً لحظوته الكبيرة عند كبار أمراء المماليك، وحب الجيش له.

ثالثاً– مقتل أقطاي وتشتت المماليك البحرية:

١– مقتل فارس الدين أقطاي الجمدار:

خطب فارس الدين أقطاي الجمدار أبنة الملك الأيوبي المظفر تقى الدين محمود صاحب حماة، وكان يحكم حماة وقتها أخوها الملك المنصور بعد موت أبيه[١]، فطلب من أيبك أن يُخلي له دار السلطنة ليعمل عرسه بها، وصمم على ذلك[٢]، وتحدث أقطاي مع الملك المعز أيبك أنه يريد إسكانها في قلعة الجبل، لكونها من بنات الملوك، وأرسل أيبك إلى الناصر يوسف واستشاره في الفتك بأقطاي، فلم يرد الناصر يوسف عليه، وقام أقطاي بأرسال، جماعة لإحضار بنت صاحب حماة إليه، فخرجت من حماة، ووصلت إلى دمشق، وعليها الحلي والجواهر، ثم خرجت بمن معها من دمشق متوجهة إلى مصر، وأما المعز أيبك، عندما تحقق أن بنت صاحب حماة في الطريق، وتأخر رد الناصر يوسف عليه، بقى متحيراً، إن منعه من سكن القلعة حصلت العداوة الكلية، وإن أسكنه قويت شوكته بها، ولم يتمكن من إخراجه، ويترتب على ذلك استقلال فارس الدين أقطاى بالملك[٣].

إتفقت شجر الدر مع زوجها المعز أيبك على الفتك بأقطاي[٤]، وبعث المعز أيبك إليه

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ١١.

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ، ص ٢٩٨.

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١١.

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ، ص ٢٩٨.

وقت القيلولة يوم الأربعاء٣ شعبان عام ٦٥٢هـ/ ١٧ سبتمبر عام ١٢٥٤، ليحضر إليه بقلعة الجبل؛ بحجة أنه يرغب في استشارته في أمر ما؛ فأنطلق أقطاي متوجهاً إليه دون خوف، وعندما دخل من باب القلعة، ووصل في قاعة العواميد، أُغلق باب القلعة، ومُنع مماليكه من الدخول معه؛ فخرج عليه مجموعة كانوا قد أعدوا له كميناً لقتله، وهم: سيف الدين قطز[١]، وسنجر الغتمي[٢]، وبهادر المعزي[٣]، فضربوه بالسيوف حتى مات؛ فوقع الصراخ في القلعة والقاهرة بعد تسرب خبر قتله، وكان أتباعه ينتظرونه عند باب القلعة، وعددهم سبعمائة فارس، وفي ظنهم أنه لم يقتل وإنما قبض عليه المعز أيبك، وكان من أبرز المنتظرين، الأمراء: بيبرس البندقداري، وقلاوون الألفي[٤]، وسنقر الأشقر، وبيسري، وسكز[٥]، وبرامق[٦]، ولم يشعروا إلا ورأس أقطاي قد

---

(١) اسمه الحقيقي محمود بن ممدود وهو من بيت ملكي، فأمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه وأبوه أبن عمه، سباه المغول، وبيع في دمشق، وسمي قُطز، كان أنبل مماليك المعز ثم صار نائب السلطنة لولده المنصور، وتولى السلطنة في عام ٦٥٧هـ/١٢٥٩م ولقب بالملك المظفر، وكان إدارياً ممتازاً، وفارساً شجاعاً، متديناً، يتمتع بحب إلى الناس، هزم المغول في معركة عين جالوت، وطهر بلاد الشام منهم ، وكان أشقر وافر اللحية تام الشكل، وثب عليه بعض الأمراء، وهو راجع إلى مصر بين الغرابي والصالحية وقتلوه في ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ / أكتوبر ١٢٦٠م ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ، ص ٢٠٠، ٢٠١ ؛ السبكي : فتاوي السبكي ، ج ١ ، ص ٢٨٣ ؛ السمهودي : خلاصة الوفا ، ج ١ ، ١٥٨.

(٢) هو علم الدين سنجر الغتمي المعزي كان الرجل الثاني في دولة المعز أيبك، وصديقاً لبهادر المعزي، ومنافساً لقطز على السلطنة بعد مقتل المعز أيبك، المقريزي ، السلوك : ج ١ ، ص ٤٩٤ ؛ ينظر ، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٩.

(٣) الأمير سيف الدين بهادر المعزي، يُنسب للسلطان المعز أيبك، وكان أحد كبار رجال الدولة في عهده وفي عهد ابنه المنصور علي بن أيبك، وكان هذا بهادر المعزي يد حديدية للمعز أيبك، وكان ينافس الأمير سيف الدين قطز، وسف الدين الغتمي في دولة المعز أيبك، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج ١ ، ص ١٨ ؛ ابن خلدون : تاريخ ، ج٥ ، ص٤٣٣ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨٣ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ١، ص ٤٨٤.

(٤) سيف الدين قلاوون الصالحي النجمي، ولقب بالألفي، لأنه أُشتري بألف دينار، وكان جميل الصورة، ورجلاً له هيبة الملوك، ومحباً للجهاد، وعندما تولى السلطنة لقب بالملك المنصور، وكان مجاهداً ضد المغول والصليبيين، وتوفي في الستينات من عمره ، ابن الجزري : تاريخ ، ج ١ ، ص ٢٩.

(٥) الأمير سيف الدين سكز أحد أمراء المماليك البحرية، وكان من زميلاً لركن الدين بيبرس البندقداري، وقلاوون الألفي، النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٢٧٩.

(٦) الأمير سيف الدين برامُق، هو أحد أمراء المماليك البحرية، تشرد مع زملاءه في بلاد الشام وكان موالياً للأمير لأقطاي الجمدار وبعد مقتله أصبح موالياً لبيبرس البندقداري، العيني: عقد الجمان، ج ١ ، ص ١٨

رمى بها المعز أيبك إليهم، فسقطت الرأس في أيديهم، فهربوا[١]، والجدير بالذكر أن بيبرس وقطز كان بينهما صداقة قوية قبل إغتيال أقطاي، ويروي الأمير بدر الدين بكتوت الأتابكي[٢] عن صداقته مع قطز وبيبرس، قال : «كنت أنا والملك المظفر قطز والملك الظاهر بيبرس ركن الدين رحمهما الله في حال الصبا كثيراً ما نكون مجتمعين في ركوبنا وغير ذلك»[٣] .

بناء على ما سبق يمكن القول بأن من أهم **أسباب مقتل أقطاي**، هي:

أ- انتهاء المصالح المشتركة بين أقطاي وأيبك.

ب- تعالي أقطاي على أيبك، والنظر إليه على أنه ليس بالسلطان.

ت- زيادة نفوذ أقطاي، وانجذاب كبار أمراء البحرية نحوه.

ث- زيادة حب الجيش والناس لأقطاي؛ لتوزيعه الأموال والإقطاعات عليهم.

كان أقطاي قبل مقتله يمنع المعز أيبك من الاستقلال بالسلطنة، وكان الاسم للملك الأشرف موسى، فلما قتل أقطاي أستقل أيبك بالسلطنة، وعزل الأشرف موسى نهائياً، وبعث به إلى عماته القطبيات، وكان الأشرف موسى آخر من خُطب له من بني أيوب بالسلطنة في مصر[٤] .

٢- تشتت أنصار فارس الدين أقطاي من المماليك البحرية:

بعد مقتل فارس الدين أقطاي الجمدار، ساد جو من الخوف والقلق لدى قادة المماليك البحرية، ومنهم: بيبرس البندقداري، وقلاوون الألفي، وسنقر الأشقر، وبيسرى، وسكُز، وبرامُق، فقرر الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري التوجه إلى قلعة الجبل، ومعه مجموعة من كبار أمراء المماليك البحرية[٥]، وعقد معهم اجتماعاً عاجلاً، وحضر الاجتماع سيف الدين قلاوون، وسيف الدين سنقر الاشقر، وبدر الدين بيسري الشمسي، وبلبان الرشيدي، وسيف الدين تنكز واخوه سيف

---

(١) ابن خلدون : تاريخ ، ج٥ ، ص٤٣٣ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨٣ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ١، ص ٤٨٤.

(٢) بدر الدين بكتوت الأتابكي الفارسي، كان مملوك للأمير فارس الدين أقطاي المستعرب، وعرف عنه حسن سيرته، ولما فتح المظفر قطز الشام أعطاه، أمرة مائة فارس، ومنحه اقطاع، وبقي أميراً في مصر والشام إلى أن توفي سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م، الصفاعي ، تالي كتاب وفيات الأعيان ، ص ٥٥ ، ٥٦.

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٤٦ ؛ ينظر ، العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٦٥ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، ج ٧ ، ص ٨٩.

(٤) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٤٨٤ ؛ ابن تغري بردي :النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١١

(٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ص ٤٣٣.

الدين موافق؛ لاتخاذ موقف من المعز أيبك[١]؛ فقرروا الخروج من القاهرة مجاهرين بالعداوة للمعز أيبك التركماني[٢].

بناء على ما سبق يمكن القول بأن قرار أمراء البحرية الخروج من القاهرة، قرار صائب وذكي، فإذا فكروا في الثأر لأقطاي من خارج القاهرة لن يتمكن أيبك من إبادتهم، والأهم من ذلك أن الخروج يمكنهم بالنجاة بأنفسهم من القتل وهذا ضروري في هذه المرحلة الصعبة؛ لأن أيبك على أية حال وضعهم جميعاً في دائرة الاستهداف، بعد ان تخلص من زعيمهم أقطاي، ولو أعلن أنصار أقطاي من البحرية عدواتهم لأيبك التركماني وبقوا في مصر، لقتلهم جميعاً، والجدير بالذكر أن خروج البحرية من مصر بعد مقتل أقطاي، يعني اِنقسام المماليك إلى حزبين متناوئين، وهما البحرية والمعزية.

خرج أنصار أقطاي الجمدار في الليل من القاهرة وحرقوا باب القراطين[٣]، وعرف هذا الباب بعد ذلك بالباب المحروق، وتوجه جزء منهم إلى الملك المغيث عمر بالكرك، ومنهم من سار إلى الملك الناصر يوسف بدمشق، ومنهم من أصبح يقطع الطريق، وأقام في غور الأردن، والكرك والشوبك، والقدس، وقد تاه منهم أثنى عشر شخصاً في سيناء، وتوجه جزء من الفارين يقودهم المقدم الأمير علم الدين سنجر الباشقردي، إلى السلطان علاء الدين ملك سلاجقة الروم، ومن لم يتمكن من الهروب منهم قبض عليه أيبك وقتله، وصادر أمواله وبيته[٤].

أمر السلطان أيبك التركماني بمصادرة أملاك وأموال، ودور المماليك الهاربين، والإحاطة على نساءهم وأبناءهم، وأتباعهم، ونودي في الأسواق والشوارع والطرقات، بتهديدات وعقوبات لمن يأوي أحداً منهم، وأعاد أيبك مدينة الإسكندرية إلي حكمه مباشرة، بعد أن كانت كلها إقطاعاً لأقطاي الجمدار، وأبطل ما قرره أقطاي من الجبايات[٥].

---

(١) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٣٣.

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ص ٤٣٣.

(٣) هو أحد أبواب القاهرة، كان يغلق في الليل مثل غيره من أبواب القاهرة، وعندما قُتل الأمير فارس الدين أقطاي الجمدار، هرب أنصاره من القاهرة، خوفاً من تصفية السلطان المعز أيبك لهم، وعندما وصولوا هذا الباب في الليل وجدوه مغلقاً، ولم يستطيعوا الخروج فقرروا حرقه، وتغير اسمه من باب القراطين إلى الباب المحروق ، المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٨٣ ؛ ينظر ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨٣ .

(٤) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨٣ ، ٤٨٤.

(٥) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٤٨٤.

بلغ عدد المماليك المشتتين، الذين توجهوا إلى سلطان سلاجقة الروم مائة وثلاثين فارساً، وأبرز الأمراء هم: فخر الدين ماما[١]، وشمس الدين سنقر الجبلي وهو أفرسهم وأقواهم، وعلم الدين سنجر الباشقردي وهو الناطق باسمهم[٢]، وعندما وصلوا سلطان سلاجقة الروم رحب بهم، وأجلسهم عنده، فأرسل أيبك رسالة لسلطان سلاجقة الروم، ليطرد المماليك البحرية، وقال فيها: «البحرية قوم مناحيس أطراف لا يقفون عند الأيمان، ولا يرجعون إلى كلام من هو أكبر منهم، وإن استأمنتهم خانوا، وإن استحلفتهم كذبوا، وإن وثقت بهم غدروا، فتحرر منهم على نفسك، فإنهم غدارون مكارون خوانون، ولا أمن أن يمكروا عليك»؛ فخاف سلطان سلاجقة الروم واستدعاهم وقال لهم: «يا أمراء ما لكم ولأستاذكم» فتقدم الأمير علم الدين سنجر الباشقردي وقال : «يا مولانا من هو أستاذنا» قال: «الملك المعز صاحب مصر» فقال الباشقردي : «يحفظ الله مولانا السلطان، إن كان الملك المعز قال في كتابه أنه أستاذنا فقد اخطأ إنما هو خوشداشنا[٣] ونحن وليناه علينا، وكان فينا من هو أكبر منه سناً، وقدراً وأفرس وأحق بالمملكة، فقتل بعضنا وحبس بعضنا وغرق بعضنا، فمر بنا منه وتشتتنا في البلاد ونحن التجأنا إليك» فأعجب سلطان سلاجقة الروم بهم واستخدمهم عنده[٤].

وتعقيباً على ما سبق يمكن القول بان أيبك فشل في الإيقاع بين المماليك (الذين اتجهوا إلى سلاجقة الروم) وبين ملك سلاجقة الروم، وفي الحقيقة من أفشل مخطط أيبك هو الأمير علم الدين سنجر الباشقردي، حيث نجح في إقناع سلطان سلاجقة الروم بأن أيبك ظلمهم، ولم يكن سلطانهم بل زميلاً لهم، بل كان بينهم من هو أكبر من أيبك سناً، وأعلى شأناً، وأكثر خبرة منه

---

(١) الأمير فخر الدين ماما من أمراء المماليك البحرية الموالين لأقطاي الجمدار، وتشرد إلى دولة سلاجقة الروم، شارك في معركة عين جالوت، وقدم فرسة للمظفر سيف الدين قطز في هذه المعركة، بعد أن قُتل فرس قطز في المعركة، وأقنع السلطان قطز بضرورة أن يكون راكباً على فرس حتى تبقى معنوية الجيش عالية، ولا يهلك المسلمين أن أستشهد في المعركة ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٦.

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨٤.

(٣) خُشداش من «خواجه» بمعنى السيد و«تاش» لاحقة تركية تفيد المشاركة وتجمع خُشداشية، وفي الاصطلاح يدل هذا التركيب على الزميل في الخدمة، والخشداشية هم مجموعة من المماليك نشأوا عند سيد واحد، وقد كانت الخشداشية من أقوى الروابط عند المماليك كافة، ويرجع هذا الأثر إلى قلة الروابط فيما بينهم، لأنهم كانوا يجلبون من مختلف البلدان والأسواق، وينشؤون عند سيد واحد، حلاق، حسان والصباغ عباس : المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ، ص ٨٣.

(٤) المقريزي: السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨٥.

يستحق أن يحكم البلاد، وفي الحقيقة لا يضر هؤلاء أيبك بشيء؛ بسبب بعد دولة سلاجقة الروم عن مصر، بالإضافة إلى أن عددهم قليل، فلا تستطيع قوة مائة وثلاثين فارساً كما أسلفنا سابقاً، أن تواجه جيش كبير كجيش أيبك.

أما أبرز أمراء البحرية الذين كانوا ينوون التوجه إلى الناصر يوسف، وهم: ركن الدين بيبرس البندقداري، وسيف الدين بلبان الرشيدي، وعز الدين آيدمر السيفي، وشمس الدين سنقر الرومي، وشمس الدين سنقر الأشقر، وبدر الدين بيسرى الشمسي، وسيف الدين قلاوون الألفي، وسيف الدين بلبان المستعرب وغيرهم، ولما شارفوا دمشق أرسل إليهم الملك الناصر يوسف طيب قلوبهم، وبعثوا فخر الدين إياز المقرئ[١]؛ حتى يأخذ لهم الأذن في دخول دمشق[٢] .

احتفل الملك الناصر يوسف بأمراء البحرية اللاجئين إليه وأكرمهم[٣]، وكان دخولهم دمشق في العشر الأواخر من شهر رمضان عام ٦٥٢هـ / نوفمبر ١٢٥٤، وأعطى الأمير ركن الدين بيبرس ثلاثين ألف درهم، ومجموعة من البغال والجمال، وملابس فاخرة، وفرق على بقية المماليك البحرية الأموال، والخلع، على قدر مراتبهم، وكتب المعز أيبك إلى الناصر يوسف يحذره منهم ويغريه بهم، فلم يستمع إليه الناصر يوسف ودام إحسانه إليهم، ومنح بيبرس إقطاعاً بحلب فطلب بيبرس أن يمنحه الإقطاع بجنين بدلاً من حلب، فوافق الناصر يوسف[٤]، وطلبوا منه القدس والساحل الفلسطيني فأقطعها لهم[٥].

علم الأمير عز الدين أيبك الأفرم بقيام السلطان المعز أيبك بقتل فارس الدين أقطاي، وفرار البحرية إلى الشام؛ فغضب وأعلن التمرد على المعز أيبك وجمع معه الشريف أبا ثعلب[٦]، وكان الأمير عز الدين أيبك الأفرم قد تولى على مدينتين مهمتان في مصر في سلطنة المعز أيبك

---

(١) فخر الدين أياز المعروف بالمُقرئ، كان أحد الأمراء الخيرين، وكان من الحجاب الكبار، وتوفي سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م، الصقاعي : تالي كتاب وفيات الأعيان ، ص ١٥.

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ص ٤٣٣.

(٣) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٣٣.

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ، ص ٩٧ ، ٩٨.

(٥) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٣٣.

(٦) الشريف أبي ثعلب بن نجم الدين عمر بن فخر الدين إسماعيل بن حصن الدين ثعلب الجعفري، من أحفاد جعفر بن أبي طالب الذين جاءوا من الحجاز، وأطاعه أعراب الصعيد لنسبه الشريف، ابن خلدون: تاريخ ، ج ٥، ص٤٣٢

وهما: قوص[١] وأخميم[٢]، وقد لاه أيبك عليهما بعد نجاحه مع فارس الدين أقطاي، بالقضاء على ثورة البدو في الصعيد، وجمع الأفرم البدو إلى جانبه، وبعث له المعز سنة ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م جيشاً بقيادة الأمير شمس الدين البرلي، وتمكن الأخير من هزيمتهم، وأسر الشريف وبقي في سجنه إلى أن قُتل، ونجا أيبك الأفرم، وقد خبأه أنصاره في الواحات، ثم توجه إلى الشام، وأنضم للناصر يوسف، وكان الناصر يوسف معجباً به، وأكرمه وأعطاه خمسة آلاف دينار[٣].

أغرى المماليك البحرية الناصر يوسف بالسيطرة على مصر؛ فأجابهم، وجهز الجيش لمحاربة المعز أيبك، ثم سار الناصر يوسف بجيشه الذي جهزه إلى الغور، ووصل المعز أيبك بجيشه من المماليك العزيزية إلى القاهرة، ثم نزل العباسية[٤]، وعندما وصلت الأخبار إلى الخليفة المستعصم بالله، بوصول جيش المغول بقيادة هولاكو[٥] إلى أذربيجان في جمادى الآخرة عام ٦٥٤هـ/١٢٥٦م، عازماً على احتلال بغداد وبلاد الشام، أرسل المستعصم بالله رسوله نجم الدين البادرائي إلى دمشق، لعقد صلح جديد بين الناصر يوسف وأيبك، وليثني عزم الناصر يوسف عن التوجه إلى مصر، ويتفق مع أيبك على قتال المغول، ولم يستطع الناصر يوسف عصيان طلب الخليفة، خوفاً من قيام الخليفة بسحب بساط الشرعية من تحت قَدمَيه، وكان جيش الناصر يوسف قد وصل غزة بالتزامن مع وصول البادرائي إلى الشام، فأرسل الناصر يوسف في طلب الجيش بالعودة من غزة إلى دمشق، وبذلك نجح البادرائي إيقاف الحرب[٦]، وتوافق الفريقان واصطلحوا ورجع كل منهم إلى بلده سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م، وبعث أيبك رسالة إلى الخليفة العباسي المستعصم

---

(١) تقع مدينة قوص على ساحل النيل الشرقي، بين مدينتي أسوان وأخميم، وقد بُنيت على أنقاض مدينة الأقصر الأثرية التي يعود أصلها للفراعنة، اليعقوبي: البلدان ، ص ١٧١ ؛ ناصر خسرو: سفر نامة، ص١١٦ ؛ البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ، ص ٦١٨.

(٢) مدينة تقع على ساحل النيل الشرقي وهي بجانب مدينة قوص، وقريبة جداً من مدينة أسوان، ناصر خسرو: سفر نامة، ص١١٦.

(٣) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٤٣٣ ، ٤٣٤ ؛ ينظر ، النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٢٨٢.

(٤) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٣٣.

(٥) هولاكو بن تولي خان بن جنكير خان، كلفه أخيه منكو خان زعيم المغول، الموجود في عاصمة المغول قراقورم، لاحتلال العراق وبدأ باحتلال قلاع الشيعة الإسماعيلية ثم توجه إلى العراق، وتمكن من احتلال بغداد، واسقاط الخلافة العباسية، ثم احتل الشام، النويري، نهاية الأرب، ج٢٧ ، ص ٢٥٥ – ٢٦٣.

(٦) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٤ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٢٧.

معلناً طاعة الخليفة، وطلب من الخليفة أن يعترف به كسلطان للمسلمين، وأن يمنحه الشرعية[١].

بناء على ما سبق يمكن القول أن الخليفة المستعصم بالله لعب دور حيوي، في إيقاف الحرب بين الناصر يوسف والمعز أيبك للمرة الثانية، والمهم أن ما جعل الخليفة يجبرهما على إيقاف الحرب هذه المرة، هو الغزو المغولي القادم نحو البلاد الإسلامية، إي أن الخطر المغولي أوقف المعركة بين الناصر يوسف والمعز أيبك، ومن الواضح أن الملكين الناصر والمعز لا يستطيعان عصيان الخليفة، فكلاهما يريد اكتساب وده، خوفاً من قيامة بسحب الشرعية منهما في أي لحظة.

رابعاً – مقتل أيبك وشجر الدر:

خطب المعز أيبك بنت بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل[٢]، فلما بلغ شجر الدر ذلك، دخلت الغيرة في قلبها، وظنت أن أيبك عزم على إبعادها، أو قتلها؛ لأنه سئم من حجرها عليه وتحكمها به[٣]؛ وتزايدت الوحشة بين أيبك وشجر الدر، فعزم على قتلها[٤]؛ لأنها كانت تمن عليه في كل وقت، وتقول له: «لولا أنا ما وصلت أنت للسلطنة»[٥]، وهي أيضا عزمت على قتله، وأصبح كل منهما يفكر كيف يغتال الأخر[٦]، وقد قام أيبك بالقبض على عدد من المماليك الصالحية، وسيرهم إلى قلعة الجبل وفيهم أيدكين الصالحي، فلما وصلوا تحت الشباك الذي تجلس فيه شجر الدر علم أيدكين أنها هناك قال لها بالتركي: «المملوك أيدكين بشمقدار والله يا خوند[٧] ما علمنا ذنباً يوجب مسكنا إلا أنه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل ما هان علينا لأجلك، فإنا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم، فلما عاتبناه تغير علينا وفعل بنا ما ترين»؛ فأومأت شجر الدر إليه بمنديل، وكانت تعني بذلك لقد سمعت كلامك، فلما نزلوا بهم إلى الجب قال أيدكين: «إن

---

(١) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٣٣.

(٢) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٨٨.

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٧٥.

(٤) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٩٤.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١ ، ق ١ ص ٢٩٣.

(٦) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٧٥.

(٧) خوند كلمة فارسية تعني السيد العظيم أو الأمير، واستعملت في العربية لقباً يطلق على الرجال والنساء على حد سواء بمعنى السيد أو السيدة، حلاق ، حسان وصباغ ، عباس : المعجم الجامع ، ص ٨٦ ؛ دهمان ، محمد : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، ص ٧٠.

كان حبسنا فقد قتلناه»[١].

استبدت شجر الدر بأمور الدولة، وفرضت الإقامة الجبرية على المعز أيبك، ومنعته من الاجتماع بزوجته الأولى أم علي وألزمته بطلاقها، ولم تطلعه على ذخائر الملك الصالح؛ فأقام الملك المعز بمناظر اللوق أياماً حتى بعثت شجر الدر من حلف عليه[٢]، ثم طلبت من صفي الدين إبراهيم بن مرزوق أحد كبار أمراء الدولة، أن يساعدها في قتل أيبك، مقابل منحه الوزارة، لكنه رفض ونهاها عن ذلك[٣]، فبعثت مع رسول اسمه نصر العزيزي، هدية إلى الملك الناصر يوسف، وأعلمته أنها قد عزمت على قتل المعز أيبك، والتزوج به وجعل مصر تحت ملكه؛ فخشي الملك الناصر يوسف أن تكون خديعة أعدتها له شجر الدر، فلم يجبها بشيء، وبعث بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل رسالة تحذير عاجلة للمعز أيبك من شجر الدر، بأنها أرسلت للملك الناصر يوسف ترغب في تمليكه مصر؛ فعزم على إبعادها وإنزالها من القلعة إلى دار الوزارة[٤] .

طلبت شجر الدر من الطواشي محسن الجوهري الصالحي، قتل المعز أيبك وأغرته بالأموال[٥]، وفي ٢٣ ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ/ ٩ ابريل سنة ١٢٥٧م كان المعز يلعب الكرة، ولما انتهى، صعد إلى القلعة آخر النهار، وأتى الحمام ليغتسل فلما قلع ثيابه، وثب عليه سنجر الجوهري والخدم فرموه وخنقوه، ثم قامت بعرض السلطنة على الأمير جمال الدين بن أيدغدي بن عبد الله العزيزي، وعز الدين أيبك الحلبي، فامتنعا عنها[٦]، وأرسلت تلك الليلة خاتم السلطنة إلى الأمير عز الدين الحلبي الكبير، فرفض أخذه، وقام المماليك الصالحية بحمايتها من القتل، وتمكن القاتل سنجر الجوجري مملوك الطواشي محسن من الهرب، إلا أن المماليك المعزية[٧] ألقوا القبض عليه ثم صلبوه، وفرضت الإقامة الجبرية على الصاحب بهاء الدين بن حنا[٨] لكونه

---

(١) المقريزي ، السلوك : ج ١ ، ص ٤٩٣.

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٤٩٣.

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص٣٧٥.

(٤) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩٣.

(٥) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٨٨.

(٦) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٧٥.

(٧) المعزية نسبه إلى السلطان المعز أيبك التركماني، ابن حجر العسقلاني : رفع الإصر ، ج ١ ، ص ١٥٠

(٨) الصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن سليم المعروف بابن حنا الوزير، كان من المشهورين بحسن التدبير، وكان وزيراً في عهد الظاهر بيبرس، وبداية سلطنة السعيد بركة بن بيبرس، وتوفي بمصر سنة

وزير ومستشار لشجر الدر[١] .

أُشيع أن الملك المعز أيبك مات فجأة في الليل، فلم يصدق المماليك المعزية ذلك، وشكوا بأنه قُتل، وعلى الفور أسرع الأمير سنجر الغتمي، وكان وقتها من أكثر المماليك المعزية شدةً وقوة، وبادر هو والمماليك المعزية، بالقبض على الخدم والحريم وقاموا بالتحقيق معهم في قضية اِغتيال السلطان أيبك، فاعترفوا بما جرى؛ فأسرع المماليك المعزية بإلقاء القبض على قتلة أيبك وهم: محسن الجوجري، وناصر الدين حلاوة، وصدر الباز، وهرب العزيزي إلى الشام، وأسرع المماليك الصالحية إلى نقل شجر الدر إلى البرج الأحمر بالقلعة، ولما تولى السلطنة المنصور نور الدين علي ابن المعز أيبك، فرض المماليك المعزية حصاراً حول البرج، وتمكنوا من القبض عليها وأخذها إلى ام المنصور علي (زوجة أيبك الأولى)، ثم ضربتها الجواري بالقباقيب إلى أن ماتت في ١٦ ربيع الآخر عام ٦٥٥هـ/ ٢ مايو ١٢٥٧، وألقيت من سور القلعة، وبقيت فترة في مكانها حتى دُفنت، وصلب محسن الجوجري على باب القلعة وكل من شارك في قتل المعز أيبك[٢]، فخاف المماليك الصالحية الذين حموا شجر الدر على أنفسهم فهرب أكثرهم إلى الشام، ولحق بهم المماليك العزيزية وألقوا القبض عليهم وتم نقلهم إلى سجن القلعة[٣].

أقام المماليك المعزية نور الدين علي بن الملك المعز أيبك، ولقبوه بالمنصور، وكان عُمره وقت ولي الحُكم خمس عشرة سنة في عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م[٤]، وأصبح سيف الدين قطز مُدبراً لأمور الدولة[٥]؛ لصغر سن المنصور علي، أي أن قُطز أصبح بمثابة الوصي على العرش، واتفق الأمراء سيف الدين قطز، وسنجر الغتمي، وبهادر المعزي، وقبضوا على علم الدين سنجر الحلبي أتابك المنصور علي بن المعز أيبك، ووضعوا فارس الدين أقطاي المستعرب[٦] أتابكاً

٦٧٧هـ/١٢٧٩م، الصفاعي: تالي كتاب وفيات الأعيان ، ص ٩٩.

(١) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٨٨.

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩٤.

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٨.

(٤) ابن الوردي : تاريخ ، ج٢ ، ص ١٨ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج١ ، ص٤٤٢.

(٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج١ ، ص٣٠.

(٦) الأمير فارس الدين أقطاي الصغير المستعرب الصالحي النجمي، أصبح أميراً في عهد السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وعندما كان قطز نائباً للمنصور علي بن أيبك أقترح بجعله أتابكاً بعد القبض على سنجر الحلبي، وعندما تولى قطز السلطنة قام بترقيته وجعله نائباً للسلطان، وكان أقطاي المستعرب قائداً عسكرياً فذاً وشجاعاً، محباً للجهاد، وإدارياً ممتازاً، ومخططاً عسكرياً بارعاً، ورجل أخلاقه عالية جداً، وكان مخلصاً

للعسكر[١]، وأمر سيف الدين قطز باعتقال الوزير شرف الدين الفائزي؛ لاختلاسه مائة ألف دينار من خزينة الدولة، وصدرت الأوامر في النهاية بقتله في السجن[٢] .

خامساً- تحريض المماليك البحرية (المشردين) للمغيث عمر على محاربة الناصر يوسف:

استوحش الناصر يوسف من البحرية وطردهم من دمشق[٣]، فخرجوا من دمشق على حمية وقصدوا بيت المقدس، ونائب الناصر يوسف عليها الأمير سيف الدين أيبك، وطلبوا منه أن يكون معهم فامتنع، فاضطروا إلى اعتقاله، وخطبوا للملك المغيث عمر ملك الكرك والشوبك، واكملوا طريقهم إلى غزة وقبضوا على واليها، ثم أحكموا سيطرتهم على المنطقة الممتدة من مدينة غزة حتى مدينة القدس[٤]، وفي غزة اعلنوا ولاءهم الكامل للملك المغيث فتح الدين عمر، وانزعج أهل مصر؛ لقدوم المماليك البحرية إلى غزة[٥]، وكان السبب المباشر لخروج البحرية من دمشق، هو أن بيبرس استشعر نية الغدر من الملك الناصر يوسف[٦]، ثم توجه بيبرس بمن معه ومن تبعه من غزة إلى الكرك عند الملك المغيث عمر[٧]؛ فأنفق عليهم الأموال[٨]، وأرسل الناصر يوسف عسكراً في إثرهم[٩]، بقيادة الأميرين مجير الدين إبراهيم ونور الدين علي بن شجاع الأكتع في طلب البحرية المتواجدين عند المغيث عمر، وخرج البحرية لما بلغهم ذلك إلى غزة والتقوا مع جيش الناصر يوسف، وتمكن البحرية من الحاق الهزيمة بجيش الناصر يوسف وأسر الأميرين مجير الدين ونور الدين، وحملوهما إلى الكرك إلى المغيث عمر، وبعد هذا النصر الذي حققه

للسلاطين الذين خدمهم، وكان المظفر قطز يحبه ويحترمه كثيراً، وعندما تولى الظاهر بيبرس السلطنة أبقاه في مكانته، وكان يحترمه ويقدره، وتوفي أقطاي المستعرب في القاهرة في جمادى الاولى ٦٧٢هـ/ نوفمبر ١٢٧٣م عن عمر شارف السبعين، وحزن عليه الظاهر بيبرس كثيراً ، الذهبي: تاريخ الإسلام ، ج٥٠ ، ص ٦٨ ، ٦٩ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٥ ، ص ٢٩٧ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٨٧ ؛ العيني: عقد الجمان، ج ١ ، ص ٦٦.

(١) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٨٨.

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٣٠.

(٣) ابن الوردي: تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٨٨.

(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٩.

(٥) ابن الوردي: تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٨٨.

(٦) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٨.

(٧) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٩٨.

(٨) ابن الوردي: تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٨٨.

(٩) ابو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٤٣.

المماليك البحرية على الناصر يوسف عظم أمرهم وزادت منزلتهم في الكرك، ولما علم الناصر يوسف بهذه الهزيمة، خرج بنفسه لقتال البحرية، ونزل بجيشه على أطراف دمشق، فلما بلغ المماليك البحرية المشردين ذلك، توجهوا نحو دمشق بقوة خفيفة بقيادة ركن الدين بيبرس، وقطع خيمة الملك الناصر المضروبة، قبل أن يتمكن الناصر يوسف من الخروج من دمشق[١]، وبعد الهجمة المفاجئة التي شنها المماليك البحرية على جيش الناصر يوسف، تمكن جيش الناصر من الحاق الهزيمة بالبحرية؛ فانسحب البحرية إلى البلقاء (شرق الأردن)[٢].

مما سبق يتبين أن لبيبرس مهارة عالية في قيادة حرب الاستنزاف وحرب العصابات، فهجوم قوة صغيرة على جيش كبير كجيش الناصر، وتمكن القوة من ضرب خيام المعسكر خاصة خيمة الملك الناصر يوسف، يدل على أن بيبرس أصبح خبيراً في حرب العصابات، والنجاح الذي حققه في الشام لم يأتي إلا من شجاعته وخبرته العسكرية العالية، وقد لعب بيبرس دوراً كبيراً في انقلاب احوال الشام، بالرغم من قلة أتباعه.

سادساً – سقوط الخلافة العباسية في يد المغول :

أستغل الوزير الشيعي ابن العلقمي[٣] ثقة الخليفة به، وراسل هولاكو، وسهل للأخير أمر دخول بغداد، واحتلالها، وكان عدد الجيش العباسي مائة ألف فارس، فقام ابن العلقمي بقطع رواتبهم، ليرسل الأموال إلى التتار لمهادنتهم، وقلل عدد الجيش إلى أقل من عشرين ألف فارس، وارسل ابن العلقمي أخاه ليستدعيهم، فتوجه التتار إلى بغداد، وخرج جيش الخليفة القليل، واقتتل مع الجيش التتري على مرحلتين قتالاً شديداً، فانهزم جيش الخليفة، وتمكن هولاكو من دخول بغداد في ٢٠ محرم سنة ٦٥٦هـ/٢٦ يناير سنة ١٢٥٨م[٤]، وخرج له ابن العلقمي واستأمَن لنفسه، وغدر بالخليفة بعد أن طلب منه الذهاب مع الفقهاء والأعيان، وقال له بأن هولاكو يريد

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٤٦ ، ٤٧.

(٢) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٨٨.

(٣) مؤيد الدين ابن العلقمي كان آخر من تولى الوزارة في الدولة العباسية في بغداد، وينتسب للمذهب الشيعي وكان أحد السبب المباشر في سقوط الخلافة العباسية بيد المغول، وكان يخدع الخليفة دائماً، وكان أبو بكر ابن الخليفة العباسي والأمير الدويدار الصغير هما الوحيدين اللذان يفهمان مخططاته، وقد حذرا الخليفة من مكائده، لكن الخليفة لم يأخذ بكلامها، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٣ ، ص ٣٦٢.

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٤٤ ؛ ينظر ، ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٨٩.

إبقاءه في خلافته كما فعل مع سلطان الروم[١]، وعندما وصل، قتله هولاكو وقتل جميع من معه[٢]، وقتّل معظم أهل بغداد ونهبوها، وذلك في١٠ صفر سنة ٦٥٦هـ/١٥ فبراير سنة ١٢٥٨[٣]، وقام التتار بتدمير الكتب النفيسة من جميع العلوم التي لا تحصى من كثرتها في بغداد[٤].

سابعاً – تحريض المماليك البحرية (المشردين) للمغيث عمر على غزو مصر:

دخل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل في طاعة هولاكو، وأرسل الملك الناصر يوسف ابنه الملك العزيز إلى هولاكو بالهدايا؛ ليطلب منه العون للاستيلاءِ على مصر من قبضة المماليك، فأمر هولاكو أن يتوجه إليه بجيش قوامه ألف فارس، فانتقل هذا الخبر إلى دمشق فرحل من كان بها من المماليك البحرية المشردين في الشام، وصاروا إلى الملك المغيث عمر بالكرك، وحرضوه على الاستيلاء على مصر[٥]؛ فوافق، وجهز المغيث جيشه إضافة إلى جيش بيبرس المُقدر بستمائة فارس، وخرج مجموعة من جيش المنصور علي بن أيبك لملاقاته، فأراد بيبرس مفاجأتهم وتوجيه ضربه عسكرية سريعة لهم، لكنه فوجئ من استعدادهم العالي، وعندما حدثت المعركة أنهزم بيبرس، ولم ينج ممن كان معه إلا القليل، وممن نجا من أصحابه الذين شاركوا في المعركة بيليك الخزندار، وأسر بلبان الرشيدي[٦].

بعد الهزيمة، عاد بيبرس إلى الكرك، وأقام بها، فوصلته رسائل المصريين يحرضونه على غزو مصر مرة أخرى، وأخذ بيبرس يغري ويطمع المغيث عمر بملك مصر، وأنطلق المغيث عمر هذه المرة معه، ونزلا غزة استعداداً لمواجهة معسكر قطز، وتوجه الأميرين سيف الدين قطز، فارس الدين أقطاي المستعرب، لمواجهة معسكر المغيث عمر وركن الدين بيبرس، وقد حدثت مفاجأة في معسكر قطز، إذ انسحب من جيشه مجموعة من الأمراء، وانضموا لمعسكر المغيث عمر وبيبرس، ومن هؤلاء الأمراء: عز الدين أيبك الرومي، وبلبان الكافوري، وسنقرشاه

---

(١) القلقشندي : مأثر الإناقة ، ج ٢ ، ص ٩١.

(٢) ابن خلدون : تاريخ ، ج٣ ، ص ٦٦٢ ، ٦٦٣.

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٣١.

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٥٣٧ ؛ ينظر ، ابن الأزرق : بدائع السلك ، ج ١ ، ص ١٥٠.

(٥) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩٩ ، ٥٠٠.

(٦) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٨.

العزيزي، وأيبك الخواشي، وبدر الدين برخان، وبغدى وأيبك الحموي[١]، وجمال الدين هارون القيمري، فقويت شوكة معسكر المغيث عمر وبيبرس، وساروا إلى الصالحية[٢][٣].

حدثت المعركة بين المعسكرين يوم الثلاثاء الرابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٦٥٦هـ/ ١٩ أبريل عام ١٢٥٨م، فحقق جيش المغيث وبيبرس نصراً في بداية المعركة، لكن قطز المعزي ثبت في المعركة، وحقق انتصاراً على المغيث وبيبرس؛ مما أدى إلى انسحاب المغيث عمر وبيبرس، وتمكن سيف الدين قطز قائد جيش المعز أيبك من أسر كبار الأمراء التابعين والمتحالفين مع بيبرس، وهم: عز الدين أيبك الرومي، وركن الدين منكورس الصيرفي، وبلبان الكافوري، وعز الدين أيبك الحموي، وبدر الدين بلغان الأشرفي، وجمال الدين هارون القيمري، وسنقرشاه العزيزي وبهاء الدين أيدغدي الإسكندرانى، وبدر الدين برخان، وبغدى، وبيليك الخزندار الظاهري[٤]، فأمر قطز بضرب أعناق الجميع[٥]، وحملت رؤوسهم إلى القاهرة وعُلقت على باب زويلة فترة من الزمن، ثم أُنزلت ودفنت بعد أن أُنكر وأستشنع هذا العمل من بعض أمراء المماليك المعزية[٦]، ولم يبق من الاسرى حياً سوى بيليك الخزندار؛ لأن جمال الدين الجوكنداري شفع فيه، وخيروه بين المقام والذهاب فاختار الذهاب إلى أستاذه فأطلق وتوجه إلى أستاذه[٧].

مما سبق يتبين أنَّ سيف الدين قطز، تمكن من رد كلا الهجومين على مصر بفضل شجاعته وحنكته العسكرية، وبالرغم من ذلك فقد كان خطأ أيبك وقراره تصفية البحرية وتشتيتهم

---

(١) عز الدين أيبك الحموي، وُلي نيابة دمشق بعد سنة ٦٩٠هـ/١٢٩٢م، من قبل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، وكان قبل ذلك نائباً على حمص، وكان شيخاً وشجاعاً، الذهبي: من ذيول العبر،ج١، ص٢٥.

(٢) مدينة الصالحية بناها السلطان الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٤هـ، وأنشأ فيها قصوراً وجامعاً، وأتخذها قاعدة عسكرية للجيش، تقع في الجزء الشمالي من مصر، وكانت تربط مصر بالشام، المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ١ ، ص ٣٤١.

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٨.

(٤) بدر الدين بيليك الخزندار الظاهري، كان مملوك لركن الدين بيبرس البندقداري، وخزنداره في أيام أمرته، وكان ملازماً له في الشده والرخاء، وكان حازماً وكاتباً ذكياً، ولما تولى بيبرس السلطنة، رتبه نائباً له بمصر، ورتب معه الصاحب بهاء الدين وزيراً، فرتب الجيوش ترتيباً ممتازاً، وكان عفيف النفس، الصفاعي: تالي كتاب وفيات الأعيان ، ص ٥٢.

(٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٩ ؛ يُنظر ، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٣٣ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٠٠.

(٦) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٣٣ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٤٦.

(٧) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٩.

معاناه سيعاني منها قطز، وبدأت معالم المعاناة تظهر منذ مقتل أيبك، وتوليه أعباء السلطنة عن الطفل علي بن أيبك، فبيبرس لن يعود عن عزمه إلا بعد أن يثأر لمقتل صديقه ومعلمه أقطاي، والانتقام لنفسه من المعاناة التي يعيشها في بلاد الشام، فتاره يكيد له الناصر يوسف ويهرب منه إلى المغيث وتاره يكيد له المغيث ويهرب إلى الناصر، وإذا كاد له الاثنين نام مع اتباعه في البراري، والجدير بالذكر أن بلاد الشام خاصة المناطق الجبلية تكون درجة الحرارة فيها منخفضة في فصل الشتاء، وفي الحقيقة استمرار الصراع بين الطرفين؛ سيؤدي إلى استنزاف قوتهما العسكرية، وزيادة الحقد بينهما لن يستفيد منها أي طرف من المماليك، سوى ملوك الشام الضعفاء المنبطحين للمغول، والعدو الخارجي (المغول) المتربص بالأمة الإسلامية ويريد الفتك بها.

وصل المغيث عمر والطواشي بدر الدين الصوابي، وبيبرس البندقداري إلى الكرك، بعد أن نُهب معسكرهم بما فيه من طعام وخيام وسلاح وغير ذلك[١]، وبعد هزيمة المغيث عمر وركن الدين بيبرس أمام الأمير سيف الدين قطز حصل وحشة بين المغيث وبيبرس البندقداري[٢].

تقدم الناصر يوسف مع الملك المنصور[٣] صاحب حماة نحو الكرك، وأقام على بركة زيزا، وفرض حصاراً على المغيث عمر؛ بسبب حمايته للبحرية، وطلب المغيث عمر الصلح مع الناصر لكنه رفض طلب المغيث، إلا بشرط القبض على البحرية المتواجدين عنده؛ فوافق المُغيث على طلبه، وتمكن المغيث من القبض على سنقر الأشقر، وسكُز، وبرامُق، وأرسلهم على الجمال إلى الملك الناصر، فبعث بهم إلى حلب، فاعتقلوا بها [٤]، وعندما شعر بيبرس بتحرك المغيث عمر ضده هرب مع اتباعه، وراسل الناصر يوسف بالِانضمام إليه فوافق الناصر يوسف وعاد بيبرس إليه، وأخذ بيبرس منه الأمان واستحلفه على أن يعطيه رواتب لمائة فارس، وإقطاع نابلس وجنين وزرعين فأجاب الناصر إلى نابلس فقط، وكان قدومه على الناصر في شهر رجب سنة

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٨.

(٢) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٩٩.

(٣) المنصور محمد بن الملك المظفر محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة، ولد في سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م، وخلف أبيه على مُلك حماة، وعندما استولى المغول على الشام، توجه إلى مصر وقاتل مع السلطان قطز في معركة عين جالوت، وعندما تولى بيبرس السلطنة دخل في طاعته وتوفي في شوال سنة ٦٨٣هـ/ ١٢ يناير ١٢٨٥م ، الصقاعي : تالي كتاب وفيات الأعيان ، ١٦٣.

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ١٠٢.

٦٥٧هـ/ يوليو ١٢٥٩[١].

ومن خلال ما سبق يتبين أن اشتراط الناصر يوسف على المُغيث عُمر، تسليم المماليك البحرية مُقابل الصلح، ليس بهدف الانتقام منهم، ولو كانت نيته عقاباهم أو قتلهم، لما استقبلهم مرة أخرى في قصره ومنحهم الإقطاعات، وكان هدفه جعلهم يرجعوا إليه صاغرين؛ ليستفيد منهم، وفي الحقيقة أن المماليك البحرية الذين مع بيبرس، يمكن أن يحققوا فوائد هائلة للناصر يوسف في هذه المرحلة الحرجة؛ لأنهم سيكونون عوناً وسنداً ضد المغول، فالبحرية قوة عسكرية لا يمكن الاستهانة بها، بالرغم من قلة عددهم، إلا أنهم مدربون تدريباً عسكرياً ممتازاً، ولديهم القدرة على تحمل المشاق والتعب؛ لأنهم جابوا كافة بلاد الشام في شتاتهم، ولهم خبره في طرق وبراري وجبال بلاد الشام، كما أن لدى البحرية خبرة في حرب العصابات، وهم أكفأ قوة تستطيع مواجهة الخطر المغولي، لتدربهم على فنون عسكرية جديدة، في جزيرة الروضة أبان حكم الصالح نجم الدين أيوب، ويستفيد منهم الناصر يوسف، في تدريب جيشه، التدريبات التي لم يعرفوها ولم يألفوها قادته العسكريين، إذن هي المصلحة مرة أخرى تجمع بين الناصر يوسف والبحرية، فإذا كانت المصلحة المشتركة في أول مرة قدموا عليه عام ٥٥٢هـ/١٢٥٤م محاربة أيبك هي مصلحة شخصية، وفيها كان جل تركيز بيبرس على الثأر لمقتل صديقه أقطاي، والثأر من أيبك لأنه تسبب في تشريده، والناصر يمد نفوذه إلى أقصى جنوب فلسطين، فالمرة الثانية المصلحة اكبر تهم الأمة الإسلامية كلها، وهي التوحد من أجل محاربة أشرس خطر تعرضت له الأمة الإسلامية.

ثامناً – سلطنة قطز وطلب الناصر يوسف النجدة منه:

١-سلطنة قطز (٦٥٧-٦٥٨هـ/ ١٢٥٩-١٢٦٠م):

كان قُطز قد رأى الرسول ﷺ في المنام وهو صغير، وكان مملوكاً لرجل يُقال له الهجاوي، وبشره الرسول ﷺ بمُلك مصر وكسر التتار، وروى هذه الرواية تاج الدين أحمد بن الأثير الحلبي[٢] قال: «لما ملك الملك المظفر قطز قال لي حسام البركتخاني: والله لا يكسر التتار غيره، فقلت له: من أين لك هذا؟ فقال: إني وإياه مملوكين صبَّيين عند الهجاوي، وكان على قطز

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٩.

(٢) تاج الدين أحمد بن الأثير الحلبي كان كاتب السر في أيام الملك الناصر يوسف، العيني: عقد الجمان، ج١، ص٦٥.

قمل كثير، فكنت أسرح رأسَه وآخذ له كل قملة بفلس أو بصَفعة، فسرحت رأسه يوماً وصفعته صفعاً كثيراً، ثم تنهدت فقال: ما بالك؟ فقلت: أتمنى على الله إمرة خمسين فارساً. فقال ورأسه في حجري: طيب قلبك، أنا أعطيك إمرة خمسين فارساً، فضحكتُ وصفعته صفعةً قويةً، وقلت له: من أين لك هذا؟ قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وقال لي: أنت تملك مصر وتكسر التتار. قال: فسكتَّ، وكنت أعرف منه الصدق، وما أشك في أنه يكسر التتار، فلم تمض إلا مدة يسيرة حتى خرج وكسر التتار»[١].

وقال ابن الأثير: «ولما رجع الناصر يوسف إلى ناحية الديار المصريَّة وأراد دخولها فلم يدخل ورجع عنها، ودخلها أكثر الجيوش، كان هذا الحاكي في جملة من دخلها، فأمَّره المظفَّر قطز إمرة خمسين فارساً، ووفَّى له بالوعد، وهو الأمير كمال الدين البركختاني»، وقال ابن الأثير: «فلقيني بالديار المصرية بعد أن تأمَّر فذكرني بما كان أخبرني عن المظفر، فذكرته، ثم كانت وقعة التتار على إثر ذلك»[٢].

اجتمع الأمراء الكبار وأعيان الجيش على ضرورة تولية سلطان ينقذ الإسلام والمسلمين، من هؤلاء البرابرة الغزاة، وذلك لما تأكدوا من توجه هولاكو إلى بلاد الشام، واتفقوا على إقامة الأمير سيف الدين قطز المعزي سلطانا؛ لأنه أقوى أمراء الجيش، ونائب السلطان، ويُدين له الجيش بالولاء التام، وهو معروف بالشجاعة والفروسية[٣]، والأهم من ذلك أنه رجلٌ صالح كثير الصلاة في الجماعة، ولا يتعاطى المسكر ولا شيئاً مما يتعاطاه الملوك[٤]، ورضي به الأمراء الكبار؛ فأجلسوه على سرير الملك، ولقبوه الملك المظفَّر[٥].

في أوائل ذي الحجة من سنة ٦٥٧هـ/نوفمبر ١٢٥٩م قبض سيف الدين قطز على الملك الطفل المنصور نور الدين علي بن أيبك، وخلعه من السلطنة، في الوقت الذي كان فيه أقوى أميرين منافسين لقطز، وهما علم الدين سنجر الغتمي، وسيف الدين بهادر المعزي، غائبين، انتهز قطز غيابهما ونفذ عملية خلع المنصور؛ لأنه لو خلعه في وجودهما سيعارضان ويطمعان

---

(١) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٦٤.

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٦٥.

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٢٧.

(٤) ابن كثير : البداية ، ج ١٣ ، ص ٢٢٢.

(٥) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٣٢٧.

في الحكم، وعند عودتهما إلى مصر قبض قطز عليهما، واستقر في حكم مصر، وتلقب بالملك المظفر[١]، وقد جاء خلع قطز للمنصور علي بن أيبك في الوقت المناسب، فكان الوقت يحتاج رجل شجاع ينتصب للجهاد[٢].

قوبل خلع قطز للمنصور علي بن أيبك بالرفض من بعض الأمراء، فقدموا إلى قلعة الجبل وأنكروا ما فعله، وأقنعهم قطز بضرورة خلع المنصور لأنه طفل لا يقدر على الحكم، وأنه لم يخلعه طمعاً في الحكم، بل من أجل إيقاف تحرك المغول تجاه الشام ومصر، وقال : «وإني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم أقيموا في السلطنة من شئتم» فتفرقوا عنه وأخذ يرضيهم حتى تمكن[٣] .

٢- طلب الناصر يوسف النجدة من المُظفر قُطز:

بالرغم من تودد الناصر يوسف لهولاكو بالهدايا الثمينة إلا أن هولاكو أرسل رسالة تهديد للناصر يوسف يطالبه بالاستسلام[٤]، فأرسل الناصر يوسف كمال الدين ابن العديم إلى مصر؛ لينجده السلطان الطفل المنصور علي ابن أيبك على التتار، وتوافق وصول كمال الدين ابن العديم إلى مصر مع خلع المنصور علي وتولي قُطز السلطنة، ورد قطز بجواب إلى الملك الناصر، أنه ينجده ولن يقصر عن نصرته، وعاد ابن العديم بجواب قطز للناصر يوسف[٥]، حيث كتب إليه المظفر قطز، بكتاب يترقق فيه، ويقسم بالأيمان أنه لن ينازعه في الملك ولا يقاومه، وأنه نائب عنه بديار مصر، ومتى حل بها أقعده على الكرسي، وقال فيه أيضاً: «وإن اخترتني خدمتك وإن اخترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت إليك العساكر صحبة من تختاره»، فلما قدم على الملك الناصر كتاب قطز اطمأن، وبالرغم من ذلك كان الناصر يوسف خائفاً من التتار[٦].

مما سبق يتبين أن الناصر يوسف، لم يخجل من طلب العون من قطز أن ينقذه من المغول، فبالأمس القريب كان يُرسل ابنه العزيز بهدايا إلى هولاكو، ويحرض المغول على غزو

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ١٠٢.

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٤٨ ، ص ٤٥.

(٣) المقريزي : ج ١ ، ص ٥٠٧ ، ٥٠٨.

(٤) أنظر نصوص رسائل تهديد هولاكو للناصر يوسف في مُلحق رقم (١).

(٥) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ١٠٢.

(٦) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٠٨.

دولة المماليك في مصر، واليوم يطلب من المماليك النجدة من المغول، وبالرغم من ذلك إلا أن قُطز أرسل له جواباً طيباً، يدل على تعففه عن السلطنة، وحبه للوحدة، كما يبين الذكاء السياسي عند قطز، حتى لا يقول الناس، ويكتب التاريخ، أن قطز طامع بالحكم.

اضطرب الناصر يوسف بعد أن علم بسير هولاكو من بغداد بنفسه إلى ديار بكر، ونزوله على آمد[١] يريد حلب ونصبه المجانيق في حران، عندما قطع جيش التتار الفرات خرج كثير من أهل حلب، ودمر المغول حلب، وفكر الناصر يوسف في لقاء هولاكو، وكان يشجعه على ذلك الأمير زين الدين الحافظي، وكان الحافظي يُعظم من شأن هولاكو، ويشير بألا يقاتل وأن يداري بالدخول في طاعة هولاكو، وعندما سمعه الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، غضب وصاح به قائلاً: «أنتم سبب هلاك المسلمين»، ثم سبه وضربه ضرباً مبرحاً، وكاد بيبرس أن يقتله، لولا أن الأمراء خلصوه من بين يديه، ثم غادر بيبرس إلى خيمته، فشكاه الوزير زين الدين الحافظي إلى الناصر يوسف وأخذ يحرض الناصر عليه، وفي نفس الوقت قرر المماليك الناصرية اغتيال ملكهم الناصر يوسف؛ لجبنه وضعفه، وتفكيره بالاستسلام لهولاكو، وهروبه من حلب دون مقاومة المغول وترك أهلها يواجهون الموت على يد المغول، وعندما علم الناصر يوسف بغضب مماليكه تجاهه وتفكيرهم باغتياله، هرب إلى قلعة دمشق بمساعدة أمراء القيمرية الموالين له[٢].

يمكن القول أن المماليك البحرية المشردين في الشام، لديهم غيره شديدة على الإسلام والمسلمين، وحب شديد للجهاد، وكره لمن يفكر في الاستسلام والخيانة، وما يدل على ذلك غضب الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري على زين الدين الحافظي، والناصر يوسف، بالرغم من مكانتهما، كما أن مماليك الناصر يوسف أنفسهم لديهم نفس شعور البحرية، ومن المرجح أن جبن الناصر يوسف؛ سيدفع بيبرس في النهاية للبحث عن ملك لديه نفس حميته ونخوته للدخول في خدمته، حتى لو كان هذا الملك عدوه.

---

(١) مدينة في ديار بكر، محصنة بالجبال، تقع شرق نهر دجلة، كثيرة الأشجار والعيون، الواقدي : فتوح الشام، ج ٢ ، ص ١٥٤ ؛ الاصطخري : المسالك والممالك ، ج ١ ، ص ٣٠ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣٢٧ ؛ الحميري : الروض المعطار، ج ١ ، ص ٢٣٣ ؛ الألوسي ، محمود : غرائب الاغتراب، ج ١ ، ص ٤٥.

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٠٨ ، ٥٠٩.

تاسعاً- سقوط ميافارقين وبلاد الشام بيد المغول وموقف المماليك البحرية من الغزو المغولي:

١- حصار المغول لميافارقين واستشهاد ملكها الكامل محمد:

قرر الكامل ناصر الدين محمد[١] أن لا يستسلم للتتار؛ لأن الكامل كان يرى أن التتار لا تُفيد مدارتهم، ولا مهادنتهم، وقال الكامل: «علمت أنني مقتول سواء كنت لهم أو عليهم، فاخترت بأن أكون باذلا مهجتي في سبيل الله» وكان الكامل محمد قد قرر إرسال نجدة للخليفة العباسي المستعصم بالله، لكن التتار سبقوه إلى بغداد[٢]، وبعد سقوط بغداد أطبق يشموط بن هولاكو حصاراً شديداً على ميافارقين، وقد أرسل الكامل مُحمد للناصر يوسف مستنجداً به على التتار، فوعده فقط دون ان يرسل أي مدد أو دعم عسكري، بالرغم من القرابة التي بينهما، وأكتفى الناصر يُوسف فقط بإرسال الأموال للكامِل مُحمد[٣]، ثم أرسل إليه الناصر يوسف طالباً منه أن يتراجع عن موقفة الذي اتخذه ضد التتار، لكن الكامل محمد صمم على الصمود أمام التتار[٤].

ارتفعت الأسعار وقلت المواد الغذائية في ميافارقين؛ بسبب الحصار المغولي، ومات كثير أهل ميافارقين جوعاً في هذا الحصار، وبقيت ميافارقين محاصرة ما يقرب على سنتين، وتمكن في النهاية يشموط بن هولاكو من الاستيلاء على المدينة، وقتلوا الملك الكامل مُحمد، وطافوا برأسه في بلاد الشام، ويقول اليونيني بأنه شاهد المغول يطوفون برأس الكامل وقال: «استشهد الملك الكامل قدس الله روحه وحمل رأسه على رمح وطيف به في البلاد فوصلوا به إلى حلب ثم إلى حماة وحمص وبعلبك وشاهدته رحمه الله وهو يطاف به بمدينة بعلبك ثم وصلوا به إلى دمشق يوم الاثنين السابع والعشرين من جمادى الأولى وطافوا به بالمغاني والطبول ثم علق الرأس بسور باب الفراديس فلم يزل معلقاً في شبكة إلى أن عادت دمشق إلى المسلمين».

دفن الكامل محمد بمشهد الحسين داخل باب الفراديس، ورثاه الشعراء، ويقول الشيخ شهاب الدين ابن أبي شامة أبياتاً منها:

ابْن غَازِي غزى وجاهد قومـاً اثْخنوا فِي الْعرَاق والمشرقين

---

(١) الكامل محمد بن المظفر غازي بن العادل أبي بكر الأيوبي، كان ملكاً على ميافارقين، وقتل على يد المغول، القلقشندي: مآثر الإناقة ، ج ٢ ، ص ١٠٥

(٢) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج ١ ، ١٨٨ ، ١٨٩.

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٣٣.

(٤) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج ١ ، ١٨٨.

ظَاهرا عَالِيا وَمَات شَـــــهِيداً بعد صَـبر عَلَيْهِم عَاميْنِ

لم يشنه إِذْ طيف بِالرَّأْسِ مِنْهُ وَله أُسْوَة بِرَأْس الْحُسَيْن[1] .

٢- الغزو المغولي لبلاد الشام، وموقف البحرية المشردين من هذا الغزو:

طلب ركن الدين بيبرس من الناصر يوسف أن يُقدمه على أربعة آلاف فارس أو يقدم غيره ويتوجه بهم إلى شط الفرات لكي يمنع المغول من العبور إلى الشام عبر نهر الفرات، فلم يوافق الناصر ولم يمكنه ابن عمه الصالح إسماعيل لعلاقاته القوية مع المغول[2].

لم تُشر المصادر إلى سبب تفكير بيبرس في السيطرة على شط الفرات وعمل كمين لهم، قبل تمكنهم من قطع نهر الفرات، ويمكن تحليل فكرة بيبرس بأنها في الحقيقة فكرة رائعة وممتازة، ولو تم تطبيقها لكان لها دور كبير في وقف زحف المغول، بالرغم من قلة العدد الذي اقترحه بيبرس على الناصر يوسف، وأعتقد بأن بيبرس فكر بأن عُبور جيش بثقله ومعداته ومجانيقه، سيلاقي صعوبة بالغة، بالإضافة إلى الإرهاق الذي سيلاقيه المغول في عمل جسر لكي يعبروا عليه، وانتظار قوة مدربة جيداً من الفرسان عددها ثلاثة الآلاف من عند الناصر يوسف، مع المماليك البحرية الذين مع بيبرس وعددهم حوالي ألف فارس، يمكن لهذه القوة أن تلحق الهزيمة بجيش العدو حتى لو بلغ عدده مائة الف، ويمكن الأخذ بالحسبان أيضاً أن بيبرس ومن معه من البحرية قد تدربوا تدريباً عسكرياً عالياً في جزيرة الروضة، الموجودة في نهر النيل، وعلى عبور البحر والقتال فيه، ذلك في زمن الصالح نجم الدين أيوب، وهذا الاسلوب في القتال لم يألفه أي جيش قبل المماليك البحرية، وسيكون نتيجة رفض الناصر لمقترح بيبرس سلبياً على الشام كلها.

مع جُبن الناصر يوسف عن التصدي للمغول ومقاومتهم[3]، تمكن المغول من اجتياز الفرات عن طريق جسور عملوها، ووصلوا إلى حلب في ٢ صفر سنة ٦٥٨ هـ/ ١٧ يناير ١٢٦٠م، فحاصروها سبعة أيام ثم اخذوها بالأمان ثم غدروا بأهلها وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ونهبوا الأموال وسبوا النساء والاطفال، وجرى عليهم ما جرى على أهل بغداد[4]، وكان دخولهم المدينة في ٩

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٥١.

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠٠.

(٣) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٥٧.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢١٨.

صفر ٦٥٨هـ/٢٤ يناير ١٢٦٠م[١]، وعمل المغول على تخريب حلب وتدمير أسوار قلعتها، وكان نائبها المعظم توران شاه بن صلاح الدين الايوبي[٢]، وكان هذا عاقلاً حازماً شجاعاً، قرر الصمود أمام المغول وقتالهم لأنه يُدرك جيداً أن الاستسلام لا ينفع مع هؤلاء، لكن الجيش خذله ولم يوافق على القتال والصمود[٣]، وانهزم المعظم توران شاه بن صلاح الدين أمام المغول، وبذلك نجح المغول في مخططهم في احتلال المدينة وتدميرها[٤]، ويقول المقريزي أن هولاكو لم يقتل توران شاه بن صلاح الدين قال : «وخرج إليه الملك المعظم توران شاه بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فلم يعترضه بسوء لكبر سنه فمات بعد أيام».

في الحقيقة أن الرواية السابقة مشكوك في أمرها، فلا يُعقل سفاح مثل هولاكو، أن يعفو عن رجل قاومه لكبر سنه، فهذا السفاح قتل الكثير من المدنيين والعزل، فكيف بقائد للمقاومة؟! ومن المرجح أنه قتله، أو أنه مات هماً وكمداً على ما حدث لحلب وأهلها.

ومن ملوك الأيوبيين الذين خضعوا للمغول: الملك السعيد[٥]، وكان أسيراً عند الملك الناصر في قلعة البيرة، وعندما استولى المغول على البلاد في صفر سنة ٦٥٨هـ/ يناير ١٢٦٠م، أخرجوا الملك السعيد من البيرة، واحسنوا إليه وأعطوه بانياس[٦] والصبيبة[٧]، ليكون نائباً للمغول فيهما[٨]، ثم تنصر على يد زوجة هولاكو النصرانية، وعلق على صدره صليباً، وكتب عليه: «حبيس

---

(١) ابو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٤٨

(٢) هو فخر الدين الملك المعظم بن السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب شاذي، وكنيته أبو المفاخر وقيل أبو منصور، كان عالماً شجاعاً، ولما استولى المغول على حلب اعتصم بقلعتها ورفض الاستسلام، وتوفي في ٢٧ ربيع الأول سنة ٦٥٨هـ/١١ مارس ١٢٦٠م، اليونيني: ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٦١

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢١٨.

(٤) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٨٧.

(٥) هو السعيد حسن ابن الملك العزيز عماد الدين بن الملك العادل الأيوبي، وقتله المظفر قطز بعد معركة عين جالوت عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م؛ لخيانته، وخروجه عن الاسلام، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ، ص١٣٧.

(٦) مدينة تقع بالقرب من الجولان، بناها الصليبيين في أواخر سنة ٥٠٠هـ/١١٠٧م، وتحتل مكانه استراتيجية مهمة في بلاد الشام، لذلك منحها الصليبيين اهتماماً كبيراً، ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١ ، ص٨٥.

(٧) هي قلعة بناها الصليبيون بعد في مدينة بانياس، سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م، وبقيت في يدهم إلى أن حررها نور الدين زنكي بعد استيلاءه على دمشق سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م، ثم انتقلت لابنه الصالح إسماعيل، ثم أصبحت بيد صلاح الدين الأيوبي وابناءه من بعده، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ١ ، ص ٨٥ ، ٨٦.

(٨) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج ١ ، ص ٨٦ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج ١ ، ص ١٣٧ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٠٩ ؛ العيني : عقد الجمان : ج ١ ، ص ٥٧.

المسلمين طليق التتر»[١]، وسار معهم يسفك دماء المسلمين، وأعلن الفسق والفجور[٢]، ولبس لباس المغول، وشرب الخمر في نهار رمضان[٣]، وتمكن المغول من إخضاع الأشرف موسى[٤]، وكان لا يحكم سوى منطقة تل باشر[٥] الصغيرة، ودخل في خدمة هولاكو؛ فأكرمه برد مدينة حمص إليه التي اخذها منه الناصر يوسف عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م[٦]، ثم فوض إليه هولاكو بأن يكون نائباً على بلاد الشام كلها[٧]، وأمر هولاكو الأشرف موسى بتخريب سور قلعة حماة، وأجبره على حرق مكتبتها، وبيع كُتبها بأبخس الأثمان، ثم أمره بتخريب قلعة حمص؛ فخرب منها اليسير، لكونها له[٨].

خرج المنصور محمد الأيوبي ملك حماة، تاركاً مدينتهُ تواجه مصيرها، ثم التحق بالناصر يوسف الهارب باتجاه فلسطين[٩]، واضطر وجهاء حماة إلى تسليم المدينة، حتى لا يصيبها الدمار، وأتجه أهل حماة إلى حلب، ومعهم مفاتيح حماة، وسلموها إلى هولاكو، وطلبوا منه الأمان لأهل حماة، فأمنهم هولاكو، وأرسل إلى حماة رجلاً أعجمياً كان يدعي أنه من ذرية خالد بن الوليد، يقال له خسروشاه، فقدم خسروشاه، إلى حماة وتولاها، وأمن الناس، وكان بقلعة حماة مجاهد الدين قيماز أمير جندار، الذي استسلم للمغول ودخل في طاعتهم[١٠].

---

(١) ابن شداد : الأعلاق ، ج ١ ، ص ٨٦.

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٠٩ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٥٧.

(٣) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ٥٣.

(٤) من أحفاد أسد الدين شيركوه ، وكان ملكاً على حمص، واسمه الأشرف موسى بن المنصور إبراهيم بن المجاهد شيركوه بن محمد بن أسد الدين شيركوه ، وكان صغيراً في السن عندما قبض عليه المغول في الشام، ودخل في طاعة قطز، وبعد انتصار السلطان قطز أمام المغول في عين جالوت، أصبح الأشرف موسى لا يخشى المغول وانتصر عليهم في وقعة حمص الثانية ٦٥٩هـ / ١٢٦١م ، وأقره الظاهر بيبرس على ما بيده عندما تولى السلطنة، وتوفي في حمص في أواخر سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م، الصقاعي : تالي كتاب وفيات الاعيان ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ ؛ ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ٢١٠.

(٥) قلعة محصنة تقع شمال مدينة حلب، يسكن فيها المسلمين والنصارى والأرمن، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٠.

(٦) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٥٠ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ٢٦٢.

(٧) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٣٠٢.

(٨) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٩٩.

(٩) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٥٧.

(١٠) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٩٨.

٣- استيلاء المغول على دمشق:

توفي منكو خان[١] أخو هولاكو في سنة ٦٥٨هـ /١٢٦٠م، ودخل أخواه أريبكا وقُبلاي في صراع على الحكم، ودخل نصف الجيش المغولي مع أريبكا، ونصفه الآخر مع قُبلاي، وتقاتلا قتالاً شديداً؛ فأنتصر قُبلاي، وتمكن من أسر أخيه أريبكا، وأراد قتله لكن زعماء المغول أشاروا عليه عدم قتله؛ لأنه أخوه، فأرسله إلى بعض القلاع وسجنه فيها، إلى أن مات بعد مدة، وقيل أن قبلاي بعث له من قتله في سجنه، ولما بلغ هولاكو هذه الأخبار وهو بحلب، قرر تركها والعودة إلى بلاده، وبعث كتبغا إلى دمشق والشام، وأوصاه بالاستيلاء عليها وإكمال الزحف المغولي[٢]، وأرسل معه قائداً اسمه سبان يساعده أثنين من العملاء، وهما: علاء الدين الكازي، وزين الدين الحافظي وزير الناصر يوسف، وكان هروب الناصر من دمشق في منتصف صفر ٦٥٨هـ/يناير ١٢٦٠م، وتمكن المغول من الاستيلاء على دمشق، وأخذوا المدينة بالأمان، عدا قلعتها التي صمدت فأنتقم المغول منها، في جمادى الأولى من نفس العام، وأرسل هولاكو قائده كتبغا في أثنى عشر ألف فارس وأمره أن يقيم بالشام، وقتل كتبغا والي قلعة دمشق بدر الدين بن قرمجاه ونقيبها، ثم قام بالاستيلاء على بعلبك ودمرها[٣].

---

(١) منكو خان بن تلي خان بن جنكز خان وهو رابع من جلس على (عرش دولة المغول)، وتولى حكم المغول بعد مقتل كيوك خان الذي لم يوصي لملك بعده، فاجتمع أولاد الخانات وأمراء المغول واتفقوا على تولية منكوقان ملكاً على المغول، لأنه أكفأهم على الحكم ، وكان منكوقان يدين بدين النصرانية، وتوفي سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ٢٣٧ – ٢٤١.

(٢) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ٥٣ ؛ ينظر ، ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٩٠ ، ٤٩١ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ٢٣٧ – ٢٤٢.

(٣) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ٢٦٣.

المبحث الثاني- الوحدة ودورها في تحقيق النصر على المغول في معركة عين جالوت عام ٦٥٦هـ/١٢٦٠م:

أولاً – الاتصالات والمراسلات بين المماليك البحرية المشردين في الشام وقطز من أجل الوحدة، ومواجهة الخطر المغولي:

١- اتصالات الأمير عز الدين أيبك الأفرم، والمماليك الهاربين إلى بلاد سلاجقة الروم مع قطز وقدومهم إلى مصر، وإتمام الصلح مع قُطز:

بعد مقتل المعز أيبك أصبح قطز المدبر لشؤون الدولة، والوصي على الطفل المنصور علي بن أيبك، وكانت سياسة قطز مع المماليك المشردين والخصوم قائمة على الترحيب، وإنهاء الخلاف معهم مهما كان، لتقوية الجبهة الداخلية في ظل الأخطار الخارجية، وأبرزها الخطر المغولي الذي يتربص بالمسلمين(١)، وعندما وصل خبر مقتل المعز أيبك للمماليك البحرية المشتتين في بلاد سلاجقة الروم، ساروا إلى مصر براً وبحراً، ووصلوا إلى القاهرة، ورحب بهم نائب السلطنة سيف الدين قطز وأدخلهم القاهرة (٢)، وعندما قرر الأمير عز الدين أيبك الأفرم ومن يتبعه من المماليك البحرية المشردين، ترك الناصر يوسف لجبنه، راسل سيف الدين قطز، فرحب به قطز ترحيباً شديدا، ودخل أيبك الأفرم مصر في ١٣ شوال سنة ٦٥٥هـ/٢٥ أغسطس ١٢٥٧م؛ فأكرمه قطز وأفرج عن أملاكه التي صادرها المعز أيبك عندما تشرد في بلاد الشام(٣).

٢- مراسلات الظاهر بيبرس مع المظفر قطز من أجل الوحدة ومواجهة الخطر المغولي:

بعد أن رأى الأمير ركن الدين بيبرس، ومن يتبعه من المماليك البحرية المشردين في الشام، أنه لا أمل في الناصر يوسف في مواجهة المغول، قرر بيبرس الصلح مع المظفر قُطز، الذي تولى السلطنة حديثاً وإتمام الصلح معه، بعد أن رأوا ضعف الناصر يوسف وتخاذله، عن مواجهة المغول، وبعد أن رأوا عَزم السلطان المظفر قُطز على الجهاد في سبيل الله، والتصدي للمغول، قرر بيبرس النزول إلى غزة، والتي منها ستتم مراسلات الصلح بين المماليك البحرية المشردين في

---

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ٤٤ – ٤٨ ؛ ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٣٩ ؛ ابن خلدون : تاريخ ، ج٥ ، ص ٤٣٥ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩٥.

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩٥.

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٩ ؛ ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٣٤ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٣٧ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٤٤.

بلاد الشام، وزعيمهم الأمير بيبرس مع المماليك المعزية وزعيمهم السلطان قُطز[١] .

خرج الأمير بيبرس البندقداري وســـار إلى غزة، وبها الأمير نور الدين بدلان زعيم الشهرزوري، فالتقى مع بيبرس وأنزله عنده[٢]، وكان للناصر يوسف شقيق اسمه الظاهر سيف الدين علي، وكان الأخير شجاعاً ومحبوباً، عكس شقيقه الناصر يوسف، وفي أواخر سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م منحه الناصر يوسف أماكن يحكمها، ومنها الصلت[٣]، واتفق جماعة من الناصرية والعزيزية إلى خلع الناصر يوسف وتمليكه مكانة، وعندما علم الناصر يوسف بذلك حدثت وحشة بين الأخوين[٤]، وغادر شقيقة الظاهر سيف الدين علي دمشق واتجه بحريمه إلى الصلت في أوائل سنة ٦٥٨هـ/يناير ١٢٦٠م، ثم ترك الظاهر سيف الدين علي ونزل غزة، وفيها اجتمع بالأمير ركن الدين بيبرس البندقداري بمن معه من البحرية وجماعة من الناصرية والعزيزية والشهرزورية[٥] وبايعوا الظاهر علي سلطاناً عليهم[٦]، وتزوج بيبرس في غزة من الشهرزورية[٧].

من مدينة غزة بدأت المراسلات بين بيبرس وقُطز، وكان مبعوث بيبرس إلى قطز هو الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري[٨]، وقد ذهب طيبرس الوزيري إلى قطز، وطلب منه استقبال

---

(١) النويري : نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص٣٠١.

(٢) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٥٠٩.

(٣) الصلت قلعة ضخمة بناها المعظم عيسى بن العادل، وسبب بنائه لها لحمايتها من غارات البدو، خاصة قبيلة بنو رحمان التي قامت بسبي الجواري، فهاجمهم المعظم عيسى بنفسه واستأصلهم، وأمر ببناء برج قريب منهم على قبة جبل يعرف برأس الأمير "قلعة الصلت" وحصنها، وانتقلت بعد وفاته إلى ابنه الناصر، ثم تسلمها منه نجم الدين أيوب سنة ٦٤٤هـ /١٢٤٦م، وبقيت في يده، ثم في يد ابنه تورانشاه، إلى أن قتل في محرم سنة ٦٤٨هـ/ أبريل ١٢٥٠م، ثم انتقل ملكها للناصر يوسف الأيوبي في نفس العام، وأستولى عليها المغول في صفر سنة ٦٥٨هـ/ يناير ١٢٦٠م، ثم حررها قطز في نفس العام ، ابن شداد : الأعلاق، ج ١ ، ص ٧٥.

(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٢٠٨ ؛ قرطاي : تاريخ مجموع النوادر ، ص ٧٦.

(٥) الشهرزورية نسبة إلى شهرزور، وهي مدينة جبلية واسعة تقع بين إربل وهمذان، وجميع سكانها من الأكراد، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٧٥.

(٦) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٢٠٨.

(٧) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٤٨ ، ص ٥٩ ؛ ينظر ، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج ١ ، ص ١٣٨ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠١.

(٨) الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري، كان مقرباً من بيبرس، ترقى في المناصب الإدارية، حتى أصبح نائباً لدمشق في سلطنة الظاهر بيبرس، وعزله بيبرس ثم سجنه سنة وشهر ؛ بسبب أخطاء أرتكبها بحق أهل=

المماليك البحرية المتواجدين في غزة، لعقد مصالحة بين المماليك البحرية في ظل هذه الظروف العصيبة[١]؛ لمواجهة الخطر المغولي الكاسح للبلاد الإسلامية[٢]، ورد المُظفر قطز برسالة إلى بيبرس أن يدخل مصر آمنا مطمئناً، واعداً إياه بالوعود الجميلة[٣].

٣- دخول المماليك البحرية من غزة إلى مصر، وإتمام الصلح والوحدة مع قُطز:

بعد أن وافق قُطز على طلب بيبرس ورحب بهم، فارق بيبرس الشاميين المتواجدين معه في غزة وأنطلق إلى مصر بمن معه من البحرية[٤]، وأنطلق قُطز بنفسه، لاستقبال بيبرس في القاهرة في موكب عظيم، ووصل بيبرس القاهرة في يوم السبت ٢٢ ربيع الأول سنة ٦٥٨هـ/ ٦ مارس سنة ١٢٦٠، فاستقبله قطز استقبال الاخ لأخيه، ثم أنزله في دار الوزارة، وأقطعه قصبة قليوب لخاصته[٥]، وعينه أتابك العساكر، وفوض إليه أمور السلطنة[٦]، وبذلك ينتهي الخلاف الداخلي بين المماليك البحرية والمعزية، وأصبح المماليك فرقة واحده بدلاً من فرقتين[٧]، وبانضمام بيبرس لقطز أصبحت الجبهة الداخلية للمماليك قوية، ورفعت هذه الوحدة الروح المعنوية عند المسلمين[٨].

بعد نزول البحرية مصر واتمام الوحدة بين شطري المماليك البحرية والمعزية، أشار بيبرس على قُطز بضرورة ملاقاة المغول، وقوى بيبرس جأش قطز وحرك عزائمه، وشجعه على التوجه لملاقاتهم، وتكفل له بحصول الظفر عند لقاء المغول[٩] .

وتعقيباً على ما سبق يمكن القول بأن الخطر المغولي الذي اكتسح البلاد الإسلامية، من

= دمشق، أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٥٩.

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٠٩.

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٣٩.

(٣) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٠٩.

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٤٨.

(٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٣٩ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٣٠١ ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام ، ج ٤٨ ، ص ٥٩.

(٦) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٠٣ ، ٣٠٤.

(٧) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٣٩ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٣٠١ ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام ، ج ٤٨ ، ص ٥٩.

(٨) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٤٩

(٩) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٣٩.

بغداد لحلب لدمشق، وغيرها، دفع الرجلين العظيمين بيبرس وقطز للصلح ونسيان الخلافات العميقة التي كانت بينهما، وفي الحقيقة أن تصالح الرجلين يدل على غيرتهما الشديدة على الإسلام عكس ملوك الأيوبيين المتخاذلين، ويدل توجه بيبرس لقطز من أجل توحيد جبهتهم الداخلية على أنه يرى في قُطز رجل عظيم، بالرغم من أن قُطز لعب دوراً صغيراً في تشريده وجعله طريداً في الشام، ويدل على أن قطزُ أيضاً يستحق بالفعل قيادة الأمة الإسلامية في هذه المرحلة الحرجة؛ لنسيانه دور بيبرس في تحريض ملوك الشام ضده(١).

كان الأمير شمس الدين أقوش البرلي العزيزي، أحد أمراء المماليك المشتتين بين مصر والشام، وكان هذا الأمير من مماليك العزيز محمد بن الناصر يوسف، وقاتل أقوش البرلي في صفوف الناصر يوسف ضد المعز أيبك التركماني، وبعد فترة تنكروا لأستاذهم العزيز محمد، وأعلنوا ولائهم للمعز أيبك التركماني، ثم خططوا لاغتيال أيبك التركماني بعد انضمامهم إليه بفترة قصيرة، وعندما علم بهم أيبك قبض على بعضهم، وهرب بعضهم، وكان البرلي من جملة من سلم وهرب إلى الشام، أي أنه عاد لمن تنكر له، فلما وصل إلى الملك الناصر اعتقله بقلعة عجلون(٢)، فلما توجه الملك الناصر بالجيش إلى الغور هارباً من الزحف المغولي، أخرج البرلي من حبس عجلون وطيب خاطره، فلما هرب الملك الناصر من قَطْيَة(٣)، رفض الأمير شمس الدين أقوش البرلي الهروب مع الناصر يوسف، وقرر دخول مصر في طاعة المظفر قطز، على غرار من دخل من المماليك البحرية ومن الشاميين فأحسن إليه الملك المظفر قطز(٤).

---

(١) ينظر اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٣٩ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٤٨ ؛ ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ١٩٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ؛ ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ؛ المقريزي ؛ السلوك : ج ١ ، ص ٥٠٩ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٥٨ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٠٧.

(٢) قلعة صغيرة تقع شمال غرب الأردن، على جبل مطل على الغور، مبنية على جبل عوف "نسبة لقوم بني عوف"، تُرى من القدس ومن جبال نابلس، وأقطعهم بني عوف هذه المنطقة، الأمير عز الدين أسامة، أحد الأمراء الكبار في دولة العادل أبو بكر بن أيوب، وقيل سميت عجلون نسبة إلى دير قديم يسكنه نصراني اسمه عجلون، وبقيت القلعة مكانه، فسميت باسم الراهب، ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج ١ ، ص ٧٦

(٣) قرية مصرية قريبة من الغُرابي والصالحية، تشتهر بتجارة الأسماك، لقربها من البحر، ويعني اسمها، أنها تقطيت على القوم وتطلبهم حتى تأخذ منهم شيئا، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤ ، ص ١٩ ، ٣٧٨.

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٥٣ ؛ ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ ؛ العيني ، عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٥٥٧.

ثانياً- استمرار هروب الناصر يوسف من المغول، ودخول كثير من الشاميين إلى مصر وتوحدهم مع قطز:

توجه الناصر يوسف بجيشه نحو مصر، ومعه الملك المنصور صاحب حماة، فأقاما في نابلس أياماً، ثم هرب عنها عندما علم بقرب المغول إلى فلسطين، ولكن أميرين مجاهدين رفضا الهروب معه، وبقيا في نابلس، وهما: الأمير مجير الدين بن أبي زكري[١]، والأمير علي بن شجاع ومعهما مجموعة من الجيش، وتصدى الأميرين ومن معهما للمغول عندما وصلوا نابلس حتى استشهدا ومن ثبت معهم من العسكر، وكان هذين الأميرين جليلين فاضلين، كانت البحرية قد قبضوا عليهما، وسيروهما للكرك، وأفرج عنهما المغيث، بموجب الصلح الذي عُقد بينه وبين الناصر يوسف[٢] .

بقي الناصر يوسف متحيراً ماذا يفعل، وأين يتجه وفكر بالاتجاه إلى الحجاز[٣]، ولما عَلم أثناء تواجده بغزة، ما فعله المغول في نابلس بالأميرين مجير الدين وابن شجاع ومن تبقى من جيشه، رحل من غزة إلى العريش، وسير القاضي برهان الدين الخضر[٤]، رسولاً إلى السلطان المظفر قطز، ليطلب منه العون، ثم سار الناصر يوسف والملك المنصور صاحب حماة، ومن تبقى معهم من الجيش، وعندما وصلوا إلى قطية، وفيها اندلعت فتنة بين التركمان والأكراد الشهرزورية، ووقعت عمليات نهب في الجيش، حتى أن الناصر يوسف لم يخف من المغول فقط، بل جبن دخول مصر خوفاً من أن يقبض عليه قطز، فتأخر في قطية مع أخية الظاهر الذي

---

(١) مجير الدين بن سيف الدين بن أبي زكري، كان شجاعاً ورفض الاستسلام للمغول في نابلس، وقاتل المغول بنفسه، وقتل بسيفة مجموعة كبيرة من المغول، واستمر يقاتل بسيفه حتى سقط النصل من يده، فصار يقاتلهم بالدبوس، وكان يضرب ويتقى الضربات به، ويرفس برجله من يصل إليه من الفرسان حتى قتل سبعة عشر أو تسعة عشر مغولياً، حتى أن المغول أنفسهم أعجبوا بشجاعته، وأخذوا نصل سيفه إلى دمشق ، ابو شامة : الذيل على الروضتين ، ص ٣١٢ ، ٣١٣.

(٢) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٥٧.

(٣) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٠٠.

(٤) القاضي برهان الدين الخضر بن الحسين بن علي السنجاري الزرزاري، تولى القضاء في مصر في أيام الصالح نجم الدين أيوب، وبقي قاضياً أيضاً حتى أواخر سلطنة الظاهر بيبرس، وعزل في سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م، وأصبح وزيراً في عهد المنصور، وتوفي سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م، وقيل أنه الأمير الشجاعي قد سمه، الصقاعي، تالي كتاب وفيات الأعيان، ص ٦٩.

رفض أن يترك أخيه وحيداً[١]، وبعد رفضه راسل قطز الأمراء الناصرية، وكتب إليهم يعدهم بالإكرام والإحسان إن وصلوا إليه ففارقوا الناصر يوسف وأنضموا للمظفر قطز[٢]، وبعد أن تركه عدد من أمرائه ومن الشهرزورية، بقي معه مجموعة قليلة من الجيش، ومن اتجهوا إلي مصر أقاموا ببلبيس، ومنهم الأمراء : حسام الدين طرنطاي وبدر الدين طيدمر الأخوث وبدر الدين أيدمر الدوادار وأيدغدي الحاجي[٣]، وأصطحب أمراء وجند القيمرية[٤] عند دخولهم مصر نسائهم، وأولادهم، وذخائرهم، وأموالهم[٥] .

اتجه الناصر يوسف إلى (سيناء) بعد أن رفض دخول مصر، ولكن الملك المنصور صاحب حماة[٦]، والملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ، وكثير من أمراء الشام دخلوا مصر[٧]، واستقبلهم قطز استقبالاً حسناً، وطيب قلوبهم، وأدخلهم القاهرة[٨]، ثم قام الشاميون الذين دخلوا مصر ببيعة المظفر قطز، وأصبح قطز بعد هذه البيعة سلطاناً شرعياً لمصر وبلاد الشام بعد بيعة كثير من ملوك وأمراء الشام له[٩]، وأما الناصر يوسف لو دخل مصر لكان أيسر له مما سار إليه من سوء الحال[١٠] .

من خلال ما سبق يتبين أن الزحف المغولي من شمال بلاد الشام إلى جنوبها، لعب دوراً رئيساً في إجبار الشاميين من العامة والأمراء والجند على التوجه نحو مصر، فهروب الناس كان خوفاً من المغول، وأما توجه جُند الشام نحو مصر فكان للالتحاق بجيش المظفر قطز؛ وأعتقد بأن مشاهدة الشاميين الصلح الذي تم بين البحرية والمعزية، قد شجعهم على ذلك، وهذا أهم نتائج تكتل المماليك البحرية والمعزية، أنها لعبت دوراً حيوياً في تَشجيع كثير من ملوك وأمراء

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٤٩.

(٢) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٢٥٠.

(٣) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٣.

(٤) نسبة إلى قيمر وهي منطقة جبلية تقع بين الموصل وخلاط وأهلها من الأكراد، ويوجد بها قلعة محصنة، ياقوت الحموي : ج ٤ ، ص ٤٢٤ ؛ بدران ، عبد القادر : منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ، ص ١٤٢.

(٥) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ٤٩.

(٦) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٤٩.

(٧) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٤٥٣.

(٨) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٤٤٩.

(٩) الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٢٤.

(١٠) ابن كثير : البداية ، ج ١٣ ، ص ٢٢٠.

وجند الشام على الالتحاق بجيش المظفر قُطز، ومنهم الملك المنصور صاحب حماة والملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ، وعدد كبير من أمراء وجند الناصر يوسف، وبذلك تحولت الوحدة الجزئية بين المماليك إلى وحدة شاملة بين مصر وبلاد الشام.

دل حسين الكردي القائد المغولي كتبغا نوين على المكان المتواجد فيه الناصر يوسف، فتمكن كتبغا نوين من القبض عليه، وأحضره إلى عجلون التي كانت مستعصية على المغول[١]، وطلب الناصر يوسف من أهل عجلون الاستسلام، ووعدهم الناصر يوسف بأن المغول لن يمسوهم بشر[٢]، ثم قام كتبغا بأرساله إلى هولاكو، فوصل إلى دمشق، ثم إلى حماة، وبها الأشرف موسى صاحب حمص، فخرج إلى لقائه هو وخسروشاه النائب بحماة، ثم سار إلى حلب، ثم وصل الأردن ومنها تم نقله إلى هولاكو، وعندما مر الناصر يوسف بحلب ورأى ما حل بها وبأهلها تضاعف تألمه وأنشد:

يَعِزُّ عَلَينَا أَنْ نرى رَبعَكُمْ يَبْلَى وَكَانَتْ بِهِ آيات حُسْنَكُمْ تُتْلَى [٣] .

ثالثاً – جهود قطز في ضم ملوك الشام الذين دخلوا في طاعة المغول إلى صفه :

بعد انضمام ملوك الشام لقطز، وأمراء البحرية والأكراد، والتركمان، قام قطز بمراسلة الأشرف موسى، صاحب حمص، وكان قد عاد من جهة هولاكو من حلب – حيث أخذ تفويضاً من هولاكو بنيابة السلطنة بالشام كلها، وحلب، وغير ذلك، والملك السعيد بن الملك العزيز عثمان بن الملك العادل – وكان قد أخذ من هولاكو فرماناً بمنحه نيابة الصبيبة وبانياس، وطلب منهم قطز مساعدته في المعركة، وأن تكون الكلمة واحدة، فتوجه رسوله إليهم[٤]، وفي الرسالة أيضاً عاتبهم قطز؛ بسبب ميلهم للمغول وإنحيازهم إليهم ضد المسلمين، ووعد قطز كل منهما بالوعود الطيبة إذا ما خرجوا عن المغول ومالوا إليه، أو لم يقاتل مع المغول على الأقل بأن يبقي على حياتهم وعلى ما في يدهم من البلاد[٥]، وذهب رسول المظفر قطز إلى الملك السعيد، فسبه وسب من أرسله، وقال: «من هو الذي يوافق هذا الصبي، أو يدخل في طاعته أو ينضم إليه؟» ونحو

---

(١) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٠٠.

(٢) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ٢٦٣.

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٥١.

(٤) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٣٠٢.

(٥) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٢٧٥.

هذا من الكلام؛ ففارقه الرسول وتوجه إلى الملك الأشرف، فخلا الملك الأشرف بالرسول، وقبل الأرض بين يديه تعظيما واحتراماً لمرسله، وأجلسه مكانه على مرتبته وجلس بين يديه، وسمع رسالته، وقال له: «قبل الأرض بين يدي مولانا السلطان الملك المظفر، وأبلغه عني أنني في طاعته وموافقته، وامتثال أمره، والحمد لله الذي أقامه لنصرة هذا الدين»، ووعد أنه، إن حضر المصاف مع التتار، انهزم بهم، إلى غير ذلك، وأعطى الرسول ذهب وأموال كثيرة، وأعتذر إليه، فعاد الرسول، وأبلغ الملك المظفر عن كل من الملكين ما قال له، وقرر قطز أن يعامل كل واحد منهما كما يجب بعد المعركة [١]، وعندما عزم كتبغا على لقاء المظفر طلب الأشرف موسى إليه فاعتذر الأشرف وتمارض، وبعث ابن عمه الملك المعظم وأحد كبار أمراءه وهو صارم الدين أزبك، وطلب منهما الأشرف التظاهر في القتال وعدم الاشتداد على جيش قطز[٢].

لعب صارم الدين أزبك الذي أرسله الأشرف موسى، دوراً حيوياً في رفع روح المعنوية عند قُطز وكبار أمراء المماليك، ويروي صارم الدين أنه قبل ذهابه مع كتبغا نوين لمواجهة قطز، بعث هولاكو في طلبه، وأنعم عليه كثيراً وقال له «يا صارم أنت تعلم ما فعلُته معك من الخير بخلاف أستاذيتك الذين ربوك، وأنا خايف على أولادي الذين سيرتهم إلى مصر لقلة خبرتهم بالبلاد، وأريدك ترجع، وتكون معهم، وتدلهم على المصالح فأنت أخبرُ ببلادك» وكتب هولاكو معه كتباً لأولاده بأن لا يخرجوا عن رأيه ويستمعوا لنصائحه، فلما عاد صارم الدين أزبك من عند هولاكو، وجد المغول مجتمعين في الأردن، والمماليك خرجوا لمواجهتهم، وقَبل المغول عَين صارم الدين؛ لأنها شاهدت القان منذ زمن قريب، وأنفذ صارم الدين رجل ممن يثق بهم في ظاهره جاسوساً للمغول، ثم اشار على كتبغا نوين بأن يرسل هذا الجاسوس ليتجسس على المسلمين، وأمره صارم الدين في الباطن بأن يجتمع بالملك المظفر قطز[٣]، والأمير بيبرس البندقداري، وبلبان الرشيدي، وشمس الدين سنقر الرومي، وكان بعض الأمراء في قلق من المواجهة، وأوصى صارم الدين رسوله المتنكر في هيئة جاسوس، بأن يخبرهم بأنه من جهة صارم الدين أزبك، وقال في جملة كلامه ان يقول للأمراء: «لا تخافوا أنا وأصحابي والملك الأشرف في ميسرة التتار، فإذا رأيتم

---

(١) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٣٠٢.

(٢) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٢٧٥.

(٣) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٥٦ ، ٥٧.

رنكي[١] احملوا علي وعلى أصحابي، فأنا والملك الأشرف ننهزم بين أيديكم» [٢]، «فان التتار يتبعوني في الهزيمة»[٣] وهون صارم الدين في الرسالة على قطز والأمراء من أمر المغول، وأوصى صارم الدين أزبك السلطان قطز والأمراء بأن يعملوا جهدهم على تقوية ميسرة جيش المسلمين بالخيل والرجال، وأن يكون لقاء العدو عند طلوع الشمس[٤].

بناءً على ما سبق يمكن القول بأن الملك السعيد بن العزيز، قرر رفض التوحد مع قطز وعزم على معاداته، ورضي لنفسه أن يبقى عميلاً ذليلاً للمغول، وبالرغم من ذلك فقد نجحت جهود قطز في تحييد الأشرف موسى، بل وكسبه إلى صفه عن طريق سياسة والترغيب والترهيب مع الأثنين، بعد أن نجح في توحيد الجبهة الداخلية للمماليك، وضم كثير من أمراء وعسكر الشام إلى جيشه، كما أنعكس نجاح قطز في القرار المهم الذي اتخذه الأشرف موسى، وهو جعل قائد جيشه صارم الدين أزبك الذي وضعه المغول على ميسرة جيشهم، ينسحب من صفوف المغول، وبالتالي إحداث ارباك حقيقي في صفوف المغول، المهم في الأمر أن المسلمين سيخفضون تقوية ميمنتهم؛ لأنها أصبحت آمنه، وعلى المسلمين تقوية ميسرتهم، لمواجهة ميمنة المغول القوية، الذي كان يخطط كيف يُربك المغول ويخوفهم من المسلمين، وكيف يرفع الروح المعنوية للجيش الإسلام الذي يتزعمه قطز، وبضم الأشرف موسى وجيشه يكون قطز قد قوى جيشه، وأضعف من جيش المغول، ونجاح قطز هذا مع أحد الملوك الخاضعين للمغول، سيكون له دور كبير في

---

(١) رنك كلمة تعني اللون، الرمز، العلامة، الشعار، وفي الاصطلاح أطلقت في العهدين الأيوبي والمملوكي على الشعار، حيث كان لكل سلطان أو أمير كبير أو صغير شعار خاص يتميز به عن سواه، وكان لوظيفة الدودار رسم دواة، وللساقي، رسم كأس ويعرف بأسم هناب، والجاشنكير (الذواق) وسم خوان، وللبندقدار سيف، وللجمدار بقجة ولكل أمير الحق في اختيار رنكه، ويجعل هذا اللون دهاناً على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم، كمطابخ السكر وشون الغلال والأملاك والمراكب ، وعلى قماش خيولهم من جوخ ملون مقصوص ثم على قماش جمالهم من خيوط صوف ملونة تنقش على العبي والبلاسات، وعلى السيوف والأقواس ، واسطبلات الخير وغيرها ، القلقشندي ، صح بالأعشى ، ج ٤ ، ص ٦٣ ؛ حلاق ، حسان وصباغ ، عباس : المعجم الجامع ، ص ٥٩ ، ٩٣ ، ١٠٣ ؛ دهمان ، محمود : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، ص ٨٣ ، العبادي، أحمد مختار : في التاريخ الأيوبي والمملوكي ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، هامش رقم ١.

(٢) قرطاي : تاريخ مجموع النوادي ، ص ١٠٢.

(٣) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٥٧.

(٤) قرطاي : تاريخ مجموع النوادي ، ص ١٠٢.

تحقيق النصر في المعركة التي سيقبل عليها قطز مع المغول، من خلال السياسة الحكيمة التي اتبعها قطز مع ملوك بلاد الشام، الذين خضعوا للمغول إما بالسياسة أو بالإرهاب[١].

رابعاً- رأي الشيخ عز الدين بن عبد السلام في جهاد المغول:

في ظل تقدم التتار في بلاد الشام عقد العلماء والأمراء والقضاة مجلس في مصر وحضره الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وقاضي القضاة بدر الدين السنجاري[٢]، وتناقشوا فيما يتعلق بأخذ شيء من أموال الناس لمساعدة الجند، وكان المرجع والرأي للعز ابن عبد السلام، وما يقوله العز يأخذ به هذا الاجتماع من العلماء والأمراء[٣]، وكان قطز يريد أن يأخذ الضرائب من الناس، فعدل المعز في توزيع أعباء القتال، فطلب من قطز أن يأتي بكل ما عنده وعند الأمراء من أموال وقال: «إذا طرق العدو البلاد وجب على العالم كلهم قتالهم، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به على جهادهم، بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء، وأن تبيعوا ما لكم من الحوائص[٤] والآلات، ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه، ويتساووا في ذلك هم والعامة، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا»[٥].

خامساً- استعدادات قطز لمواجهة المغول ومعركة غزة:

بعد سقوط بلاد الشام كلها بيد المغول، وأنهم عازمون على دخول مصر، قرر قطز أن يبادرهم قبل أن يبادروه[٦]، وفي أثناء استعدادات المماليك لمواجهة المغول وصلت رسالة تهديد

---

(١) يُنظر، قرطاي العزي : تاريخ مجموع النوادر ، ص ٩٠ ، ٩١ ، ١٠٢ ، ١٠٤.

(٢) القاضي بدر الدين أبو المحاسن يوسف بن الحسن بن علي بن عبد الله الزرزاري المعروف بالسنجاري الشافعي، ولي القضاء بمصر مدة، ثم عُزل وتولى مكانه تاج الدين بن بنت الأعز سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م، وولي الوزارة في بداية دولة المماليك، وتوفي بمصر في العشر الأواخر من رجب سنة ٦٦٣هـ/ مايو ١٢٦٥م، في سلطنة الظاهر بيبرس، الصقاعي : تالي كتاب وفيات الأعيان ، ص ١٦٨.

(٣) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٣٢٧.

(٤) حوائص جمع حياصة وهى حزام كان يسمى منطقة ثم أطلق عليه اسم حياصة، وكانت تصنع من الذهب أو الفضة، وقد تحلى بالجواهر، وأباح الاسلام للرجل بلبس حياصة فضية، والمرأة حياصة ذهبية ، البهوتي : شرح منتهى الإرادات ، ج١ ، ص ٤٣٣ ؛ البهوتي: كشاف القناع ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ ؛ البعلي : كشف المخدرات، ج ١ ، ص ٢٥٩.

(٥) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٤٨ ، ص ٤٥ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٣٢٧ ؛ السيوطي حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٢٠.

(٦) ابن كثير : البداية ، ج ١٣ ، ص ٢٢٠.

من هولاكو إلى قطز والمماليك[١]؛ فجمع قُطز الأمراء واتفقوا على قتل رسل المغول والمسير إلى الصالحية، ثم قبض على رسل المغول وكانوا أربعة[٢]، وأمر الجيش بعمل عرض عسكري في القاهرة[٣]، ثم أمر بتوسيط رسل المغول؛ فوسط[٤] واحداً بسوق الخيل تحت قلعة الجبل، ووسط آخر بظاهر باب زويلة، ووسط الثالث ظاهر باب النصر، ووسط الرابع بالريدانية، وعلقت رؤوسهم على باب زويلة، وهذه الرؤوس أول رؤوس علقت على باب زويلة من المغول، وأبقى قطز على صبي من رسل المغول وجعله من جملة مماليكه، ونودي في القاهرة وسائر مصر بالخروج إلى الجهاد في سبيل الله ونصرة لدين رسول الله ﷺ[٥] .

وتعقيباً على ما سبق يمكن القول بأن قطز أمر الجيش بعمل عرض عسكري، وأمر بتوسيط رسل المغول في عدة أماكن؛ لرفع روح المعنوية عند الناس والأمراء، ولتخويف المغول، ويبدو أنها كانت إشارة غير مباشرة على أن قطز قرر المواجهة مع هؤلاء.

عندما نزل المظفر قطز إلى الصالحية بجيشه ومن أنضم له من الشام، خاف بعض الأمراء وامتنعوا عن التقدم مع الجيش، فتكلم قطز وقال لهم: «يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين»[٦]، وفي الصالحية شمال مصر استشار قطز الأمراء وقال لهم: «أين يكون لقاء العدو» فأشار كثير منهم أن يكون بالصالحية، وصمموا على ذلك، فوافقهم على رأيهم ظاهراً ولم يكن موافقاً على رأيهم[٧]، وأما الأمير بيبرس أشار عليه وشجعه أن يلاقي المغول في بلاد الشام، فأخذ برأي بيبرس[٨]، وركب في صبيحة ليلة المشورة من الصالحية، وأجبر الأمراء على التقدم معه نحو فلسطين؛

---

(١) أنظر نص رسالة تهديد هولاكو لقطز في ملحق رقم (٢) .

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٥.

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ٣٠٦.

(٤) التوسيط هو قطع الشخص إلى نصفين ، بضربة سيف تقطعه إلى نصفين، وكان هذا النوع من الإعدام شائعاً بمصر في العصور الوسطي، العبادي ، الرازي : مختار الصحاح ، ص ٣٨٨ ؛ أحمد مختار : في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص ١٤٩ ، هامش رقم ٤.

(٥) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٥.

(٦) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥١٥.

(٧) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٣٠٣.

(٨) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٣٩.

فانجرت العساكر خلفه، ولم يتخلف منهم أحدٌ عنه[١].

عندما أقترب الجيش الإسلامي من بلاد الشام، سير المظفر قطز الأمير بيبرس البندقداري بقطعة صغيرة من العسكر أمامه كالجاليش[٢]، يرصد المغول ويتجسس أخبارهم، فسار بيبرس حتى ناوشهم أول ما وقعت عينه عليهم[٣]، وإذ بالجيش الذي لا يُقهر يفر من غزة أمام قطعة صغيرة من العسكر، وتمكن بيبرس من الحاق الهزيمة بالمغول في غزة[٤]، وبعد تحرير بيبرس لغزة نزل السلطان المظفر قطز بها بكامل جيشه يوماً، ثم رحل عنها وسلك طريق الساحل[٥].

لم يذكر المؤرخون، ابن أيبك، وبيبرس المنصوري، واليونيني، وأبو الفداء، وقرطاي العزي، والنويري، لماذا تحول بيبرس من راصد إلى مهاجم للمغول في غزة، ومن المرجح بأنه فعل ذلك؛ حتى يرفع من الروح المعنوية عند الأمراء الكارهين للقتال مع الجيش الرئيسي الذي يترأسه قطز بنفسه، والخائفين من المغول؛ ليثبت لهم أن المغول يقهرون، وليس كما أُشيع عنهم بأن جيشهم لا يُقهر ولا يُهزم، ولم تذكر المصادر أيضاً كيف تمكن بيبرس بعدد قليل من الجند، من إلحاق الهزيمة بالمغول في غزة، وإجبارهم على الفرار، بالرغم من تكدس أعداد كبيرة من المغول في غزة، لأنها أصبحت هي الحد الفاصل بين مصر والشام، وكان لبيبرس خبرة في جغرافية بلاد الشام عندما كان طريداً فيها، فكما ذكرنا كان ينام في براريها، ويلجأ من ملك إلى ملك من ملوك الأيوبيين، وكان له أيضاً خبرة في قيادة حرب الشوارع وحرب العصابات، وربما سمعة بيبرس هي التي أخافت منه المغول في غزة، ومن المرجح أنهم قد سمعوا بدهاء بيبرس، وقوته العسكرية؛ فكما أسلفنا سابقاً في تعريف شخصية بيبرس، بأنه قد اشتهر بأسر الملك الفرنسي لويس التاسع عشر، في معركة المنصورة عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، والأهم من ذلك أن الله القى الخوف في قلوب المغول عند دخول بيبرس أبواب غزة، والجدير بالذكر أن تكتل بيبرس مع قطز قُبيل الهجوم على

---

(١) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٣٠٣.

(٢) الجاليش لغة تعني مقدمة الجيش، وفي الاصطلاح عند المماليك، وهو علم كبير في أعلاه خصلة من شعر الخيل، يرفع قبل الخروج إلى القتال بنحو أربعين يوماً، وذلك فوق مبنى الطبلخانة، وتأتي الشاليش بمعنى الشعر، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٧ ؛ حلاق ، حسان و صباغ ، عباس : المعجم الجامع ، ص ٦٠ ؛ دهمان ، محمد : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، ص ٥٠.

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠١.

(٤) أنظر خريطة سير جاليش العسكر بيبرس البندقداري حتى انتصاره في معركة غزة في ملحق رقم (٣)

(٥) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٥ ، ٥١٦.

المغول، لعب دوراً مهماً في تحقيق النصر في معركة غزة، وفي تقوية الجبهة الداخلية للمماليك، كما كانت أيام الصالح نجم الدين أيوب، فلو بقيت الجبهة الداخلية للمماليك في حالة صراع كما كانت سابقاً لربما، تمكن المغول من احتلال مصر بعد احتلالهم للشام، والقضاء على الإسلام نهائياً[١].

سادساً- جهود قطز في تحييد الصليبيين:

في ظل جهود السلطان المظفر قطز في توحيد الجبهة الداخلية للمسلمين، قرر تحييد الصليبيين، وتوجه قطز من الصالحية بمصر إلى غزة بعد أن حررها بيبرس من المغول، ونزل بها قطز لمدة يوم واحد، ثم سار عن طريق الساحل حتى وصل عكا، وكانت تحت الاحتلال الصليبي، وخرج إليه الصليبيين وأرادوا أن يسيروا معه لمساندته، فشكرهم على موقفهم، وطلب منهم البقاء على الحياد وأخذ منهم العهد والمواثيق بأن لا يكونوا معه ولا عليه، وحذرهم قطز من الغدر به، وأقسم بأن أي صليبي يريد إلحاق الأذى بجيش المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلقى المغول[٢].

يتضح مما سبق أن قطز قام بتحييد الصليبيين من خلال سياسة اللين والمهادنة، ونجح في الوصول إليهم أولاً في معقلهم الرئيسي في عكا، قبل أن يصل إليهم المغول، ويجبروهم على التحالف معهم ضد المسلمين، وكان من ذكاء قطز أنه رفض مساعدة الصليبيين؛ حتى يأمن غدرهم، وحتى لا يمنوا على المسلمين مستقبلاً، ويشعروهم بأنهم هم من حموهم من المغول وأوقفوا زحفهم وتمددهم.

سابعاً- ردة فعل المغول من استعدادات قطز لمواجهتهم:

تفاجئ المغول من استعدادات المماليك لحرب المغول، وتوجه القائد المغولي كتبغا نوين لمواجهة المسلمين، وكان آنذاك في البقاع، فاستشار الأشرف صاحب حمص، والمجير ابن الزكي، فأشاروا عليه بعدم مواجهة المظفر؛ لأنه لا قبل له به، وأشاروا عليه بالانتظار حتى يعود هولاكو إليه أو يرسل إليه مدد، فأبى كتبغا إلا أن يتصدى لهم بسرعة، قبل أن يتوغل الجيش

---

(١) يُنظر، الصُقاعي: تالي كتاب وفيات الاعيان ، ص٥٠ ؛ الذهبي العبر في خبر من غبر، ج٥ ، ص٣٠٨؛ ابن إياس : بدائع الزهور، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٠٨ ، ٣٠٩.

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٦.

المملوكي أكثر في الشام[١]، وقام كتبغا وبيدرا نائبا هولاكو في الشام، بجمع من هُزم من المغول في معركة غزة ومناطق أخرى في فلسطين، أثناء تقدم بيبرس، وبعد اجتماعهم سارا يريدان محاربة المسلمين[٢] .

من خلال ما سبق يتبين أن الأشرف موسى كان يُخيف ويرهب كتبغا، من المظفر قطز عندما قال له، بأنه لا قبل لك بالمظفر، ومن الواضح أنه كان يريد توريط كتبغا، عندما أشار عليه بالانتظار، وفي الحقيقة لن يستطيع هولاكو العودة للشام، في ظل الصراع الداخلي بين المغول على العرش، وحتى لو أرسل مدداً لجيشه في الشام، سيكون جيش قطز قد وصل دمشق قبل أن يأتي مدد هولاكو، وهذه ستكون ضربة قوية وصادمة للمغول.

ثامناً- معركة عين جالوت ودور الوحدة في تحقيق النصر:

١- معركة عين جالوت (٦٥٨هـ/١٢٦٠م):

قبل بدء المعركة جمع المظفر قطز الأمراء، وحضهم على قتال المغول، وذكرهم بما وقع بأهل الأقاليم من القتل والسبي، وخوفهم وقوع مثل ذلك، وحثهم على استنقاذ الشام من المغول ونصرة الإسلام والمسلمين، وحذرهم عقوبة الله؛ فضجوا بالبكاء، وتحالفوا على الاجتهاد في قتال المغول ودفعهم عن البلاد[٣]، وكان يصحب المظفر قطز الملك المنصور صاحب حماة، وفوض قطز لنائب السلطنة فارس الدين أقطاي المستعرب الأمور العسكرية كلها[٤].

أرسل السلطان قطز الأمير ركن الدين بيبرس أمامه يناوش المغول[٥]؛ ليضلهم عن تحركات الجيش الرئيسي خلفه[٦]، ولأستدرجهم إلى عين جالوت[٧]، وذلك عن طريق الكر والفر[٨]، واختار قطز فرسان أقوياء، ليقاتلوا مع بيبرس في المقدمة[٩].

---

(١) ابن كثير : البداية ، ج ١٣ ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١.

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٦.

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥١٦.

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٧٨.

(٥) أنظر تصميم خط سير الجيش الإسلامي من مصر حتى عين جالوت بفلسطين في ملحق رقم (٤).

(٦) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٥ ، ٥١٦.

(٧) هي بلدة بين بيسان ونابلس من فلسطين ، الغزي : نهر الذهب ، ج ٣ ، ص ١٦٣.

(٨) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٣٩.

(٩) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ٥١٦ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٦١.

سار كتبغا بجيشة حتى نزل بالقرب من عين جالوت، وصعد بيبرس إلى أحد التلال ورأى الجيش المغولي ينزل من أحد التلال في المنطقة، وكان بينه وبين السلطان قطز مسافة، فجهز البريد في طلب السلطان، وكان بيبرس قلقاً أثناء رصده للمغول من أن تتأخر القوة الرئيسية التي على رأسها قطز بنفسه، ولم يرضى بيبرس العودة للجيش الرئيسي وصمم على الاستمرار في المناوشة، وقال : «إن ولينا كسرنا الإسلام»، ثم أنزلت قوات بيبرس رؤوس خيلهم أثناء نزولهم عن التل إلى الخلف، وضرب المغول حلقة على التل، وتحيز بيبرس بعسكره، فلم تمض ساعة حتى جاءه مدد من الجيش الرئيسي الذي يتبعه، وكان عدده خمسمائة من فرسان المسلمين، ثم بعد ساعة أخرى لحق بهم خمسمائة أخرين، وأخذ التتار فاشتغلوا أيضاً بأخذ أهبتهم وتنظيم جيشهم(١).

كانت المعركة في يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ/ ٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠م(٢)، وكانت بدايتها، بالتقاء مقدمة الجيش المملوكي بقيادة بيبرس البندقداري مع مقدمة الجيش المغولي، وتمكن بيبرس من هزيمة مقدمة المغول، وكبدها خسائر فادحة(٣)، وكان ثبات بيبرس ومن معه من الفرسان أثناء هجوم المقدمة التي يقودها، قد قلل من هيبة المغول المزعومة، في عين الجيش الإسلامي، وبعد أن تمكن بيبرس من هزيمة مقدمة الجيش المغولي، شن هجوم قوي على الجيش المغولي كله بشجاعة، حتى اخترق صفوفه وتقدم أمامه(٤)، ثم عاد منسحباً إلى الجيش الرئيسي(٥) الذي يترأسه قطز(٦)، ولحق المغول بكتيبة بيبرس إلى أن وقعوا في كمين في منطقة عين جالوت(٧)، وعندما وصل المغول المكان الذي حدده المسلمين للمعركة، التقى الجيشان(٨) عند طلوع الشمس، وقد امتلأ الوادي بالفلاحين من أهالي القرى المجاورة لعين جالوت (الفلسطينيين) وكثر صياحهم، وقد شكلوا سنداً للجيش الإسلامي من خلال تأمين ظهره، ولم يتوقف ضرب

---

(١) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٤٨ ، ص ٦١.

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٣٩.

(٣) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٦.

(٤) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٤٩.

(٥) انظر تصميم استدراج الأمير ركن الدين بيبرس للمغول إلى عين جالوت في ملحق رقم (٥).

(٦) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٣٩.

(٧) انظر نجاح مهمة بيبرس في استدراج المغول وإيقاعهم في الفخ في ملحق رقم (٦).

(٨) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٤٩ ؛ ينظر ، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٣٩.

طبول السلطان، وقد أنصدم المغول مما فعله بيبرس البندقداري بهم[١].

يتضح مما سبق بأن بيبرس نجح في تحديد المكان، الذي يمكنه فيه الاضطلاع بالكامل بالمهام الموكلة إليه في قيادة طليعة الجيش، والتي لعبت درواً حيوياً في استدراج المغول إلى منطقة عين جالوت، كما لعبت دور مهم في إرهاق المغول، وكانت عبارة عن كتيبة استشهادية، فقد كانت مناوشة الجيش المغولي الضخم بعدد قليل من الفرسان، يدل على أن قائد الطليعة بيبرس ومن معه دخلوا استشهاديين، ولم يخيفهم العدد الضخم من المغول، المعروف عن أسلحتهم الفتاكة، وخبرتهم العالية في القتال، لكن لم تشر المصادر من شارك مع بيبرس في هجوم المقدمة، هل هم من كانوا رفقاءه في التشرد فقط؟، أم أن هناك كتيبة تشكلت من البحرية والمعزية والأكراد؟، ومن المرجح أنه تم اختيار فرسان المقدمة من النخبة، وأكثر فرسان النخبة كانوا من المعزية الذين كانوا مع قطز قبل الوحدة، ومن البحرية الذين كانوا مع بيبرس؛ لتلقيهم تدريباً عسكرياً عالياً؛ لمواجهة الاخطار التي كانت تلاحقهم بهم أثناء فترة التشتت، من كل من يحكم مصر والشام في فترة الشتات، ومن المرجح أن خبرتهم في علوم وفنون المغول في القتال، وخبرتهم في مناطق بلاد الشام جعلتهم هم المناوشين والمستفزين للجيش المغولي، الجدير بالذكر أنه لولا الوحدة، لما أصبح بيبرس قائد جيش المسلمين، ولما حقق المسلمين هذه الضربات بالجيش المغولي، وفي الحقيقة أن مقدمة الجيش الإسلامي، كانت تحتاج لقائد شجاع ومحنك مثل الأمير بيبرس البندقداري، ولا أحد من القادة العسكريين الموجودين مع قطز يسد مكانه في قيادة المقدمة، واختيار قطز له كان مناسباً بالفعل، أي أنه وضع الرجل المناسب في المكان المناسب[٢].

مع ضرب الجيش الإسلامي الكوسات[٣] والطبلخانات[١]، كان صارم الدين أزبك بجانب

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٦.

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٤٨ ، ص ٦١ ؛ أنظر بداية معركة عين جالوت في ملحق رقم (٧).

(٣) الكوسات تعني الطبل، وهو مصطلح كان يطلق في العهد المملوكي للدلالة على نوع من الطبول المستعملة في النوبة، وهي إحدى محتويات الطبلخانه، وهي عبارة عن صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير، يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص مع طبول وشبابة ، يدق بها مرتين في القلعة في كل ليلة ويدار بها في جوانبها مرة بعد العشاء الآخرة ومرة قبل التسبيح على الموادن وتسمى الدورة بذلك في القلعة، وإذا كان السلطان في السفر أو في الحرب تدور حول خيامه، ويدعى من يضرب بها الكوسي ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٨ ؛ حلاق ، حسان وصباغ ، عباس : المعجم الجامع ، ص ١٩٢ ؛ دهمان ،

كتبغا وقت المعركة، وكان صارم الدين يخوف كتبغا من الجيش الإسلامي، وقال صارم الدين في روايته، وهو شاهد عيان في المعركة: «فلما كان ملتقى الجمعين على عين جالوت، وطلعت الشمس علينا وظلت عساكر الإسلام، كان أول سنجق سبق أحمر وأبيض، وكانوا لابسين العدد المليحة وأشرقت الشمس على تلك العدد، فطلبني كتبغا وقد بُهتَ هو والتتار الذين معه لكثرة تلك العساكر وحُسن ما عليهم وجمالهم، وهم منحدرون من الجبل» ويقول صارم الدين بأن كتبغا عندما كان يشاهد ولاحظ الخوف عليه، وقال له كتبغا «يا صارم هذا رنَكُ من؟» قال صارم: «قلت: سنقر الرومي» ثم ظهرت سناجق صُفر، وانفزع منها كتبغا وقال: «هذا رنك من؟» قال صارم : «بلبان الرشيدي» ويروي صارم: «ثم تتابعت الأطلاب أولاً فأولا، وانحدروا من سفح الجبل، ودقت الكوسات والطبلخانات، وامتلأ الوادي والبر من العياط، وغابت الفلاحين وأهل القرى والبلدات من كل جانب» والمثير للسخرية أن صارم الدين لم يكن يعرف في الحقيقة قادة تلك الكتائب الاسلامية، فقد كان يقول أسماء، وهو لا يعرف القائد الحقيقي للكتيبة التي ذكر اسم قائدها، وكان يقول هذه الأسماء، سنقر وبلبان وغيرهم، لتخويف كتبغا، وفي رواية صارم الدين قال: «كنت غراً بمعرفة رُنوك المسلمين، فصار كتبغا يسألني، هذا رنك من؟ فصرتُ أي شيء طلع على لساني قلته»[٢].

يستنتج مما سبق أن صارم الدين أزبك، لعب دروا كبيراً في تخويف وإرباك قائد المغول كتبغا، أثناء المعركة، وكان صارم الدين يُكبر من حجم الجيش الاسلامي في عين كتبغا؛ لتخويفه، وبين صارم الدين خوف كتبغا من الجيش الاسلامي اثناء نزوله من التلال، مع ضرب الطبول، وبين صارم الدين في روايته وهو شاهد عيان في المعركة، الإنسجام الذي كان بين الفرق العسكرية الإسلامية، فقد كانت تنزل بشكل مرتب ومنظم وملابس جميلة، وكل كتيبة

محمد : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، ص ١٣٢.

(١) هي طبول متعددة معها أبواق وزمر تختلف أصواتها على إيقاع مخصوص، تدق في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب، ويصحبها الجيش إلى الحروب، وهي من الآلات العامة لجميع الملوك، ويقال إن الإسكندر كان معه أربعون طبلخاناه، وقد كتب أرسطو في كتاب السياسة، الذي كتبه للإسكندر أن السر في ذلك إرهاب العدو في الحرب، والذي ذهب إليه بعض المحققين أن السر في ذلك أن في أصواتها تحمس للنفس عند الحرب وتقوية الجأش كما تنفعل الإبل بالحداء ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٧ ، ٨ ؛ حلاق ، حسان وصباغ ، عباس : المعجم الجامع ، ص ١٠٦ ، ١٠٧.

(٢) قرطاي : تاريخ مجموع النوادر ، ص ١٠٢ ، ١٠٣.

عسكرية لها لونها الخاص، وأشار صارم الدين أن صدمة كتبغا الكبرى من وحدة وإنسجام الجيش المملوكي، أكثر من الجيش المغولي المنظم والمحنك في الهجوم، والمتباهي دائماً بكثرة العدد، والإنسجام الذي وصفه أزبك يدل على الوحدة القوية بين الكتائب الاسلامية، والطاعة التامة للقيادة العليا التي على رأسها السلطان قطز، وتنفيذ الخطة التي أعدها السلطان بمشاركة القادة الكبار، مثل: الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، ونائب السلطنة فارس الدين أقطاي المستعرب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾[١].

شن المغول هجوم شديد على ميسرة الجيش الإسلامي كاد أن يفتك بها[٢]، وتزلزل المسلمون زلزالاً شديداً؛ فنزل السلطان قطز بنفسه إلى المعركة[٣]، وألقى خوذته من رأسه إلى الأرض، وحمل عليهم حمله قوية وصادقة[٤]، وصرخ صرخة عظيمة سمعها معظم العسكر وهو يقول: «وا إسلاماه ثلاث مرات يا الله أنصر عبدك قطز على التتار»، وعندما حمل قطز هذه الحملة القوية كان الصبى الذي أبقاه السلطان من رسل المغول، وأضافه إلى مماليكه، كان راكباً بخلفه حال اللقاء، فلما التحم القتال حاول هذا الصبي الغدر بقطز وقتله، وعندما أطلق سهمه نحو قطز[٥]، أخطأ السهم قطز وأصاب خيله، وأُلقي القبض على الصبي وقتل في مكانه، وعندما وقع السلطان قطز على الأرض، صار على قدميه، فنزل إليه الأمير فخر الدين ماما وقدم إليه فرسه، فأمتنع عن الركوب، وقال الأمير فخر الدين «يا خوند اركب، فماذا وقت امتناع»، فقال قطز «تُقتل يا فخر الدين»، فقال : «اذا قُتلت أنا كنت واحد من المسلمين، وكان عوضي كثير، واذا قتلت انت في هذا الوقت، فما لك عوض، وقتل المسلمين كلهم»، فركب قطز خيله ثم التقت الجنايب والوشاقيه، فركب فخر الدين من جنايب السلطان، وبعد هزيمة المغول لامه بعض الأمراء، لامتناعه عن ركوب خيل فخر الدين ماما، وقال أحدهم للسلطان «يا خوند، لو صدفك، والعياذ بالله في ذلك الوقت أنت فيه راجل بعض المغل كنت، رحت، وراح الإسلام لرواحك» فقال: «أما أنا فكنت أروح الجنة، وأما الإسلام فما كان الله ليضيعه، فقد مات السلطان المالك الصالح رحمه

---

(١) الصف : آية ٤.

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٦٨.

(٣) أنظر تصميم نزول قطز أرض المعركة ومشاركته في القتال في ملحق رقم (٨).

(٤) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٦ ؛ ينظر ، الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٤٨ ، ص ٣٥٤.

(٥) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٦ ، ٥١٧.

الله، وقتل ابنه المعظم، والأمير فخر الدين بن الشيخ[١] مقدم العساكر، وبعد هذا نصر الله الإسلام وحده بغير ملك بعد اليأس»[٢] .

انتصر الجيش الإسلامي في معركة عين جالوت، وانكسر جيش المغول كسره قوية، وأُجبر الجيش المغولي على الانسحاب حتى وصل بيسان، في نفس اليوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ/٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠م[٣]، ولاحقهم الجيش المملوكي؛ فأضطر المغول مُجبرين على القتال، فكان بينهما معركة بيسان، وهي أعظم من الأولى، وقتل فيها كبار قادة المغول[٤]، كما وقُتل نصف الجيش المغولي في هذه المعركة، وغنم منهم الجيش المملوكي غنائم عظيمة، من خيل وسلاح وغير ذلك[٥]، ويروي المؤرخ ابن العديم عن العالم أبو العباس الحواراني[٦] نقلاً عن بعض الثقات الصالحين، أخبروه بأن المجاهدين استشعروا بأن الملائكة كانت تقاتل معهم، في عين جالوت[٧] .

يتضح مما سبق بأن السلطان المظفر قطز كان مهندساً لمعركة عين جالوت، فقد كان ينظم المعركة، وعندما تبين له اختلال ميسرة المسلمين، نزل إلى المعركة بنفسه واختار الشهادة حتى أنه لم يرضى أن يأخذ فرس الأمير فخر الدين ماما، وإلقاء قطز خوذته على الأرض يدل على طلبه للشهادة، وعمل قطز على زيادة حماس الجيش الإسلامي في المعركة، فأصبح قطز أنموذج

---

(١) فخر الدين بن الشيخ، كان أتابك العسكر في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب، ودبر أمور الجيش في أثناء مرض السلطان، واستشهد على يد الفرنج يوم الثلاثاء ١٥ ذي القعدة سنة ١٨/٦٤٧ فبراير ١٢٥٠م، بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص ٨.

(٢) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٥٠ ؛ ينظر ، المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص ٥١٦ ؛ العيني :عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٦٦.

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٠٦.

(٤) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٧ ؛ ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٠٦.

(٥) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٠٦.

(٦) أبو العباس الحوراني أحمد بن عبد الواحد بن مراء، القاضي الملقب بالتقي الشافعي وكان أديب شاعر، قدم حلب، وأقام بها مدة، وتفقه بها على يد الشيخ قاضي القضاة أبي المحاسن يوسف بن رافع بن تميم، وسمع منه الحديث، ومن الشيخ الشريف أبي هاشم عبد المطلب بن الفضل الهاشمي وغيرهما، وأصبح من كبار الفقهاء، ثم توجه من حلب إلى سنجار وولي بها القضاء ثم انتقل عنها إلى بغداد، وأصبح موظفاً بالمدرسة المستنصرية من جهة الشافعية، وسمع بها الحديث من ابن الخازن وغيره، ثم تزهد وانقطع عن الدنيا وجاور مكة والمدينة ، ابن العديم : بغية الطلب ، ج ٢ ، ص ١٠١٩.

(٧) ابن العديم : بغية الطلب ، ج ٢ ، ص ١٠٢٠.

يحتذى به للحاكم المسلم، فقتال الحاكم في معركة خطيرة جداً كعين جالوت نادر جداً في التاريخ، فالمعروف عن الحاكم إن كان يريد المشاركة في المعركة، فتكون مشاركته مراقبة المعركة من بعيد فقط، ونزوله في المعركة نادر جداً، أما قطز فقد نزل وألقى خوذته التي تحميه من ضربات السيوف، بالإضافة إلى رفضه أن يحرم المسلمين من نفع الامير الذي قدم له فرسه، بعد مقتل فرسه في المعركة[١].

كان الملك السعيد يقاتل مع المغول، وكان في القتال أشد على المسلمين من المغول أنفسهم[٢]، وأما صارم الدين أزبك قائد جيش الأشرف موسى، فقد انسحب من صفوف المغول أثناء المعركة[٣]، كما وعد السلطان المظفر قطز في الرسالة التي أرسلها له[٤]، وكما وعده الملك الأشرف موسى أيضاً عندما أرسل له قطز برسالة، طالباً منه العون والِانضمام إليه[٥]، ويروي صارم الدين أزبك انسحابه من المعركة قائلاً: «أخذت عُدتي وصرت قاصد أستاذي»، ويروي صارم الدين وهو منسحب أي قبل وصوله حمص عند الأشرف موسى، وصله خبر هزيمة المغول بكى وقال: «دموعي تجري على خدودي طوفان لأجل ما تم على أهل الإيمان من جنود هذا الجبار الشيطان»، وذهب صارم الدين مسرعاً لأستاذه الأشرف موسى، ليبشره بانتصار المسلمين على المغول، وقال صارم الدين : «فتح الله ونصر هذه الملة المحمدية بالمماليك الترك البحرية، ولم يسلم من التتر من يرد خبر»[٦] .

بناءً على ما سبق يمكن القول بأن انسحاب صارم الدين أزبك الأشرفي من المعركة، قد شكل أحد عوامل النصر للمسلمين، وكل هذا بفضل جهود قطز المضنية في توحيد الجبهة الداخلية الإسلامية، أي انه لم يحاول محاولة أخيرة من الأشرف موسى وجذبه؛ لما انسحب جيشه من المعركة، ولأصبح يقاتل المسلمين بدلاً من خذلان المغول.

قاتل السلطان المظفر قطز، ونائب السلطان فارس الدين أقطاي المستعرب، والملك

---

(١) أنظر تصميم أثر نزول قطز في انقلاب موازين المعركة لصالح المسلمين في ملحق (٩).

(٢) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٥٢.

(٣) أنظر نفس تصميم ملحق رقم (٨).

(٤) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٥٧.

(٥) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٣٠٢.

(٦) قرطاي : تاريخ مجموع النوادر ، ص ١٠٣.

المنصور صاحب حماه، في المعركة وكانوا على رأس الجيش وقاتلوا قتالاً شديداً[١]، كما وأبلى الأمير بيبرس البندقداري بلاءً حسناً، وكان أكثر أمراء المماليك شجاعةً في المعركة، والجدير بالذكر أن الأمير جمال الدين آقوش الشمسي تمكن من قتل قائد المغول كتبغا[٢] ، وكان كتبغا عظيماً عند المغول يعتمدون عليه كثيراً؛ لحنكته، وصرامته، وذكائه، وخبرته في قيادة الجيوش، ولعب مقتله دوراً مهماً في كسر المغول في عين جالوت[٣]، وعندما أسر ابن كتبغا جاؤوا له برأس أبيه، فبكى عليه ابنه وقال للسلطان قطز: «ما معناه نم طيباً ما بقي لك عدو تخاف منه هذا هو كان سعادة التتر به يهزمون الجيوش وبه يفتحون الحصون»، وبالفعل شكل مقتل كتبغا ضربه قاسمه للمغول، وشاهد اليونيني ابن كتبغا بعينه وقال: « كنت رأيته معه (مع ابيه) ببعلبك لما حضر لحصار قلعتها، ثم رأيته بالديار المصرية في سنة تسع وخمسين وقد لبس زي الترك»، وهذا يدل على بعض أسرى المغول أخذهم قطز بعد انتصاره في عين جالوت أصبحوا جزءً من المماليك، بعد أن يعلنوا إسلامهم[٤]، وأعدم بعض الأسرى برؤوس الجبال؛ ليزيد ذعر من هرب منهم، وليخوف من بقي من الشام بهم[٥]، ومن المتوقع بأن يكون قطز قتل أسرى المغول، المتورطين في جرائم ضد المسلمين في بغداد وميافارقين وحلب، وغيرها من البلاد الإسلامية، وأبقى على الصغار في السن، وضمهم إلى مماليكه.

كانت مواجهة المماليك للمغول في العشر الأواخر من رمضان وبالتحديد يوم الجمعة، بشارة عظيمة، والجدير بالذكر أن معركة بدر وقعت في يوم جمعة في شهر رمضان[٦]، وفي ثاني يوم من معركة عين جالوت أي في ٢٦ من شهر رمضان، أرسل المظفر قطز الامير بيبرس البندقداري خلف فلول جيش المغول (المنهزمين في معركتي عين جالوت وبيسان)، فلحقهم على

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٢١.

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٦٨ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٤٨ ، ص ٣٥٥ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣ ، ص ٢١.

(٣) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٤٨ ن ص ٣٥٥.

(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٦٨.

(٥) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٥٢.

(٦) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٦٦.

حمص[١]، وحلب[٢] حتى تمكن بيبرس من إبادتهم، بحيث لم يعود منهم إلى بلادهم مخبر[٣]، وكان هولاكو قد أرسل نجدة لكتبغا، وقد وصلت متأخرة وصادفت تطهير بيبرس لحمص، وكان عددهم ألفين؛ فقاتلهم بيبرس حين وصولهم حمص وتمكن من قتلهم جميعاً، حتى أنه لم يبق منهم أحدا[٤]، ويقول أبو شامه «ومن العجائب أن التتار كسروا وأهلكوا بأبناء جنسهم من الترك»، وقال أبيات من الشعر في ذلك:

غلب التتار على البلاد فجاءهم من مصر تركي يجود بنفسه

بالـشـام اهلكهـــم وبدد شملهـم ولكل شيء آفــة مــن جنسه[٥] .

بناءً على ما سبق يمكن القول بأن بيبرس لعب دوراً رئيساً في مطاردة المغول، فقد بقي في المقدمة، كما كان قبل معركة غزة ومعركة عين جالوت، وتولى مهمة تطهير بلاد الشام من المغول، وكان بيبرس يُفضل دائماً أن تكون له اليد البيضاء، أي البداية في الهجوم على المغول وكان بالفعل مهندس معركة غزة، والكاسر الذي كسر مقدمة المغول في عين جالوت وكان نجم ومهندس المعركة.

أرسل قطز برساله لأهل دمشق، في ليلة القدر السابع والعشرين من رمضان (بعد يومين من معركة عين جالوت) يخبرهم بالنصر، وبمواصلة الزحف إليهم ليخلصهم من المغول[٦]، وكان بدمشق النائب المغولي إيل سبان وعندما وصله نبأ هزيمة المغول، هرب مع أتباعه، وقد شارك أهل بلاد الشام من غزة جنوباً حتى حلب شمالاً مع الأمير بيبرس البندقداري في تطهير بلاد الشام من المغول[٧]، ثم دخل المظفر قطز دمشق في موكب عظيم وجلس للحكم في الميدان وأرسل، بهذه البشارة إلى القاهرة[٨]، ومهد أمور دمشق، وأصلح ما أفسده المغول فيها، وأحسن للرعية، وكانت بلاد الشام قبل دخول قطز إليها مفرقة، بين ملوك الأيوبيين، ويعود الفضل لقطز

---

(١) ابن أيبك ، نظم الدرر ، ج ٨ ، ص ٥٩ ، ٦٠ ؛ ينظر ، أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٥٢.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٢١.

(٣) ابن أيبك ، نظم الدرر ، ج ٨ ، ص ٦٠ .

(٤) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٦١.

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٠٧.

(٦) ابو شامة: الذيل ، ص ٣١٨ ؛ ينظر ، ابن أيبك : نظم الدرر ، ج ٨ ، ص ٥١ .

(٧) أبو شامة : الذيل ، ص ٣١٧.

(٨) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٠٧.

في توحيد مصر وبلاد الشام بعد معركة عين جالوت[١]، وفي يوم دخوله دمشق، أمر بشنق جماعة من المنتسبين إلى المغول، ومنهم حسين الكردي، الذي دل المغول على مكان الملك الناصر يوسف، وبمناسبة دخول قطز للشام، قال بعض شعراء الشام:

هَلَكَ الْكَفْرُ فِي الشام جَمِيعًا وَاسْتُجِدَّ الْإِسْلَامُ بِعَدَدِ حَوْضِهِ

بِالْمَلِيكِ المظفر الْمُلَّكَ الأر وَعِّ سَيْف الْإِسْلَامِ عِنْدَ نُهُوضِهِ

مَلَكٌ جَاءَنَا بِعَـــــزْمٍ وَحُزُمٍ فَـــاِعْتَزَزْنَا بِسُمّـــــرِهِ وَبِبَيْضَتِهِ

أَوَجُبَّ اللَّهُ شُكْر ذَاكَ عَلَينَا دَائِـــــمَا مِثْلُ وَاجِبَاتِ فَرَوْضِهِ [٢].

بعد هزيمة المغول في معركة عين جالوت، جاء الملك السعيد صاحب مدينة بانياس وقلعة الصبيبة، إلى السلطان المظفر قطز متنصلاً فلم يقبله قطز، وقال له : «لولا الكسرة كانت على التتار ما اتيت»، وقال أيضاً: «كان هذا يكون لو حضرت قبل الوقعة، وأما الآن فلا»[٣]، وشهد عليه جماعه من الناس أنه كان يقاتل في المعركة مع التتار ضد المسلمين قتالاً شديداً، وقتل من المسلمين؛ فأمر المظفر قطز بقتله[٤]، ودخلت بانياس وجميع ما كان في يد السعيد من مناطق بيد السلطان قطز[٥]، وأرسل الأشرف موسى صاحب حمص الأمير صارم الدين أزبك والأمير حسام الدين لؤلؤ ليطلبا الأمان للأشرف موسى ؛ فأمنه المظفر ووصل إليه وأكرمه وأقره على ما بيده حمص وضياعها والرحبة وأضاف لهُ تل باشر، لوقوفه إلى جانب المسلمين في عين جالوت[٦]، وكافأ المظفر قطز، السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ بتوليه على نيابة حلب، وكان قطز قد وعده بها عندما دخل مصر في طاعة قطز قبل معركة عين جالوت، وقيام أخيه الصالح بن بدر الدين لؤلؤ بمساعدتهما في القتال ضد المغول[٧].

أكرم السلطان المظفر قطز الملك المنصور محمد صاحب حماه الأيوبي؛ لشجاعته في

---

(١) ابن تغري بردي : مورد اللطافة ، ج ٢ ، ص ٣١.

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٥٢.

(٣) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٦١.

(٤) ابن ايبك : نظم الدرر ، ج ٨ ، ص ٥٢.

(٥) ابن شداد : الأعلاق ، ج ١ ص ٨٦.

(٦) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٥٢.

(٧) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج ١ ، ص ١٤٣ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص ٥٣٦ ؛ ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٠٣.

معركة عين جالوت، وولاة حماة، فأرسل المنصور محمد مملوكة ونائبه مبارز الدين أقوش، إلى حماة، فتبعه الملك المنصور وأخوه الأفضل، وعندما وصل حماة أستقبل أهل حماة وعلمائها استقبال يليق بالأبطال، وقام المنصور باعتقال عملاء المغول وسجنهم، وهنأ الشيخ شرف الدين[١] شيخ الشيوخ المنصور بهذا النصر العظيم، ومدحه بقصيدة، منها:

رَعَّتْ الْعِدَى فَضَمِنْتَ تَلْ عُرُوشَهَا وَلَقْيَتَهَا فَأُخَذَتْ تَلُّ جُيوشِـــــــــهَا

نَازَلَتْ أَمُـــــلَكُ التتار فَأَنْزَلْتَ عَنْ فَحَلِّهَا قَسَرَا وَعَنْ أَكَدِيشِـــــــهَا

فَغَدَا لِسَيْفِكَ فِي رِقَاب كماتهـــا حَصِدَ الْمَنَاجِلُ فِي يَبِيس حَشِيشِهَا

فَقَتْ الْمُلُوكُ مَا تُحَـــــــوِّيهِ إِذْ خُتِمَتْ خَزَائِنُهَا عَلَى مَنْقُوشِـــــــهَا[٢].

كان الناصر يوسف، وأخية الظاهر، وابنه العزيز، والصالح بن الأشرف موسى صاحب حمص موجودين عند هولاكو، في تبريز أسرى يعاملون معاملة حسنة، ولما عاد من سلم من الجيش المغولي الذي كان مع كتبغا نوين، بعد هزيمتهم على يد المظفر قطز، أخبروه بأن مماليك الناصر يوسف الذين انضموا إلى قطز شاركوا في قتال المغول، وأن الأشرف موسى شارك في هزيمة المغول وخذلهم في المعركة، فأمر هولاكو بضرب أعناقهم جميعاً[٣].

بناء على ما سبق يمكن القول بأن السلطان قطز كافأ كل ملك أيوبي بما كان منه، فالسعيد ملك بانياس والصبيبة أمر بقتله؛ لتحالفه مع المغول، وقتاله ضد المسلمين في معركة عين جالوت، وأما الأشرف موسى فقد أكرمه قطز بنيابة حمص وضياعها بيده؛ لدوره الحيوي في أمر جيشه الانسحاب من صفوف جيش المغول أثناء المعركة، وهذا الدور نفذه مملوكهِ وقائد جيشه الأمير صارم الدين أزبك، والذي يزيد أهمية عن مشاركته في القتال مع صفوف المسلمين، وقد قتل الصالح ابن الأشرف موسى؛ لموقف أبيه خذل المغول في المعركة، وولى السلطان قطز المنصور نيابة حماة، و كان في السابق ملكاً عليها، وبذلك يكون قد تغير صفة الأشرف موسى والمنصور، فقد كانا قبل احتلال المغول للشام ملوك، أما بعد معركة عين جالوت وتحقيق الوحدة

---

(١) الشيخ شرف الدين عبد العزين بن محمد بن عبد المحسن بن محمد بن منصور بن خلف الأنصاري الدمشقي، شيخ شيوخ حماة، أقام بحماة مدة طويلة، وصاهر بني المغيزل، وكان له أحفاء علماء، وتوفي سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٤م، الصقاعي : تالي كتاب وفيات الأعيان ، ص ٩٧.

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ، ص ٤٥٢.

(٣) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ج ، ٢٩ ، ص ٢٥١.

بين مصر والشام، أصبحوا نواباً لقطز عن نفس المكان الذي كانوا به حكاماً.

٢- دور الوحدة في تحقيق النصر في معركة عين جالوت:

أ- رفعت الوحدة الداخلية الروح المعنوية عند الجيش وجميع المسلمين، وكانت بشارة خير، بعد الاحباط الذي أُصيبت به الأمه من الغزو المغولي[١].

ب- كان لتشجيع البحرية وزعيمهم بيبرس، دور مهم في تشجيع السلطان قطز في مواجهة المغول[٢] .

ت- تشجع بعض ملوك وأمراء وجند الشام، بمن فيهم من التركمان، والأكراد، والبدو والمماليك الناصرية، وكثير ممن سلم من سيوف المغول من بلاد الشرق، اتفقوا على الدخول في طاعة قطز، بعدما علموا بإتمام الوحدة بين شطري المماليك البحرية والمعزية[٣].

ث- لعب بيبرس في معركة عين جالوت دور كبير في تحقيق النصر، ولو لم تحدث الوحدة لما حل مكانة قائد فذ، يستطيع القيام بالمهام التي اضطلع بها بيبرس، من دوره الاستطلاعي وانتصاره في غزة وقيادته مقدمة الجيش في عين جالوت، إلى تطهيره بلاد الشام من المغول بعد معركة عين جالوت[٤].

ج- أفاد المماليك البحرية السلطان قطز بما لديهم من معلومات جغرافية عن بلاد الشام التي اكتسبوها أثناء تشتتهم في بلاد الشام، وساعدوه في إعداد خطة المعركة، وشجعوه على قتل رسل المغول[٥] .

تاسعاً- مقتل قطز القاتل الحقيقي وأسباب مقتله الحقيقية:

١- الروايات التي تتهم بيبرس :

أ- رواية اليونيني

عندما توجه المظفر قطز إلى جهة مصر، اتفق بيبرس البندقداري مع سيف الدين الرشيدي،

---

(١) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٤٩.

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٣٩.

(٣) قرطاي : تاريخ مجموع النوادر، ص ٩٣ ؛ أبو الفداء : المختصر، ج ١ ، ص ٤٤٩ ؛ الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٢٤.

(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، ج١ ، ص١٣٩.

(٥) قرطاي : تاريخ مجموع النوارد ، ص ٩٣ ؛ الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ المقريزي : السلوك ، ج ١، ص ٥١٥ ، ٥١٦.

وسيف الدين بهادر المعزي، وبدر الدين بكتوت الجوكنداري المعزي، وسيف الدين بيدغان الركني، وسيف الدين بلبان الهاروني وعلاء الدين آنص الأصبهاني على قطز؛ فقتلوه [١] .

ب- رواية أبو الفداء، والنويري:

«لما قرر الملك المظفر قطز المعزي المذكور أمر الشام ... سار من دمشق إلى جهة البلاد المصرية، وكان قد اتفق بيبرس البندقداري الصالحي مع أنص مملوك نجم الدين الرومي الصالحي، والهاروني، وعلم الدين صغن أغلي، على قتل المظفر قطز، وساروا معه يتوقعون الفرصة، فلما وصل قطز إلى القصير بطرف الرمل، وبينه وبين الصالحية مرحلة، وقد سبق الدهليز والعسكر إلى الصالحية، فبينما قطز يسير إذ قامت أرنب بين يديه فساق عليها، وساق هؤلاء المذكورون معه، فلما بعدوا، تقدم إليه أنص وشفع عند الملك المظفر قطز في إنسان، فأجابه إلى ذلك، فأهوى لتقبيل يده وقبض عليها، فحمل عليه بيبرس البندقداري الصالحي حينئذ وضربه بالسيف، واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه ثم قتلوه بالنشاب»[٢] .

ت- رواية ابن الوردي:

«اتفق بيبرس البندقداري الصالحي مع أنص مملوك نجم الدين الرومي الصالحي والهاروني وعلم الدين طغان أوغلي على قتل المظفر قطز وساروا معه يتوقعون الفرصة، فلما وصل إلى القطية بطرف الرمل وبينه وبين الصالحية مرحلة، وقد سبق الدهليز، والعسكر إلى الصالحية قامت أرنب بين يديه فساق وساقوا عليها وأبعدوا فتقدم إليه أنص، وشفع عند قطز في إنسان فأجابه إلى ذلك فأهوى ليقبل يده وقبض عليها، فحمل عليه بيبرس البندقداري وضربه بالسيف واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه، ثم قتلوه بالنشاب في سابع عشر ذي القعدة منها»[٣] .

ث- ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة):

«لما عاد الملك المظفر إلى نحو الديار المصرية والذين اتفقوا معه بلبان الرشيدى وبهادر المعزي وبكتوت الجوكندار المعزي وبيدغان الركنى وبلبان الهارونى وأنص الأصبهانى واتفقوا الجميع مع بيبرس على قتل الملك المظفر قطز وساروا معه نحو الديار المصرية إلى أن وصل الملك المظفر قطز إلى القصير وبقى بينه وبين الصائبة مرحلة ورحل العسكر طالبا الصالحية

---

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٤٣٤.

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٥٣ ؛ ينظر ، النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ٤٥٣.

(٣) ابن الوردي : ج ٢ ، ص ٢٠٣.

وضرب دهليز السلطان بها وأتفق عند القصير أن ثارت أرنب فساق المظفر قطز وساق هؤلاء المتفقون على قتله معه فلما أبعدوا ولم يبق مع المظفر غيرهم تقدم إليه ركن الدين بيبرس وشفع عنده في إنسان فأجابه المظفر فأهوى بيبرس ليقبل يده فقبض عليها وحمل أنص عليه وقد أشغل بيبرس يده وضربه أنص بالسيف وحمل الباقون عليه ورموه عن فرسه ورشقوه بالنشاب إلى أن مات ثم حملوا على العسكر وهم شاهرون سيوفهم» [١] .

ج- ابن تغري بردي (مورد اللطافة):

«لما مهد الملك المظفر أمر الشام عاد إلى جهة الديار المصرية – بعد أمور ذكرناها في غير هذا الكتاب، وسار الملك المظفر، إلى أن وصل إلى القصير رأى أرنبا؛ فساق الملك المظفر خلف الأرنب، وساق وراءه جماعة من الأمراء قد اتفقوا على قتله، وكبيرهم بيبرس البندقدارى ومعه انص الرومي وصنغلي والهاروني وجماعة أخر، فلما دنوا منه ولم يبق عند قطز غيرهم، تقدم إليه بيبرس البندقدارى، وشفع عنده شفاعة؛ فقبلها الملك المظفر قطز؛ فأهوى بيبرس على يده ليقبلها؛ فقبض عليها، وحمل عليه انص وضربه بالسيف، ثم حملوا عليه وقتلوه»[٢].

٢- الروايات التي تبرئ بيبرس من مقتل قطز

أ- رواية للنويري تنفي دور بيبرس في قتل قطز

«إن الأمراء الذين اتفقوا على قتله هم: الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي، والأمير سيف الدين بهادر المعزي – خوشداشه – والأمير بدر الدين بكتوت الجوكندار المعزي، والأمير سيف الدين بيغان الركني ، والأمير سيف الدين بلبان الهاروني ، ومن ذكرنا، وكان الملك الظاهر يدعى أنه هو الذي قتله بيده، وقال جماعة: إنه لم يباشر قتله، وإنما كان يدعى ذلك، افتخاراً»[٣].

ب- رواية قرطاي العزي:

أشار قرطاي العزي بأن القاتل هو الأمير أنص الأصفهاني، وساعده مجموعة من المماليك البحرية ولم يذكر أسماء أحد منهم، وجاء أنص لقطز وهو في الصيد، وقال له: «يا خوند أنت قد كسرت التتر ونصر الله الاسلام علي يدك، وأسأل صدقات السلطان أن تهبني فلانة جارية الملك المعز أيبك التركماني»، فوهبها له، فنزل أنص وقبل الأرض ثم أتى ليقبل يده فمسك يده وصاح

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم ، ج ٧ ، ص ١٠١ ، ١٠٢.

(٢) ابن تغري بردي : مورد اللطافة ، ج ٢ ، ص ٣١.

(٣) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٢٩ ، ص ٣٠٥.

على البحرية الذين معه فقتلوه بالنشاب من بعيد[١] .

ت- يروي بن ايبك – كنز الدرر:

عندما وصل السلطان القصير لاحق أرنب وتبعه الأمراء عز الدين أنص وبكتوت الجوكندار، وبهادر المعزي، وسبق الأمير عز الدين أنص إلى الأرنب واصطاده؛ فأعجب السلطان قطز منه، كونه سبق إلى صيده، وترجل عن فرسه وحصله، وقال له قطز «اسأل ما تريد يا بيك إذا دخلنا مصر» فقال: «يا خوند، الجارية التي أخدها السلطان من سبي التتار»، فقال: «نعم، وعلى جهازها»، فباس الأرض، وتقدم ليقبل يد السلطان، فمسك قايم سيفه بيده الأخرى، وكانت هذه الإشارة بينهم، فضربه بكتوت الجوكندار، ثم ثنى عليه أنص، فرماه عن فرسه، ثم رماه بهادر المعزي بسهم، فقتله، ويروي ابن أيبك: «وقيل ان اول من ضربه كان الامير ركن الدين بيبرس البندقداري ... والله اعلم»[٢] .

ث- رواية ابن العميد:

قال ابن العميد: «فأما الملك المظفر قُطز صاحب مصر لما عاد من الشام إلى الديار المصرية قُتل على منزلة القصير قريباً من الصالحية في أطراف الديار المصرية وذلك أنه لما مضى إلى الصيد في نفر يسير من مماليكه وكان قد اتفق على قتله جماعة من الأمراء، أمراء دولته فركبوا إليه وانتقوه وهو عائد من الصيد فتقدم إليه أنس[٣] الاصفهاني ليقبل يده وكان شديد القوة فقبض على يده، وجذبه فأخرجه من سرج فرسه وتكاثروا عليه، فأرموه عن فرسه وقتلوه يوم السبت الخامس عشر من شهر ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة»[٤] .

ج- رواية اليافعي – مرآة الجنان:

يقول اليافعي :« لما رجع الملك المظفر بعد شهر إلى مصر أضمر شراً لبعض أهل الدولة وآل الأمر إلى أن رماه بهادر المعزي بسهم قضى عليه بقرب قطية»[٥] .

من خلال ما سبق أُرجح رواية اليافعي، التي تشير إلى أن القاتل الرئيسي هو بهادر المعزي

---

(١) قرطاي : تاريخ ، ص ١٠٩ ، ١١٠.

(٢) ابن أيبك ، كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٦١ ، ٦٢.

(٣) جميع المؤرخين أكدوا على ان اسمه أنص وليس أنس، وهو الأصح لأن اسم أنس عربي والمماليك ليسوا عرباً.

(٤) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ٥٥.

(٥) اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ١١٣.

الذي رماه بالسهم؛ وأرجح دور أنص الأصفهاني؛ لأن معظم الروايات التي تشير إلى أن بيبرس القاتل، والروايات التي تشير إلى أخرين غير بيبرس القتلة، كلها تشير بأصبع الاتهام إلى بهادر المعزي وأنص الأصفهاني، وأستنتج ترجيحي هذا للأسباب التي تبرأ بيبرس وتشير إلى بهادر وأنص هي:

- أن قُطز قتل غدراً، والمدقق في سيرة بيبرس يرى بأنه ليس من النوع الذي يغدر، ولو أراد قتل قطز لبارزه مبارزة شريفة.
- ليس جميع القتلة من البحرية فقد كان فيهم بعض المماليك المعزية، وبيبرس لو اراد الثأر والانتقام لقتل بهادر المعزي، قبل قطز.
- أغلب الروايات تتفق بأن القتلة هم أنص الأصفهاني الذي قبض على يده، وبهادر المعزي الذي رماه بسهم، وبكتوت الجوكندار المعزي الذي هجم عليه، وروايات تضيف إليهم بلبان الرشيدى، وبيدغان الركني وبلبان الهاروني، وبعض الروايات تشير إلى مشاركة بيبرس في عميلة القتل، وبعضها تقول يقال أن بيبرس القاتل دون تأكيد، فالعجيب أن المؤرخين المحدثين يلقون بالتهمة على بيبرس فقط!.
- رواية النويري تقول بأن بيبرس لم يقتل قطز، وأدعى أنه القاتل وقد شهد مجموعة على أنه يدعي قتله لقطز، واعتقد بأنه ادعى ذلك ليحصل على السلطنة، وربما لم يكن بيبرس يعلم بأن المصادر التاريخية ستسجل بأنه شارك في قتل قطز.
- هناك علاقة صداقة من مرحلة الصبى بين بيبرس وقطز كما ذكرنا سابقاً، وأعتقد بأن بيبرس متفهم، بأن قطز أقبل على المشاركة في مقتل أقطاي، بضغط أستاذة المعز أيبك.
- ليس بيبرس من النوعية التي تفكر في الثأر في ظل الخطر المغولي الباقي في تهديده، والذي لم يتوقف بعد معركة عين جالوت.

٣- روايات أسباب مقتل قطز، والرد عليها:

أ- روايات تشير إلى أن سبب مقتل قطز هو **الثأر لأقطاي**، كما يروي **ابن خلدون:** «عاد هؤلاء البحرية إلى ديدنهم من الترصد لثار أقطاي»[١]، ويتفق بعض المؤرخين المحدثين مع

(١) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٣٨.

هذه الرواية[1].

من المأخذ على هذه رواية الثأر لأقطاي، أن قتلة قطز ليسوا من البحرية فقط، بل من البحرية والمعزية معاً، والبارزين أكثر في مشهد القتل هم من المعزية، وأبرزهم: بهادر المعزي وبكتوت الجوكندار المعزي، ولو أن البحرية قتلوه وحدهم، وكان هدفهم الثأر لأقطاي، لكان جميع القتلة من البحرية، وقد ذكرنا **بالفصل الأول** أن من قتل أقطاي الجمدار: هم بهادر المعزي، وسنجر الغتمي، وسيف الدين قطز، أي أنهم لقتلوا بهادر المعزي، وسنجر الغتمي أولاً، لأنهما شاركا في قتل أقطاي، والجدير بالذكر بأن قطز قد سَجن بهادر المعزي، وعلم الدين سنجر الغتمي، عند عودتهم من رحلة صيد، عندما قام قطز بخلع علي بن أيبك، وتولى الحكم مكانه؛ ومن الواضح أنهما حقدا عليه في الباطن، وارجح بأن القاتل الرئيسي هو بهادر المعزي؛ لأن قطز قام بسجنه، ولأنه كان يرى نفسه اعلى من قطز، وفي الحقيقة هذه عقدة مقتل بعض سلاطين المماليك، أن أحد الأمراء من ذوي الرتب العسكرية العالية، يعتقد بأنه اكفأ من السلطان؛ فتدخل الغيرة والحقد إلى قلبه، فيتربص بالسلطان، الذي كان أما أنه زميلة، أو أنه كان أعلى منه مكانة في الدولة؛ فيقتله أو ينقلب عليه، خلاصة القول أن سبب القتل ليس كما ذكر ابن خلدون، الثأر لأقطاي، فالخطر المغولي قد أزال الأحقاد التي كانت بين البحرية والمعزية، ويتضح هذا قبل وأثناء وبعد معركة عين جالوت، فقد كان تعاون وانسجام تام بين الكتائب المملوكية، والجدير بالذكر أن معركة عين جالوت لم تكن النهاية للخطر المغولي، فبعد معركة عين جالوت جن جنون المغول، وليس هناك مصلحة للطرفين لبث العداوة والفرقة مرة آخرى، في ظل الخطر المغول، واعتقد بأن قطز افرج عن منافسيه من المماليك المعزية قبل عين جالوت، فبقي حقدهم عليه، وهم من يتربص أولا به، وليس البحرية.

ب-يروي الذهبي وابن تغري بردي، بعد انتصار المماليك على المغول في عين جالوت، كلف قطز الأمير بيبرس، ووعده بنيابة حلب، ثم انثني عزمه على إعطائه حلب، ومنحها، للسعيد علاء الدين بدر الدين لؤلؤ؛ فتأثر ركن الدين بيبرس، وأتفق مع جماعة على قتله[2]، ويتفق

---

(١) العبادي، أحمد مختار: في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص ١٦٢،١٦٣ ؛ قاسم، عبده قاسم وعلي، السيد علي: الأيوبيون والمماليك، ص ١٤١ ، ١٤٢ ؛ طقوش ، سهيل: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص٨٣.

(٢) الذهبي : ج ٤٨ ، ص ٣٥٤ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج ٧ ، ص ١٠١.

معه عدد من المؤرخين المحدثين[١].

وما ينسف رواية ولاية وعد قطز لبيبرس بنيابة حلب سببين، وهما:

- عندما قدم بيبرس على مصر أنزله المظفر قطز دار الوزارة، ومنحه قليوب، وعينه أتابكاً للعسكر(وزيراً الدفاع)، ومنحه صلاحيات أكثر مما تكون لنائب مدينة، وأتابك الجيش يكون الرجل الثاني أو الثالث في دولة المماليك، وله مكانة في الدولة أكثر من مكانة نائب مدينة (الوالي)، فالأتابك يأتي بعد السلطان ونائب السلطنة، ويكون مرشحاً لتولي السلطنة بعد موت السلطان أكثر من أحد الولاة[٢]، واحياناً يتساوى الأتابك مع نائب السلطنة، وليس الوعد بولاية حلب تكريم أو ترقية لبيبرس، بل سيجعله في ذيل الأمراء، بعيداً عن المهام الإدارية والتي مركزها في القاهرة .
- كان قطز قد وعد السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ بنيابة حلب، عندما دخل في طاعة قطز للتصدي للمغول[٣]، فكيف يمنح سياسي محنك مثل قطز، وعداً لشخصين، بإحدى الولايات في نفس الوقت؟، واتهام قطز بأنه وعد بيبرس، هذا يعني أنه أخلف وعده مع علاء الدين بن لؤلؤ، وهذه الرواية فيها إتهام غير مباشر لقطز بالكذب والخداع وضعف الشخصية، وتتهم بيبرس أيضاً بالمتلهف للحصول على ولاية بأي وسيلة، وهذا ما يتنافى مع وصفته عنهم المصادر بأنهما رجلين يمتازان بالنخوة والشهامة والشجاعة.

استشهد قطز، والروايات والأسباب متضاربة حول استشهاده، ومهما يكن الأمر فهكذا شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى، وإن لسان حال الوقائع يشي بأن الأقدار، جاءت بقطز لمهمة محددة، فلما انتهت قُضي أجله، ولم تدم فترة حكم السلطان المظفر قطز سوى أحد عشر شهراً، حقق فيها إنجازاً تاريخياً هائلا، وهو توحيد الجبهة الداخلية للمماليك، وتوحيد الجبهة الإسلامية كلها مصر والشام، ووقف الزحف المغولي؛ ومنعه من الوصول إلى مصر، وحماية شعبها وحضارتها، من إحدى أشرس الهجمات التي تعرض لها المسلمين .

---

(١) ينظر ، حسين ، حمدي : دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، ص ١٦٤ ؛ طقوش ، سهيل : تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ، ص٨٣ ؛ موير ، وليم : تاريخ دولة المماليك في مصر ، ص ٤٥.

(٢) ينظر، ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٤٨ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٣٩ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٤٨ ، ص ٥٩ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٣٠١.

(٣) السلوك ، ج١ ، ص ٥٣٦ ؛ ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٠٣.

الفصل الثاني : **أثر توحيد جبهة المماليك الداخلية في تحقيق النصر على المغول في معركة حمص الثانية عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م**:

- **المبحث الأول: الخلافات بين قلاوون مع بعض أمراء المماليك واستغلال المغول لذلك:**
- **المبحث الثاني –الوحدة ودورها في تحقيق النصر على المغول في معركة حمص الثانية عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م:**

المبحث الأول: الخلافات بين قلاوون مع بعض أمراء المماليك، واستغلال المغول لذلك:

تمهيد:

حقق المظفر سيف الدين قطز إنجازاً تاريخياً هائلاً، بمساعدة بيبرس البندقداري في معركة عين جالوت، فكان إدراكه وإدراك المماليك المتخاصمين معه، أن مواجهة جيش ضخم كالجيش المغولي، لا يمكن أن تتم إلا بتوحيد الجبهة الداخلية للمماليك واستقطاب الشاميين وملوكهم، ونجحت جهود المظفر قطز في توحيد الجبهة الداخلية للمماليك، قبل الدخول في المواجهة الكبرى مع الجيش المغولي، الذي كان يروج لنفسه، بأنه لا يُقهر؛ ونتج عن توحيد الجبهة الداخلية للمماليك، تحقيق النصر في عين جالوت، وكان قُطز وبيبرس نموذجاً يحتذى به لأمراء المماليك خاصة، وحكام المسلمين عامة، وإن دخل المماليك في صراع داخلي بعد وفاة قُطز، وتعرضوا لخطر خارجي جديد، فعليهم توحيد جبهتهم الداخلية، والاستفادة من تجربة قطز وبيبرس.

أولاً- دور الأمير أقطاي المستعرب والسلطان الظاهر بيبرس في الحفاظ على الوحدة الداخلية بعد مقتل المُظفر قطز:

١- دور الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب في إنقاذ الوحدة بعد مقتل قطز:

بعد مقتل قطز جاء الأمراء إلى المعسكر وكان به فارس الدين أقطاي المستعرب[١]، فعقد أقطاي المستعرب اجتماعاً جمع فيه جميع الأمراء المماليك الذين شاركوا في قتل قطز والذين لم يشاركوا، وتشاوروا فيمن يملكونه عليهم[٢]، وكان كبار الأمراء يتطلعون إلى السلطنة ويطمعون بها[٣]، وكان فارس الدين أقطاي المستعرب يستمع لهذا الخلاف الدائر في المجلس، وحسم الأمر في النهاية، وقال: «ينبغي ألا يلي السلطنة إلا من خاطر بنفسه في قتل السلطان وأقدم على هذا الأمر» فقال بيبرس: «أنا قتلته»[٤]، فقدم نائب السلطنة الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب، الأمير بيبرس البندقداري وأعلن بأنه سلطاناً لدولة المماليك[٥]، ثم أخذ المصحف الشريف وبايعه

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٢٠.

(٢) النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٣.

(٣) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٥٠ ، ص ٨٦.

(٤) النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٣.

(٥) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٥٠ ، ص ٨٦.

في الحال[١]، وتلاه الأمير بلبان الرشيدي، والأمير بدر الدين بيسري، والأمير سيف الدين قلاوون، والأمير بيليك الخزندار، ثم بقية الأمراء على طبقاتهم، ورأى فارس الدين أقطاي السرعة وصعود القلعة قبل أن يعلم كبار الأمراء في دولة قطز، ويحدث صراع بين المماليك من جديد، فركبوا مسرعين، وساروا سابقين، وقدَّموا الأمير عزّ الدين أيدَمُر الحلبي ليسبقهم إلى القلعة[٢].

بناءً على ما سبق يمكن القول أن الأمير فارس الدين أقطاي، أنقذ المماليك من بحر الدماء التي كادت أن تسيل بعد مقتل قطز، ومن خلال استماعه للخلاف الدائر بين الأمراء في المجلس، فطن أقطاي بأن هذا الخلاف ربما يتحول إلى صراع جديد بعد مقتل قطز يفتك بهم، كالصراع الذي حدث بعد مقتل أقطاي الجمدار، فسأل سؤال مخيف لا يستطيع أي أحد الإجابة عليه، وهو من منكم قتله؟!، فربما خاف الأمراء القتلة من الإجابة عليه، خوفاً من تعرضهم لعقاب فارس الدين أقطاي، وهو أعلاهم رتبة ومكانة، والرجل الثاني في الدولة بعد قطز، ومن المرجح بأن يكون فارس الدين إختلى ببيبرس قبل الاجتماع، واتفق معه أن يقول بأنه القاتل، عندما يسأل عن القاتل، والحقيقة ليس من المعقول أن يكافأ فارس الدين أقطاي المستعرب شخص قتل قطز بالسلطنة، فمن المعروف أن أقطاي المستعرب رجل خلوق ومخلص، وكان صديق ومقرب جداً من قطز، ولم يفكر فارس الدين أقطاي المستعرب في طلب السلطنة لنفسة، بالرغم من أنه الرجل الثاني في الدولة، حتى لا يزيد الخلاف الذي نشأ بين الأمراء بعد مقتل قطز، واعتقد بأن اختياره لبيبرس سلطاناً، لأنه أقوى أمراء المماليك، ولحنكته العسكرية والسياسية، وكان فارس الدين أقطاي المستعرب، قد شارك إلى جانب قطز في إدارة وقيادة معركة عين جالوت، ولو أنه لم يختر شخص قوي مثل بيبرس في ظل هذا الخلاف القائم، لعاد الصراع المملوكي من جديد، لذلك يعود له الفضل بعد الله في انقاذ الوحدة الداخلية بين بين المماليك.

٢- دور الظاهر بيبرس في الحفاظ على وحدة الجبهة الداخلية للمماليك:

حافظ الظاهر بيبرس من بداية حكمه، على الوحدة الداخلية بين المماليك بعد مقتل قطز، بل عمل على تقوية هذه الوحدة[٣]، من خلال سياسة الترغيب والترهيب مع الأمراء، فأنعم على الأمراء البحرية والمعزية، وقبض على جماعة من المماليك المعزية المتمردين، وسجنهم في

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ٣٠٩.

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٢٠.

(٣) قرطاي: تاريخ مجموع النوادر، ص ٧٩.

الاسكندرية، ودمج البحرية والمعزية، وجعلهم يسمون بالبحرية فقط، وأخلع عليهم رتب الرتب العسكرية حسب كفاءتهم، وكسب الظاهر بيبرس الرعية بالأفعال المرضية؛ فأبطل الضرائب التي فرضها الظاهر بيبرس عليهم قبل عين جالوت[١]، وأرسل الظاهر بيبرس لنواب الشام وهو الأشرف موسى نائب حمص، والمنصور نائب حماة، ومظفر الدين عثمان بن منكوس نائب حصن صهيون[٢]، وإلى علاء الدين بن لؤلؤ نائب حلب، وإلى علم الدين سنجر الحلبي نائب دمشق، وغيرهم من النواب، فدخلوا في طاعته عدا علم الدين سنجر الدين تمرد عليه سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، واستقل بدمشق، ولقب نفسه بالملك المجاهد، وكتب علم الدين سنجر إلى أمراء الشام يستميلهم إليه، فمنهم من دخل طاعته وممن وافقه ظاهراً، وكتب إلى الأشرف موسى نائب حمص، وإلى المنصور صاحب حماة، فرفضا طاعته، وابقيا على ولائهما للقاهرة؛ حفاظاً على الوحدة الداخلية بين مصر وبلاد الشام، ولخوفهما من الظاهر بيبرس[٣].

عندما ذهب الظاهر بيبرس إلى مصر بعد مقتل قطز، حاول مجموعة من الأمراء اغتياله، في بداية سلطنته وهم: بهادر المعزي، وعلم الدين سنجر الغتمي، وبكتوت المعزي، وعز الدين الصيقلي، وبهاء الدين بغدى الأشرفي، ولكن بيبرس كان منتبهاً ومراقبا لهم، واكتشف مؤامرتهم؛ فقبض عليهم وجميعهم من الأمراء المعزية الذين يطمعون بالسلطنة[٤]، وقام الأمير علم الدين سنجر الحلبي بالانفصال نهائيا عن حكم الظاهر بيبرس، وشن حملة إعلامية هجومية ضد الظاهر بيبرس، قال للناس بأن قاتل السلطان الشرعي هو بيبرس، فبايع الناس علم الدين سنجر ملكاً على دمشق[٥].

كلف الظاهر بيبرس أستاذة علاء الدين أيدكين البندقدار الصالحي لقمع ثورة سنجر الحلبي، وتمكن أيدكين البندقدار هزيمة سنجر الحلبي في ١٣ صفر سنة ٦٥٩هـ/١٦ يناير سنة ١٢٦١، وهرب سنجر وأصحابه إلى بعلبك، ولاحقة أيديكين حتى تمكن من القبض عليه، وإرساله للظاهر

---

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٤١ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور، ج١، ق١ ، ص ٣٠٩-٣١٢.

(٢) حصن قوي يقع على ساحل البحر المتوسط، يتبع لمدينة حمص، لكنه يطل بشكل مباشر على البحر، ويقع الحصن على طرف جبل، ويوجد حوله خنادق، وأودية واسعة، وعميقة، وكانت القلعة تحت الاحتلال الصليبي، وحرر على يد صلاح الدين الأيوبي، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٤٣٦.

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٤١ ، ١٤٢.

(٤) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٣ ، ص ٦.

(٥) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٥٤ ؛ النويري : ج ٣٠ ، ص ٢٠.

بيبرس في القاهرة، ورتب أيدكين البندقدار أمور دمشق واعاد الخطبة للظاهر بيبرس، وأصبح نائبا للسلطان فيها[١].

في عام ٦٥٩هـ/١٢٦١م تمرد شمس الدين أقوش البرلي، وعرض على الأشرف موسى صاحب حمص والمنصور محمد صاحب حماة مساعدته فرفضا، وعفى الظاهر بيبرس عن علم الدين سنجر الحلبي، بشرط قمع ثورة البرلي، فوافق، ونجح علم الدين سنجر في طرد البرلي من حلب[٢].

للحفاظ على الوحدة الإسلامية، أستدعى الظاهر بيبرس أحد أفراد الأسرة العباسية سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م، وهو أحمد ابن الظاهر بأمر الله وهو عم الخليفة الشهيد المستعصم بالله وبايعه بالخلافة وابقى دار الخلافة في القاهرة[٣].

الدليل الأول على ضبط الظاهر بيبرس للوحدة الداخلية، هو تحريره لمعظم مدن بلاد الشام من الصليبيين، وتصديه للخطر المغولي، وفتوحاته في بلاد النوبة، وقلعة المعيدين من أعمال برقة والكثير من المدن في شرق وشمال بلاد الشام، والدليل الثاني المنشأة العمرانية التي خلفها الظاهر بيبرس في مصر والشام والحجاز وغيرها، وكان حريصاً على إكرام جنده بالأموال؛ حتى يشجعهم على الجهاد، وليكسب مودتهم وعدم التمرد عليه[٤] .

من أبرز انتصارات الظاهر بيبرس على المغول، في ظل وحدة المماليك الداخلية، كانت في إبلستين[٥]، فكان معين الدين سليمان البرواناه[٦] حاكم دولة سلاجقة الروم، يكاتب الظاهر بيبرس في الظاهر والباطن، ليأتي إليه ويقاتل المغول، وكانت بلاد آسيا الصغرى تحت الاحتلال المغولي، وانطلق الظاهر بيبرس ليقاتل المغول، وكان قائد الجيش المغولي تناون، وفي إبلستين حقق الظاهر بيبرس في يوم الجمعة ١٠ ذي القعدة سنة ٦٧٥هـ/ ١٤ أبريل ١٢٧٧م انتصاراً

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٥٥.

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٤٥٥ ، ٤٥٦.

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣١٢ ، ٣١٣.

(٤) المصدر نفسه ، ج ١ ، ف ١ ، ص ٣٣٩ – ٣٤١.

(٥) أَبلُسْتَيْنْ هي مدينة مشهورة ببلاد الروم (شمال بلاد الشام)، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٧٥ ؛ ينظر ، الحسيني ، محمد مرتضى ، تاج العروس، ج ١٥ ، ص ٣٩٦.

(٦) البرواناه لفظ فارسي معناه الحاجب، وكان معين الدين سليمان حازماً، ذا مكر ودهاء ، أبو الفداء: المختصر، ج ١ ، ص ٤٦٧ ؛ ينظر ، ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢١٧.

ساحقاً على المغول، وقتل الظاهر بيبرس خلقاً كثيراً من المغول في هذه المعركة، وقُتل تناون وغيره من كبار قادة المغول في هذه المعركة، وفتح بيبرس قيسارية[١] عاصمة سلاجقة الروم، واستقبله الأهالي استقبالات يليق به، وخطب للظاهر بيبرس في مساجد آسيا الصغرى، وفي ٢٢ ذي القعدة/٢٦ أبريل غادر الظاهر بيبرس قيسارية بعد أن دخلت تحت حكمه، ولما بلغ أبغا بن هولاكو ما حدث لجيشه في الإبلستين، ذهب إلي مكان المعركة وانصدم من كثرة عدد قتلى جيشه، ومن عدم مشاهدته أحداً مقتول من عسكر المسلمين، وصب غضبه على اهل البلاد وقتل منهم كثيراً ونهب بلادهم، وقتل البرواناه، وقتل اكثر من ثلاثين من خواصه[٢]، وكان عدد قتلى المغول في معركة إبلستين ستة آلاف وسبعمائة وسبعين في المعركة فقط، وقتل عدد كبير من المغول خارج المعركة[٣] .

من خلال ما سبق يتبين أن بيبرس كان حذراً جداً من الأمراء الذين دائماً يحيكون المؤامرات، فلم يقع في نفس الخطأ الذي وقع به أقطاي الجمدار، والمظفر قطز، والجدير بالذكر أن الامير علم الدين سنجر الغتمي شارك في اغتيال أقطاي الجمدار، وشارك الأمير بكتوت في اغتيال قطز، والبارز دائما في عمليات اغتيال الأمراء الكبار والسلاطين هو بهادر المعزي، فقد شارك في اغتيال أقطاي الجمدار وشارك في اغتيال المظفر قطز، وجميع الأمراء الثلاثة بهادر المعزي، وسنجر الغتمي، وبكتوت، حاولوا اغتيال بيبرس بمشاركة أمراء جدد، والواضح أن مشاركة بهادر المعزي الأخيرة في محاولة اغتيال الظاهر بيبرس الفاشلة، تدل على أنه المتهم الأول والرئيسي في قتل السلطان المظفر قطز، وليس كما يقال بأن بيبرس هو المتهم الرئيسي، ويبدو أن الحملة الاعلامية التي شنها علم الدين سنجر في دمشق، ضد الظاهر بيبرس أثناء تمرده عليه، ورميه بالشائعات منها قتل قطز، ليفض الناس عن الظاهر بيبرس، وربما تصديق أهل دمشق لما قاله سنجر، مع الزمن انتقل من أفواه الدمشقيين إلى أقلام المؤرخين، وما يميز الظاهر بيبرس عن غيره من سلاطين المماليك في الحفاظ على الوحدة الداخلية، أنه في القضاء على الثورات الداخلية، وسجن المتمردين، والعفو عن بعضهم، وبفضل حزمه وشدته، وخبرته

---

(١) مدينة قيصرية، وهي منسوبة إلى قيصر وتسمى قيسارية، وهي مدينة مهمة في آسيا الصغرى، ويحدها من الشرق سيواس ، ابن سعيد المغربي : الجغرافيا ، ج ١ ، ص ٦١.

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٦٦ ، ٤٦٧ ؛ ينظر ، ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢١٧.

(٣) النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٢٣٠.

الواسعة في التعامل مع خصومه، تمكن ثبيت الوحدة الداخلية وضبطها تماماً، وانعكست الوحدة الداخلية في عهدة في الفتوحات والانتصارات الكبيرة التي حققها على الصليبيين والمغول، والشيعة الإسماعيلية، وغيرهم وتمكن أيضاً بفضل الوحدة الداخلية من توسيع حدود دولته حتى الأناضول.

ثانياً – سلطنة بركة وسلامش ابناء الظاهر بيبرس وخلعهما:

توفي الظاهر بيبرس في ٢٧ محرم سنة ٦٧٦هـ/ ٢١ أبريل سنة ١٢٧٨م، وبعد وفاته تولى ابنه السعيد بركة[١] الحكم، فقرب السعيد بركة الأمراء الصغار، وأبعد عنه الكبار، وفي سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م خرج عليه بعض أمراء المماليك وحاصروه في قلعة الجبل، وطالبوه بأن يخلع نفسه والا قتلوه، وقد خذله مماليكه ونزلوا واحداً تلو الأخر من القلعة، فرضي أن يخلع نفسه حقناً للدماء، وقبل بمُلك الكرك، وسار في ربيع الأول سنة ٦٧٨هـ/ يوليو ١٢٧٩، وتسلمها بما فيها من الأموال، واتفق الأمراء على تعيين الطفل بدر الدين سلامش بن بيبرس وأقاموه سلطاناً، ولقبوه بالملك العادل وعمره سبع سنين، وصار الأمير سيف الدين قلاوون نائب السلطنة والمدبر لشؤون الدولة، والوصي على العرش[٢]، ولم يكن للطفل سلامش سوى الصورة، وتم توليته؛ لتسكين ثورة المماليك الظاهرية، التي انفجرت بعد خلع السعيد بركة، وكان المماليك الظاهرية معظم عسكر الديار المصرية[٣] وأشار بعض الأمراء على الأمير سيف الدين قلاوون بخلع سلامش، ففعل، وأرسله إلى الكرك، وأقام بها[٤]، وكانت مدة سلطنة سلامش خمس شهور وأياماً، وهو أخر من تولى السلطنة من ابناء الظاهر بيبرس[٥].

يستنتج مما سبق أن السعيد محمد بركة بن بيبرس كان طيباً، لكن لم تكن فيه صفات أبيه، وهي الحزم والقوة، والخبرة والدهاء السياسي والعسكري، لذلك طمع به الأمراء وخلعوه، وتولية أخيه

---

(١) الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة ابن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، ولد بالعر من ضواحي القاهرة سنة ١٢٦٠/٦٥٨ (نفس السنة التي حدثت فيها معركة عين جالوت)، وكان عمره عندما تولى السلطنة ١٧ عام، وكان ملكاً جليلاً كريماً، سخي الكف، كثير العدل، محسناً إلى الخاص والعام، لا يرد سائلاً، ولا يخيب آملاً، ولا في خلقه عسف ولا ظلم، كثير الشفقة على الفقراء والمحتاجين، وكان يتفقدهم بنفسه ويحسن إليهم ، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج٢ ، ص ١٩.

(٢) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ٦٣ – ٦٩ ؛ ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢١٨ – ٢٢٠

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٩.

(٤) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ٦٩ ، ٧٠.

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٤٧.

الصغير مكانه طامعين بالحكم، خاصة أن دولة المماليك دولة عسكرية، وان لم يكن للسلطان هيبة وقوة قُتل أو خُلع من قبل الامراء، وقد تم لهم ذلك عندما وضعوا الطفل سلامش بن بيبرس مكان أخية السعيد، وهذا بداية حدوث خلل في الوحدة الداخلية التي بناها قطز وبيبرس، وعودة للاضطرابات والصراع الداخلي بين المماليك.

ثالثاً– سلطنة المنصور قلاوون والقبض على المعارضين من المماليك الظاهرية:

تولى الأمير سيف الدين قلاوون السلطنة، ولقب الملك المنصور، وكان جلوسه على عرش الدولة المملوكية، بعد خلع العادل سلامش بن بيبرس في شبعان سنة ٦٧٨هـ/ ديسمبر ١٢٧٩، ولما جلس رتب قواعد الدولة، والقى القبض على بعض أمراء المماليك الظاهرية، المعارضين لخلع ابناء الظاهر بيبرس، وأنعم على المماليك البحرية الصالحية وأحسن إليهم، وحافظ على الوحدة الداخلية بين المماليك، وخلع على من يستحق الامارة، ورتب النواب بالقلاع والحصون، ورفع جماعة من زملائه البحرية، ومنهم شمس الدين سنقر الأشقر[١]، وبيبرس العلائي[٢]، وسنقر الرومي، وسكز، وبلبان الكريمي، وغيرهم[٣] .

اشترط المنصور قلاوون على أولاد الظاهر بيبرس الا يتعرضون إلى بلاد غيرها، واجتمع إلى أولاد الظاهر بيبرس الكثير من مماليك أبيه (المماليك الظاهرية)، ومن هرب إليهم من الديار المصرية، وأخذ أبناء الظاهر بيبرس الشوبك والصلت[٤] حتى وسعوا مملكتهم في كل بلاد

---

(١) شمس الدين سنقر الأشقر، اشتراه تاجر اسمه الشمس العذار، ثم باعه، فتنقل عنه إلى أن اتصل بالمظفر قطز وهو صغير السن، وكان صديقاً لبيبرس البندقداري، ومرافقه في فترة تشتت المماليك البحرية، وأُسر الأشقر عندما أحتل المغول الشام، وبقي أسيراً عندهم، حتى أخرجه الظاهر بيبرس، في صفقة تبادل أسرى، حيث أشترط على هيثوم صاحب سيس الصليبي أن يخرج الأشقر من السجن، مقابل الأفراج عن ابنه ليفون الأسير لدى الظاهر بيبرس، فتمت الصفقة، وخرج الأشقر من السجن، في سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م، وأصبح من كبار الأمراء في دولة الظاهر بيبرس، اليونيني : ذيل مرآة الزمان، ج٢ ، ص ٤٥ ؛ أبو الفداء: المختصر ، ج ١ ، ص ٤٧٤ ، ٤٦٤ ؛ ينظر ، ابن شداد : تاريخ الملك الظاهر ، ج ٣١ ، ص ٢٩٠.

(٢) الأمير بيبرس العلائي أحد الأمراء الذين كان تواجدهم كثيراً في دمشق، وتولى نيابة غزة، ثم نيابة حمص، وأصبح حاجباً بدمشق سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٥م، ومات بالكرك سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٤ ، ص٤٩.

(٣) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ٧٠.

(٤) مدينة من الأردن، وفيها جبل السلط، وهو جبل شرقي جبل عوف، كان أهله عصاه، حتى بنى المعظم عيسى بن العادل حصن السلط فدخلوا الطاعة، وبقيت المدينة محصنة في العصرين الأيوبي والمملوكي، القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٩٠.

البلقاء[١]، كثر أتباع السعيد بركة في الكرك، بسبب كرمه معهم، واستطاع بركة جمع قوة كبيرة حوله[٢]، وراسل نواب الشام ليدخلوا في طاعتهم، ولما راسلوا نائب دمشق عز الدين أيدمر الظاهري، ليدخل في طاعتهم، أرسل المنصور قلاوون الأمير شمس الدين سنقر الأشقر إلى دمشق؛ لمنع ابناء الظاهر بيبرس من إكمال مخططهم[٣].

قام المنصور قلاوون بدس السم للسعيد بركة وتخلص منه[٤]، وهناك رواية أخرى تجزم أنه خرج للصيد، فتقنطر من على فرسة ثم مات متأثراً بإصابته[٥]، وكانت وفاة السعيد بركة في ١١ ذي القعدة سنة ٦٧٨هـ/ ١٣ مارس سنة ١٢٨٠م [٦]، ودفن في دمشق في مقبرة أبيه، واتفق المماليك في الكرك بتولية أخاه نجم الدين خضر، ملكاً على الكرك ولقبوه بالملك المسعود[٧] .

قبض جمال الدين أقوش الشمسي نائب حلب، على عز الدين آيدمر الظاهري نائب دمشق[٨]، وأرسله إلى المنصور قلاوون، فاعتقله بقلعة الجبل[٩]، وأصبح جمال الدين أقوش مدبر أمور دمشق مؤقتاً، وكان الأمير شمس الدين سنقر الأشقر في طريقه إلى دمشق ليستلمها من أقوش الشمسي[١٠].

يتضح مما سبق بأن قلاوون رتب دولته، ووضع القادة المخلصين له، وكان من أقوى الشخصيات المؤهلة لحكم الدولة، لذلك لم يقدم أي شخص على منافسته على الحكم، بالرغم من طمع كثير من الأمراء في السلطنة، ولكن نواياهم غير ظاهرة، واعتقد أن سبب عدم إظهار نواياهم، هو ولاء الجيش المملوكي التام لقلاوون.

رابعاً- تمرد سنقر الأشقر واعلان استقلاله بملك بلاد الشام:

وصل سنقر الأشقر إلى دمشق في جمادى الآخرة سنة ٦٧٨هـ/١٨ أكتوبر ١٢٧٩م، وتولى

---

(١) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ٧٠.
(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج٢ ، ص ١٩.
(٣) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ٧٠ ، ٧١.
(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج٢ ، ص ١٩.
(٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٤ ، ص ١٥٨.
(٦) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج٢ ، ص ١٠.
(٧) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص٤٧٠.
(٨) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٢٧.
(٩) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ١٠.
(١٠) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٦٩.

نيابتها، وشرع في تسلم القلاع من يد النواب الظاهرية، وترتيب النواب المنصورية[١]، ويدعي ابن إياس الأمير سنقر الأشقر أنه كان مجرماً، وفيه جهل زائد؛ فأبعده المنصور قلاوون إلى الشام واغراه بنيابة دمشق؛ ليكفى شره[٢]، وفي ٢٤ ذي القعدة سنة ٦٧٨هـ/ ٢٦ مارس ١٢٨٠م أعلن الامير الأمير شمس الدين سنقر الأشقر في دار السعادة بدمشق بعد صلاة العصر استقلاله عن مصر، ومعه جماعة من الامراء، وهم رجالة، وبايعه الأمراء والجند ومن حضر وتلقب بالملك الكامل، ونادى المنادي بالمدينة بسلطنته واستقلاله، وفي اليوم التالي ٢٥ ذي القعدة سنة ٦٧٨/٢٧ مارس ١٢٨٠م، دعا سنقر القضاة والعلماء ورؤساء البلد واكابره واعيانه إلى مسجد أبى الدرداء رضى الله عنه بقلعة دمشق، وبايعه بقية الأمراء والعسكر، وفي ٢٧ ذي القعدة سنة ٦٧٨هـ/ ٢٩ مارس ١٢٨٠[٣]، وشن سنقر الأشقر حملة إعلامية ضد المنصور قلاوون، وصدقة كثير من الأمراء والناس[٤]، فأوهمهم أن المنصور قلاوون قد قام بوضع السم للظاهر بيبرس في القمز[٥] وقتله[٦]، ومن الأمراء الذين انضموا إلى سنقر الأشقر: الحاج أزدمر[٧]، وقراسنقر المعزي، ولاجين الزيني، وآقوش السعدي، وبكجا العلائي، وكانوا نيفاً عن ستين أميراً[٨]، وسجن

---

(١) العيني : عقد الجمان ، ج١ ، ص ١٦٨.

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٤٨.

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج٢ ، ص ١٠.

(٤) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٤٢ ، ص ١٧٨ ، ١٧٩.

(٥) القمز هو اللبن الرائب (اللبن المخمر)، كان المماليك يقطعون اللحم قطعا صغيرة ثم يقومون بطبخة، ثم يجعل لكل رجل نصيبه في صحيفة، ويصبون عليه اللبن الرائب ويشربونه، ويشربون معه لبن الخيل ويسمونه القمز، ابن بطوطة : تحفة النظار،ج١، ص٣٥٩

(٦) بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ ؛ المقريزي : السلوك ج ٢ ، ص ١٢٧ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ١٦٨.

(٧) الأمير الحاج عز الدين ازدمر بن عبد الله الجمدار، أحد كبار أمراء المماليك، وكان من فرسان المماليك وشجعانهم، ولما تولى المنصور سيف الدين قلاوون الحكم، زاد إقطاعه، ولما قدم الأمير شمس الدين سنقر الأشقر إلى دمشق لازمه واختص به، وكان يأخذ برأيه، ولما تمرد الأشقر وأستقل بدمشق، جعل الحاج أزدمر نائباً له، وقاتل أزدمر مع سنقر الأشقر ضد قلاوون، ولما أنهزم الأشقر، توجه أزدمر إلى الجبال، وأقام بها مدة، ثم اتصل بسنقر الأشقر، وأقام بقلعة شيزر ، وبقى عند سنقر الأشقر ، وقاتل بشجاعة ضد المغول في معركة حمص الثانية في ١٤ رجبة سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م، وأبلى بلاء حسناً، واستشهد في المعركة مقبلاً غير مدبر ، بظاهر حمص، ودفن بجوار قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه، وعمره نحو ستين سنة، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٥.

(٨) قرطاي : تاريخ مجموع النوادر ، ج ١٧٣.

الأشقر الأمراء الذين لم يبايعوه، ومنهم حسام الدين لاجين السلحدار، وركن الدين بيبرس العجمي الجالق[١][٢]، وعمل الأشقر على توسيع دولته جنوبا حتى غزة، وأرسل سنقر جيشه لضم غزة، وكان بها طائفة من جيش المنصور قلاوون، مقيمين استعداد للهجوم على الكرك وفيها ابناء الظاهر بيبرس، فنجح جيش سنقر الأشقر من الاستيلاء على غزة، وضمها لسنقر الأشقر، لدفع من يتطرق إلى الشام من مصر، ثم شن عسكر المنصور قلاوون المنهزم من غزة هجوماً سريعاً ومفاجئاً، على عسكر سنقر الأشقر، ونالوا منهم، وأخرجوهم من غزة، حتى رجع عسكر سنقر الاشقر إلى مدينة الرملة[٣]، وكان سنقر يقترب من العامة ويمشي أمامهم مع الأمراء ويسير لهم بيده، وكانوا يدعون له كثيراً[٤].

بناءً على ما سبق يمكن القول بأن الفتنة عادت مرة أخرى بين المماليك، منذ تولي قلاوون السلطنة، وهذا التمرد الذي قام به سنقر الأشقر ليس تمرد يمكن إخماده بسهولة وسرعة، لكنه استقلال تام عن مصر، ومما يزيد الأمر سوأً هو أن تمديد الأشقر نفوذه حتى أقصى جنوب فلسطين، وبذلك انفرط عقد الوحدة بين مصر وبلاد الشام، ووجب على قلاوون استخدام، السياسة في إعادة الوحدة، وإن فشلت عليه الإسراع بالحسم العسكري؛ حتى لا تتدهور الأمور سوأً، خاصة أن الخطر المغولي قائم، ويهدد البلاد، بالإضافة للخطر الصليبي.

خامساً – انضمام أمراء العرب والشام والمماليك الظاهرية إلى سنقر الأشقر:

قدم أمير العرب عيسى بن مهنا، إلى سنقر الأشقر في ٥ محرم سنة ٦٧٩هـ/ ١ مايو ١٢٨٠م، ودخل في طاعته، فبالغ سنقر الأشقر في إكرامه، وأجلسه إلى جانبه[٥]، ثم قدم الأمير شهاب الدين أحمد بن حجي بن يزيد[٦] ملك العرب في بلاد الحجاز في ١٠ محرم سنة

---

(١) بيبرس الجالق الصالحي العجمي، كان أميراً في زمن الصالح نجم الدين أيوب، وفي سلطنة الظاهر بيبرس، وتوفي في القدس، في جمادى الأولى سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧، وهو آخر من بقي من الأمراء الصالحية، وكان شجاعاً، حضر عدة معارك، وكان يبلي بلاء حسناً فيها(ابن حجر : الدرر الكامنة، ج ٢ ، ص ٤٩)، الجالق كلمة تركية تعني الفرس الحاد المزاج، (ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٧).

(٢) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ١٨٢.

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج٢ ، ص ٢٠.

(٤) ابن أيبك : كنز الدُرر ، ج ٨ ، ص ٢٣٥.

(٥) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٥٠ ، ص٤٤.

(٦) الأمير شهاب الدين أحمد بن حجي بن يزيد، أمير آل مري ، وكانت وفاته ببصرى سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م،

٦٧٩هـ/٦ مايو ١٢٨٠، ودخل في طاعة سنقر الأشقر، فأكرمه غاية الإكرام[١].

دفع الكامل سنقر الأشقر أموالاً كثيرة لأنصاره، وأجبر الحلبيين، واجبر المنصور صاحب حماة في محرم ٦٧٩هـ/ مايو ١٢٨٠م، على الانضمام إليه، وانضم إليه القاضي المؤرخ شمس الدين بن خلكان[٢]، وانضم إليه عدد كبير من رجال بعلبك[٣]، وكاتبه عدد من المماليك الظاهرية، وانضم إليه عدد قليل منهم[٤]؛ بسبب تضييق المنصور قلاوون عليهم[٥]، وكانت العلاقة بين سنقر الأشقر والمسعود نجم الدين خضر بن بيبرس ملك الكرك علاقة سلمية جيدة، وكان بينهم مراسلات، ضد المنصور قلاوون، لكن لم ينضم أي منهما للأخر[٦].

سادساً – استعدادات المنصور قلاوون لمواجهة سنقر الأشقر:

لما بلغ المنصور قلاوون ما وقع لعسكره بغزة من قبل عسكر سنقر الأشقر جهز جيشاً كثيفاً لقتال سنقر الأشقر[٧]، وكتب لكل أمير أتبع سنقر الأشقر بدمشق رسالة خاصة، ومما جاء في رسالته: «لا تخالفوا الأمير شمس الدين، وفي هذا الوقت لا يمكن إلا طاعته، وأنا أُسَيرُ لكم من جهتي من أثق به أنا وأنتم، فامشوا تحت ظل سنقر الأشقر، فإذا وقع سيف أو حرب فلا يَسل أحدٌ منكم سيفا»، وجهز المنصور قلاوون لمواجهة سنقر الأشقر عشرة آلاف فارس من خيار عسكر المماليك في مصر، بقيادة أميرين وهما عز الدين أيبك الأفرم، والأيدمري، وكانا من خوشداشية المنصور قلاوون، من المماليك الصالحية، وعندما وصل هذين الأميرين غزة اختلفا، وأرسل عز

وكانت غاراته تنتهي إلى أقصى نجد والحجاز، وأكثر زعماء نجد والحجاز يؤدون إليه إتاوة في كل سنة ، فمن قطعها منهم أغار عليه، وكان يدعي أنه من نسل جعفر البرمكي، من العباسة أخت الرشيد، وكان يدعي أنه تزوجها ورزق منها أولاداً، ولما جرى على البرامكة ما جرى، هرب أولاده منها إلى البادية ، فأحدهم جده ، والله أُعلم . وكان يقول للقاضي شمس الدين بن خلكان البرمكي ، أنت ابن عمي . وكانت بينهما مهاداة، وانتفع ابن خلكان به وباعتنائه ، عند السلطان، وكان له مكانه عالية عند الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٧٣؛ النويري : نهاية الأرب،ج ٣١، ص٧٥، ٧٨.

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٢٠.

(٢) شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان الشافعي، وهو قاضي ومؤرخ، وأشهر كتبه وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ١٩.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٠ ، ٢٩١ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٥.

(٤) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٢٨.

(٥) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ٧٠ ، ٧١.

(٦) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٥٤.

(٧) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٥.

الدين أيبك الأفرم رسالة للملك المنصور ومما جاء : «أنا والأيدمري كلمتان مختلفان (كذا!) وكل منا يتعاظم على صاحبه، فابعث لنا من هو أكبر منا سناً وقدراً، ونكون تحت طاعته ونمتثل أمره وما يأمر به»، ولما وقف قلاوون على كتاب الأفرم، طلب الأمير علم الدين سنجر الحلبي، وقال له «أنت أنا وأنا أنت»، ورفع مكانته في الدولة، وجعل له صلاحيات كصلاحيات الملك، وسار علم الدين سنجر من مصر الي الشام[١]، في أواخر محرم سنة ٦٧٩هـ/أواخر مايو ١٢٨٠م[٢]، وعندما وصل لم يعبر الأفرم والأيدمري، وكان سنقر الأشقر ينظر للأفرم والأيدمري أنهما لا شيء، ولما بلغه أن القائد أصبح علم الدين سنجر الحلبي، خاف سنقر الأشقر كثيراً وأرتبك جيشه، وكتب المنصور قلاوون كتاباً ثانياً لأمراء دمشق وصاحب حماة: «إنكم تعلمون أن عسكر الشام ليس له قدرة بعسكر مصر، وأنا أعلم أنكم ما وافقتم الأمير شمس الدين طاعة له، ولكن خفتم الفتنة، فامشوا تحت طاعته، وامتثلوا ما يأمركم به، فقد سيرتُ إليك أكبر خوشداشيتي وأكبر مني، فإذا التقا العسكران لا يجذب أحد منكم سيفا، والله الموفق إن شاء الله تعالى» [٣] .

سابعاً- معركة الجسورة بين المنصور قلاوون وحلف سنقر الأشقر عام ٦٧٩هـ/١٢٨٠م:

عندما وصل علم الدين سنجر مدينة الرملة انسحب منها عسكر سنقر الأشقر، وبدأ يتراجع كلما تقدم عسكر علم الدين سنجر، حتى وصل أطراف دمشق في أوائل صفر سنة ٦٧٩هـ/ أوائل يونيو ١٢٨٠م، وبالتزامن مع وصوله خرج سنقر الأشقر بنفسه في ١٢ صفر سنة ٦٧٩/ ١٢ يونيو ١٢٨٠م، مع الحلف الذي كونه، وضرب دهليزه بالجسورة[٤] وخيم فيها، بجميع الجيش وأنفق عليهم الأموال، وحضر معه المماليك الظاهرية، والأميرين ابن مهنا وابن جحى، وجاء معه عسكر من حلب، وعسكر حماة بقيادة الأفضل نور الدين علي أخو المنصور صاحب حماة، وأنضم إليه رجال من جبال بعلبك، ورتب سنقر الجيش والأطلاب بنفسه، وصف الجيش ميمنة وميسرة، مستعداً لمواجهة جيش قلاوون[٥] ، لكن لم يكون كل حلفاءه معه في الباطن، بل كان

---

(١) قرطاي : تاريخ مجموع النوادر ، ص ١٧٣ ، ١٧٤.

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٥٠ ، ص ٤٥.

(٣) قرطاي : تاريخ مجموع النوادر ، ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٤) الجسورة بين الكسوة ودمشق، (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٣٨) ، والكسوة هي قرية أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر، وسميت بذلك لأن غسان قتلت بها رسل ملك الروم لما أتوا إليهم لأخذ الجزية منهم واقتسمت كسوتهم ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٦١.

(٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٥ ، ٢٩٦.

كثير منهم عليه، وبعضهم جاء من أجل الحصول على الأموال[١]، وقام علم الدين سنجر بترتيب العسكر المصري أيضا بترتيب هائل، وعساكر كثيرة والأطلاب أيضا مرتبة[٢]، وفي ١٤ صفر سنة ٦٧٩هـ/ ١٤ يونيو ١٢٨٠م أرسل سنقر الأشقر خزائنه وعائلته مع أستاداره[٣] إلى قلعة صهيون[٤]، وكان عدد جيش سنقر الأشقر اثني عشر ألفا[٥].

أعد سنقر الأشقر حيلة ذكية أراد بها إرباك علم الدين سنجر، وهي أنه قرر مع البدو الذي معه، أن يقاطعوه ساعة الملتقى مع جيش مصر، ويلتفون عليهم من الخلف، ويضعوا أيديهم في نهب الأثقال والغلمان والجمال، ليقنوا إليهم عنانهم فيركب أكتافهم، ففعل العرب ما أوصاهم وجاؤوا من ورائهم وشرعوا في النهب في العسكر المصري، وقالوا لقائدهم لعلم الدين سنجر، «قد نهبت الأثقال والقماش»، واحترز الحلبي من الخطة، وأخذ حذره؛ لأنه قائد محنك مارس الخطوب وباشر الحروب وشهد المواقف، وعمل على افشال خطتهم، وقال لجيشه: «لا تلتفوا اليهم ولا تعوجوا عليهم وشأنكم ومن قدامكم فأنا إذا هزمناهم استرجعنا الذي لنا، وغنمنا الذي لهم»، فأطاعوه، وينصح المؤرخ بيبرس المنصوري القادة العسكريين أن ينتبهوا من الوقوع في الحيل، وقال بيبرس المنصوري «هذا تدبير ينبغي لم يتقدم على الجيوش أن يحكمه ولمن يمارس الحروب أن يفهمه»[٦].

وتعقيباً على ما سبق يمكن القول بأن المنصور قلاوون، أحدث خللاً في التوازن العسكري في جيش سنقر، من خلال مراسلته للأمراء الذين معه، وحضهم على الانسحاب من المعركة، واقتناع كثير من الامراء بما عرضه عليهم قلاوون، سيحدث اضطراب في جيش سنقر في المعركة، ومن الواضح أن عقلية أمراء المماليك العسكرية ناضجة، وخبرتهم في علوم وفنون

---

(١) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٥٠ ، ص ٤٥.

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٦.

(٣) الأستادار لقب مملوكي يطلق على القائم على الشؤون الخاصة للسلطان، والأستادارية وظيفة موضوعها التحدث في أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ، والشراب خانة، والحاشية، والغلمان، ويمشي صاحبها يُطلب السلطان (الطُلب: الكتيبة من الجيش، فارسية الأصل)، ويحكم في غلمانه وباب داره، وله حديث مطلق وتصرف تام في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكسوة، وما يجري مجرى ذلك للمماليك وغيرهم ، دهمان ، محمد: مُعجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص١٤،١٥.

(٤) ابن أيبك : كنز الدُرر ، ج ٨ ، ص ٢٣٢.

(٥) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ج ١ ، ص ٢٨٦.

(٦) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ١٨٣.

القتال في العصور الوسطى، وفي الحقيقة خطة سنقر الأشقر ذكية من خلال تظاهر البدو بجمع الغنائم، ولكن دهاء سنجر الحلبي قد قلب الخطة على رأس صاحبها، عندما تركهم سنجر الحلبي يجمعون الغنائم دون مهاجمتهم، والواضح أن أمراء المماليك، كان لهم دراية واسعة بالحيل الحربية، لا يعرفها كثير من الجيوش في العصور الوسطى.

التحم الجمعان في ١٥ صفر سنة ٦٧٩هـ/ ١٥ يونيو ١٢٨٠م[١] في الجسورة في النهار، وقاتل سنقر الأشقر فيها بنفسه وثبت ثباتاً جيداً أول المعركة[٢]، وهذا الثبات؛ بسبب قتال سنقر الأشقر بنفسه، ولم يقتل من الطرفين سوى عدد قليل، وأما الجراح فكانت كثيرة، وفي بداية المعركة انسحب عسكر المنصور صاحب حماة من صفوف جيش سنقر؛ لأنه دخل مجبراً على هذه الحرب[٣]، ودخل جيش حماة وحلب في صفوف جيش المنصور قلاوون[٤]، وتخاذل كثير من الشاميين على سنقر الأشقر، وانسحب بعضهم إلى بساتين دمشق واختفى بها، ومنهم من دخل مشق راجعاً إلى بعلبك[٥]، ومنهم من أنضم لجيش المنصور قلاوون، ولم يبقى سوى عدد قليل من الجند[٦]، فلم يلتفت سنقر لمن ذهب منه من العساكر، وأدى إلى انسحاب كثير من جيشه، إلى أضعاف أمره، وبالرغم من ذلك استمر يقاتل بنفسه مع مماليكه، ولم يثبت معه سوى الأمير عيسى بن مهنا، ولما رأى الأمير عيسى بن مهنا الهزيمة، أشار عليه الانسحاب، فأنسحب وأخذه عيسى بن مهنا إلى الرحبة[٧] وأنزله عنده ونصب له بيوت الشعر، وأختار له أكثر الأماكن أماناً وبعداً عن جيش المنصور قلاوون[٨]، وعندما جاء سنقر يريد الاستيلاء على قلعة الرحبة، امتنع نائب القلعة الأمير موفق الدين خضر الرحبي، من تسليم القلعة إليه[٩]، وأما الأمير شهاب الدين

---

(١) ابن أيبك : كنز الدُرر ، ج ٨ ، ص ٢٣٢.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩١ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٥٠ ، ص ٤٥.

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٦.

(٤) ابن أيبك : كنز الدُرر ، ج ٨ ، ص ٢٣٢.

(٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٦.

(٦) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٥٠ ، ص ٤٥.

(٧) الرحبة مدينة تقع غرب الفرات في الجانب الشامي، وتشتهر بكثرة الفواكه فيها ، ابن سعيد المغربي: الجغرافيا، ج ١ ، ص ٤٣.

(٨) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٦.

(٩) النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص١٣.

أحمد بن حجى، فقد دخل إلى دمشق بالأمان، في طاعة الملك المنصور قلاوون[١]، وأطبق علم الدين سنجر حصاراً على دمشق، ونزل خيام عسكر سنقر الأشقر المنهزم[٢].

دخل جيش المنصور قلاوون دمشق، ونزل الأمير علم الدين سنجر الحلبي بالقصر بالأبلق، بالميدان الأخضر، وكان معه صلاحيات التولية والعزل، فرتب أمور دمشق، وأعتقل عدد من الأشخاص، وهم مجد الدين اسماعيل بن كسيرات، وزير سنقر الأشقر، وجمال الدين بن صصري ناظر الدواوين بدمشق، وأخذ خطوطهما بجملة، وقاضي القضاة المؤرخ شمس الدين أحمد بن خلكان، وقام بضرب زين الدين وكيل بيت المال، ومحيي الدين بن النحاس، ثم ورد كتاب من السلطان المنصور قلاوون بالأمان لأهل دمشق[٣]؛ فأنضم عسكر دمشق بعد هروب سنقر الأشقر إلى عسكر المنصور قلاوون، وعفى عنهم سنجر الحلبي[٤].

عُين الأمير بدر الدين بكتوت العلائي[٥]، نيابة دمشق، وكان من جملة الجيش المجرد، لدفع سنقر الأشقر عنها، بصحبة الأمير علم الدين الحلبي، فلما استقر أمر دمشق للسلطان، تحدث في نيابة السلطنة بدمشق، واستند في ذلك، إلى أن السلطان الملك المنصور قلاوون، لما جرده رسم له بها مشافهة، إلا أنه كان في نيابته يلزم الأدب مع الأمير علم الدين الحلبي، واستمر الأمر على ذلك، إلى ١١ ربيع الأول سنة ٦٧٩هـ/ ١٠ يوليو ١٢٨٠م، وفي هذا اليوم أرسل السلطان تقليد للأمير حسام الدين لاجين الصغير المنصوري، بنيابة دمشق، وتقليد للأمير بدر الدين بكتوت العلائي على الدواوين، وتقليد للصاحب تقي الدين توبة التكريتي بوزارة الشام، وتقليد للمنصور صاحب حماة الأيوبي، بنيابة حماة، ودخل حسام الدين لاجين دار السعادة، وجلس في رتبة السلطنة في حضور الأمير علم الدين سنجر الحلبي، والأمير عز الدين أيبك الأفرم، وعزل قاضي القضاة ابن خلكان عن القضاء؛ لأنه أفتى لسنقر الأشقر بجواز قتال السلطان، وعُين مكانة نجم الدين بن صدر الدين سني الدولة، ولكن المنصور قلاوون أعاد ابن خلكان قاضياً

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٦.

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٥٠ ، ص ٤٥.

(٣) النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ٤٢.

(٤) ابن أيبك : كنز الدُرر ، ج ٨ ، ص ٢٣٧.

(٥) بدر الدين بكتوت من أمراء المماليك الكبار، كان في دمشق، ثم انتقل إلى مصر، وفيها علت رتبته في دولة الأشرف خليل بن قلاوون ومات فيها وهو كهلاً، الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج٥٢ ، ص ١٧٧.

للقضاة[١] بعدما جاء كتاب العفو عن الجميع، ومما جاء في كتاب السلطان المنصور قلاوون : «انتم جعلتمونا خوارج، فكان سنقر الاشقر من نسل العباس!»[٢].

بناء على ما سبق يمكن القول بأن سنجر الحلبي نجح في اعادة دمشق لحكم السلطان المباشر، وهزيمة سنقر الأشقر وحلفاءه، وكان السبب المباشر في هزيمة سنقر، هو خيانة عسكره به، وانضمام كثير منهم إلى جيش سنجر الحلبي، وبالرغم من ذلك فقد كان الأشقر محترزا على نفسه وأهله من خلال تأمين قلعة صهيون، ومن الواضح أنه أعدها لتكون ملجأً في حال هزيمته، ويتضح مما سبق أن المماليك في فترة الصراع، يشنون هجوماً إعلامياً حاداً على بعضهم البعض، في المساجد وعن طريق المنادية في الشوارع والأسواق، وكل منهم يشكك الناس في شرعية الآخر، وعندما تزداد حدة الهجوم بينهم، يرمون بعضهم البعض بالخوارج، وهي صفه لا تنطبق في الحقيقة على الطرفين المتخاصمين، والعجيب أن كل هذا ينتهي بعد المصالحة والوحدة.

ثامناً– مراسلات سنقر الأشقر لأبغا بن هولاكو من أجل التحالف معه وتأسيسه لدولة جديدة:

بعد هزيمة سنقر الأشقر في الجسورة عام ٦٧٩هـ/١٢٨٠، ساءت حالته؛ فقام بمراسلة علاء الدين الجويني، صاحب الديوان ببغداد، وهو رجل المغول في العراق والمستولي عليها، وكتب إليه أنه مستعد للتحالف مع أبغا بن هولاكو، ضد السلطان المنصور قلاوون[٣]، ومن ضمن الرسالة تعريف بما وقع بين العساكر الإسلامية من الاختلاف، وحثه على قصد البلاد، ووعده المناصرة والمساعدة[٤]، وكتب سنقر الأشقر وأقوش السعدي لأبغا أيضاً كتاباً :«أن نحن مماليكك، وعلى طاعتك، ونقاتل معك، وإن أمرتنا بالحضور حضرنا بين يديك»[٥]، وسير الجويني الجواب لسنقر الأشقر، يطيب خاطره، ويعده، ويمنيه حتى يعود بجواب القان أبغا بما يعتمده[٦]، ثم جاءهم جواب أبغا: «تحضروا إلينا قولاً واحداً، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، والبلاد

---

(١) النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ٤١ – ٤٣.

(٢) ابن أيبك : كنز الدُرر ، ج ٨ ، ص ٢٣٨.

(٣) المصدر نفسه ، ج ٨ ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧.

(٤) النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ١٣ ؛ ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٥٥ ؛ العيني : عقد الجمان، ج١ ، ص ١٧١.

(٥) قرطاي العزي : تاريخ مجموع النوادر ، ص ١٧٦.

(٦) ابن أيبك : كنز الدُرر ، ج ٨ ، ص ٢٣٧.

لكم، وأنا واحد منكم»، ومما دفع سنقر الأشقر للتحالف مع المغول، أنه مضى فترة عندهم في الأسر، وكان قد تزوج منهم، وأنجب أولاداً بقي بعضهم في بلاد المغول[١]، وامتناع الأمير موفق الدين خضر الرحبي، النائب بقلعة الرحبة، من تسليمها القلعة إليه[٢]، وعارض الأمير عيسى بن مهنا مراسلة سنقر الأشقر ومن وافقه للمغول، وذكرهم بالآخرة، وقال لهم: «بالله لا تفعلوا ولا ترجعوا في آخر أعماركم إلى الكُفر، ومتى رحلتم إلى التتر تقوى كلمتهم على الاسلام»[٣]، وهناك رواية أخرى تقول بأن ابن مهنا كان موافقاً على مكاتبة سنقر لأبغا[٤] .

استعد سنقر ومن معه من الأمراء للتوجه إلى المغول، ولم يبقى سوى الانطلاق، وقبل رحيلهم اجتمعوا وتشاوروا فيما بينهم، وقال بعضهم لبعض: «نحن مسلمون ولا نرجع في آخر أعمارنا إلى بلاد الكفر» فاتفقوا على أن يرجعوا إلى بلاد الشام، ويستولوا على بعض القلاع الشامية، وقالوا: «نقيم هاهنا إلى أن يفعل الله ما يريده»، وقرروا التحصن في قلعة صهيون[٥] .

جهز علم الدين سنجر الحلبي العسكر عدداً من الجند الذين قاتلوا معه ضد الأشقر في الجسورة، وأضاف إليه عسكر آخر بقيادة الأمير عز الدين أيبك الأفرم[٦]، وعددهم ثلاثة آلاف[٧]، لملاحقة سنقر الأشقر، وفي أوائل ربيع الآخر سنة ٦٧٩هـ/ أواخر يوليو ١٢٨٠م[٨] ساروا في طلب الأشقر؛ فأسرع الأخير بالخروج من الرحبة عن عيسى بن مهنا، وتوجه في البرية إلى الحصون التي كانت قد بقيت بيد نوابه، فتحصن هو ومن معه بها، وأهمها قلعة صهيون التي كان بها أولاده وخزائنه[٩]، فدخلها في جُمَادَى الأولى سنة ٦٧٩هـ/ سبتمبر ١٢٨٠م، وتحصن بها، بعد سقوط دولته في دمشق؛ وبقيت في يده عدة قلاع وهي: برزنة، وبلاطنس[١٠]، والشغر

---

(١) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ٧١.

(٢) النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص١٣.

(٣) قرطاي العزي : تاريخ مجموع النوادر ، ص ١٧٥ ، ١٧٦.

(٤) النويري : نهاية الأرب : ج ٣١ ، ص ١٣.

(٥) قرطاي العزي : تاريخ مجموع النوادر ، ص ١٧٦.

(٦) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٨.

(٧) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٥٠ ، ص ٤٥.

(٨) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٢٩٢.

(٩) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٨.

(١٠) بُلاطنُس بضم الطاء والنون والسين مهملة حصن منيع بسواحل الشام مقابل اللاذقية من أعمال حلب، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٧٨.

وبكاس[١]، وعكار[٢]، وشيزر[٣]، وفامية[٤]، وجبلة[٥]، واللاذقية[٦]، وغيرها، وعمل على تأسيس دولة جديدة، وعندما تحصن الأشقر جيداً، عاد الجيش الذي أرسله علم الدين سنجر إلى دمشق[٧]، وكان أحد الأمراء المتحالفين مع سنقر وهو الأمير عز الدين الحاج أزدمر، قد توجه بعد هزيمة الأشقر في الجسورة إلى جبل الجرديين وتحصن فيه، وعندما علم الحاج أزدمر بتحصن حليفه الأشقر في قلعة صهيون، مضى مع طائفة من الجبليين، وقام بحفظ قلعة شيزر، وجعلها تحت حكم سنقر الاشقر، وقام عسكر قلاوون الموجود في دمشق بحصار شيزر، مصممين على أخذها من أزدمر[٨].

بناء على ما سبق يمكن القول بأن سنقر الأشقر عندما وجد نفسه، مكسوراً، تخبط ولم يعرف ماذا يفعل؛ فغلب مصلحته الشخصية على مصلحة المسلمين، وأتصل بالمغول، ليتحالف معهم ضد أبناء دينة المسلمين، وابناء جنسه المماليك، ولكنه تراجع في اللحظة الأخيرة من الذهاب إلى أبغا بن هولاكو، وقرر إعادة بناء دوله جديدة في شمال بلاد الشام، ونجح بالفعل في تأسيس دولة جديدة، لكنها صغيرة بعد هزيمته في الجسورة، على أنقاض دولته السابقة، واتصل

---

(١) الشغر وبكاس : هما قلعتان قويتان من أعمال حلب من النواحي الغربية، والشغر قلعة صغيرة قريبة من بكاس يعبر من أحديهما إلى الأخرى بجسر، وهما على جانب نهر الأرنط المعروف بالعاصي، ولبكاس نهر يخرج من تحتها، وهما في غاية المنعة والقوة، (ابن العديم : بغية الطلب ، ج ١ ، ص ٣٢٧)، والشُغْر لغة: يقال شغر البلد إذا خلا من الناس ويقال بلدة شاغرة، إذا لم تمتنع من غارة وبلاد شغر، وأما بكاس تقع على رأس جبلين وهما قرب أنطاكية، ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج ٣ ، ص ٣٥٢.

(٢) حصن قريب من طرابلس في جهة الشرق بوسط جبل لبنان في واد والجبل محيط بها وشرب أهلها من عين تجري إليها من ذيل لبنان ولها ربض صغير ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٥٠.

(٣) قلعة شيزر تقع على نهر العاصي ببر الشام ، فنديك ، أدورد : اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، ج١، ص٣٧٢.

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٧٠.

(٥) قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية، ارسل الصحابي الجليل أبو عبيدة الجراح الصحابي الجليل عبادة بن الصامت لفتحها، ففتحها عنوه، وخربت مع الزمن وجلا عنها أهلها، وبناها معاوية بن أبي سفيان، وكانت حصنا للروم جلوا عنها عند فتح المسلمين حمص وشحنها بالرجال، وبنى معاوية بجبلة حصنا خارجا من الحصن الرومي القديم، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص١٠٥.

(٦) مدينة تطل على الساحل الشامي، تمتاز بقوتها وحصانتها، لها ميناء جميل، وكانت من جملة ولايات طرابلس، ثم استقرت بعد ذلك نيابة في العصر المملوكي وهي أعظم نيابات طرابلس، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٥٠ ، ١٥١.

(٧) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٨.

(٨) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ، ٥٠ ، ص ٤٨.

بالأمراء الموالين له كالحاج أزدمر واعاد تكوين دولة جديدة بداية من حصن صهيون.

تاسعاً- هجوم منكوتمر بن هولاكو على حلب أثناء الصراع الدائر بين قلاوون وسنقر:

عمل السلطان المنصور قلاوون على ضبط الشام حتى حدود الفرات، بعد هزيمة سنقر الأشقر، لكن بعض القلاع ومنها قلاع الإسماعيلية[١] كانت تحت حكم سنقُر الأشقر، وكثير من الأمراء مشتتين في أقطار الشام[٢]، وسمع المغول بالخلاف الدائر بين سنقر الأشقر والمنصور قلاوون؛ فاستعدوا لغزو بلاد الشام ومصر، وظنوا أن سنقر الأشقر بمن معه يتفق معهم على قتال المنصور قلاوون[٣]؛ فأرسل زعيم المغول أبغا سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠، جيش بقيادة أخاه منكوتمر للزحف إلى بلاد الشام، واحتلالها[٤] .

في أوائل جُمَادَى الآخرة سنة ٦٧٩هـ/ أواخر سبتمبر ١٢٨٠م، وصلت للشام أخبار مزعجة باستعداد المغول للزحف على بلاد الشام؛ فخرجت فرقة من جيش دمشق بقيادة الأمير ركن الدين اياجي، للحاق بالعساكر المحاصرين لقلعة شيزر، وكانوا قد تأخروا عنها، ونزل الجميع بالقرب من حماة، وفي حماة أخبر الكشافة الأمير ركن الدين إياجي بقدوم التتار، ثم أرسلوا رسالة للسلطان المنصور قلاوون أبلغوه فيها بمجيء المغول، فجهز المنصور قلاوون فرقة استطلاعية اكثر حرفية وخبرة، بقيادة الأمير بدر الدين بكتاش النجمى، فلحق بهم الأمير بكتاش بمن معه من العسكر واجتمع الجميع على حماة، وأرسلوا جواسيس في العشر الأواسط من جمادى الآخرة سنة ٦٧٩هـ/ أكتوبر ١٢٨٠م إلى بلاد التتار، ليأتوا بالأخبار الدقيقة، وعندما علم أهل الشام بخبر زحف المغول، جفل غالب من بالبلاد الشامية، وخرج كثير من بيوتهم، ولم يبق هناك إلا من عجز عن الحركة[٥]، ووصل المغول أطراف مدينة حلب[١].

---

(١) الإسماعيلية هي إحدى فرق الشيعة، وينسبون أنفسهم إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر، ويزعمون أن أدوار الإمامية انتهت به، اذ كان هو السابع من محمد صلى الله عليه وسلم، وأدوار الإمامية سبعة عندهم فأكبرهم يثبتون له منصب النبوة، وإن ذلك يستمر في نسبه وأعقابه وقد اورد أهل المعرفة بالنسب في كتاب الشجر أنه مات ولا عقب له، وأما السبعية فإنما لقبوا بها لأمرين أحدهما اعتقادهم أن أدوار الإمامة سبعة وأن الانتهاء إلى السابع هو أخر الدور وهو المراد بالقيامة، الغزالي : فضائح الباطنية ، ج ١ ، ص ١٦.

(٢) قرطاي العزي : تاريخ مجموع النوادر ، ص ١٧٧.

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٨.

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٥٠.

(٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٨.

توجه المنصور قلاوون بنفسه إلى مدينة غزة جنوب بلاد الشام[٢]، ونزل بها بتل العجول[٣]، وأقام بها أيام عدة أيام[٤]، في جُمَادَى الآخرة سنة ٦٧٩هـ/ أكتوبر ١٢٨٠م[٥]، وبالتزامن مع وصول المنصور قلاوون غزة، هاجم المغول حلب من غير مانع يمنعهم عنها، وأحرقوا المساجد والمدارس والكتب، ودار السلطنة ودور الامراء، وأفسدوا فيها فساداً كبيرا على عادة أفعالهم القبيحة، ثم انسحبوا منها بعد يومين من التخريب، حاملين معهم الكثير من الغنائم في ٢٣ جُمَادَى الآخرة سنة ٦٧٩هـ/ ١٩ أكتوبر ١٢٨٠م[٦].

وانسحب منكوتمر بن هولاكو من حلب للأسباب التالية :

أ- وصول الأخبار لمنكوتمر بن هولاكو، بمجيء السلطان المنصور قلاوون بجيش يقوده بنفسه[٧].

ب- علم المغول بمراسلات بين المنصور قلاوون وسنقر الأشقر، من أجل الصلح والاتفاق على قتالهم[٨].

ت- **السبب المباشر:** كان رجلاً من أهل حلب قد يئس من النجاة من المغول، فصعد منارة أحد الجوامع، وكبر بأعلى صوته على التتار، وقال جاء النصر من عند الله، وأشار بمنديل كان معه إلى ظاهر البلد، فخاف المغول، وتوهموا أنه أشار به إلى عسكر المسلمين، وجعل يقول: «اقبضوهم من البيوت مثل النساء»؛ فخاف المغول، وخرجوا من البلد على وجوههم، وسلم الذى فعل ذلك[٩].

في أثناءِ تواجد المنصور قلاوون في غزة، وصلته الاخبار بتراجع المغول وانسحابهم من حلب، فتقدم قلاوون إلى الرملة، ثم توقف عن التوجه إلى دمشق بعد تراجع المغول، وكان تقدمه

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٧٠؛ ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٢١.

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٧٠ ؛ ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١.

(٣) تل العجول منطقة مهمة في العصر المملوكي تقع بظاهر مدينة غزة، أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٠٦ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ٦ ، ص ٢٣ ؛ العليمي : الأنس الجليل ، ج ١ ، ص ٤٠٥.

(٤) قرطاي العزي : تاريخ مجموع النوادر ، ص ١٧٧.

(٥) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٧٠؛ ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٢١.

(٦) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٩ ، ٣٠٠.

(٧) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٥٠.

(٨) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣ ، ص٢٩٢.

(٩) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٩ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٥٠ ، ص ٥٠.

لتخفيف الوطأة عن أهل الشام، ورحل عن الرملة في ١٠ شعبان سنة ٦٧٩هـ/٤ ديسمبر ١٢٨٠م، بعد أن أقام بها مدة أقل من أربعة شهور[١].

يتضح مما سبق أن هناك نية مسبقة واضحة للمغول في الهجوم على بلاد الشام، ولم يكن هجومهم على بناءً على مراسلة سنقر الأشقر؛ لأنه لم يكن هناك تنسيق أو مراسلات مستمرة من أجل التحالف، ولم يذهب سنقر إليهم، وفي الحقيقة المغول لا يمكن أن يثقوا بسنقر الأشقر، أو يعتمدوا عليه، لأنه كان أكثر عداوة لهم من المنصور قلاوون، وكان قائد الجيوش التي يرسلها الظاهر بيبرس لمحاربتهم، وكان الأشقر قد أثخن كثيراً في المغول في عهد الظاهر بيبرس، فليس من المعقول أن يكون هجومهم بناءً على رسالة أرسلها لهم، وكان هجومهم فقط استغلالاً للصراع الداخلي بين قلاوون وسنقر، فقد شعروا بضعف الجبهة الداخلية المملوكية؛ لذلك قرروا توجيه ضربة عسكرية سريعة لدولة المماليك، والمهم أن أحد أهم أسباب انسحاب المغول من بلاد الشام؛ هي مراسلات الصلح بين قلاوون وسنقر فقط كما أسلفنا سابقاً.

عاشراً- تحييد المنصور قلاوون للصليبيين:

في عام جُمَادَى الآخرة سنة ٦٧٩هـ/ أكتوبر ١٢٨٠م أرسل المنصور قلاوون الأمير علاء الدين أيديكين البندقدار الصالحي، إلى الساحل لحفظ البلاد من الصليبيين، لأن لديه رغبة في تجديد الهدنة معهم، حتى لا يستغلوا فرصة هجوم المغول على بلاد الشام، ويحدثوا شيء ضد المسلمين، كأثارة الفتنة، أو الهجوم على بعض المدن الإسلامية أو التحالف مع المغول[٢].

لما بلغ الصليبيين المتواجدين بحصن المرقب، هجوم المغول على بلاد المسلمين، وهزيمة جيش حلب، استغلوا الفرصة وطمعوا، وقتلوا الكثير من الناس، بأطراف تلك البلاد، فأرسل الأمير سيف الدين بلبان الطباخي المنصوري، نائب السلطنة بحصن الأكراد، يستأذن السلطان المنصور قلاوون، في الهجوم على حصن المرقب، وتأديب من فيه من الصليبيين، لاستغلالهم ما تعرضت له حلب والهجوم على المسلمين، وقد طلب ذلك من السلطان؛ لقربه من المرقب[٣]، فأذن له السلطان بالهجوم، وأخذ معه جيش الحصون وأمراء التركمان، ورجالة تلك النواحي، واستصحب

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٠٠.

(٢) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ١٨٩.

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٧٠ ؛ النويري : نهاية الآرب ، ج ٣١ ، ص ٤٧ ؛ ابن الوردي : تاريخ ، ج٢ ، ص ٢٢١ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٣٧.

المنجانيق، ومعدات القتال، ووقف قريباً من حصن المرقب، لكن الفرنج كانوا على منطقة عالية، وكانت سهامهم تصل بسهولة إلى الجيش الإسلامي الذي يترأسه الأمير بُلبان الطباخي، ولم تكن سهام المسلمين تصل إلى الصليبيين لوقوفهم على مناطق عالية، وعند ذلك تراجع جيش المسلمين قليلاً للابتعاد عن سهام الصليبيين، وقد نال الصليبيين من المسلمين كثيراً، فقتلوا وأسروا عدد كبير منهم، وعندما علم السلطان بما حدث، أزمع على السفر إلى بلاد الشام، ليتدارك هذه الأحوال ويعالج الأمور حسب ما يراه مناسباً[١] .

في مستهل ذي الحجة سنة ٦٧٩هـ/ أبريل ١٢٨١م، قصد المنصور قلاوون بلاد الشام، وترك ابنه الصالح علي، يباشر الأمور في غيابه في مصر، وسار المنصور قلاوون حتى وصل مكان يسمى الروحاء بالقرب من عكا وهي من أعمال الساحل في ١٧ ذي الحجة سنة ٦٧٩هـ/٨ أبريل ١٢٨١، وأقام قبالة عكا[٢]، فخاف منه الصليبيون كثيراً، فراسلوه من عكا طالبين منه تجديد الهدنة التي انقضت مُدتها[٣]، وبقي المنصور قلاوون في مكانة، حتى نزل اللجون[٤] في ١٠ محرم سنة ٦٨٠هـ/٣٠ أبريل ١٢٨١م، وأرسل أيضاً لفرنج حصن المرقب وأحضر قلاوون رسل فرنج عكا والمرقب إلى اللجون في ١١ محرم سنة ٦٨٠هـ/١ مايو ١٢٨١م[٥]، وحضر رسل الصليبيين باللجون بحضرة أمراء المماليك، وسمع الأمراء رسالة الفرنج؛ فاستشارهم السلطان قلاوون، وتم الاتفاق على الهدنة، ووقع الاتفاق، وتجددت الهدنة، بتوقيع السلطان عليها في ١٣ محرم سنة ٦٨٠هـ/٣ مايو ١٢٨١م[٦].

من خلال ما سبق يتبين أن أن بقايا الصليبيين في عكا والمرقب وغيرها، كانوا في حالة ضعف، بعد أن كسر الظاهر بيبرس شوكتهم، وحرر معظم بلاد الشام منهم، ولم يذهب المنصور قلاوون إليهم ليطلب منهم الصلح، بل أكتفى بالوقوف أمامهم؛ حتى يطلبوا الصلح بأنفسهم ، وقد نجح قلاوون في خطوته، ووافق على تجديد الهدنة مع الصليبيين، حتى يكون مستعداً لمواجهة

---

(١) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ١٨٩ ، ١٩٠.

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٠٠.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٢.

(٤) هي إحدى مدن شمال فلسطين، الهمداني: صفحة جزيرة العرب ، ص ١٢٩ ؛ ابن حوقل: صورة الأرض ، ج ١ ، ص ١٧٠ ؛ الإدريسي : نزهة المشتاق : ج ١ ، ص ٣٥٤.

(٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٧.

(٦) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٠٠.

الخطر المغولي، وقد فعل السلطان المظفر قُطز مثل هذه الخطوة، قبل مواجهة المغول في معركة عين جالوت عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م.

أحد عشر – تشتت المماليك الظاهرية وانضمامهم إلى سنقر الأشقر:

عندما وقع السلطان المنصور قلاوون الصلح مع فرنج عكا، بلغ الأمير بدر الدين بيسري الشمسي أن الأمير سيف الدين كوندك الظاهري السعيدي، قد اتفق مع المماليك الظاهرية والسعيدية، على اغتيال السلطان المنصور قلاوون عند نهر الشريعة بعد الرحيل من بيسان؛ لرفضهم الصلح مع الفرنج، وكتبوا للفرنج بأنهم لا صلح معهم، وأخبر بدر الدين بيسري الشمسي السلطان المنصور قلاوون بنيتهم، فأخذ حذره منهم، ولم يشعرهم بأنه قد علم بمخططهم، ولاطفهم حتى اجتمع هؤلاء الأمراء عنده في حمراء بيسان[١]، بعد إتمام الصلح مع الفرنج في محرم سنة ٦٨٠هـ/ مايو ١٢٨١م [٢]؛ فواجههم بالكتب التي ارسلوها للفرنج من وراء ظهره، والتي تتضمن رفضهم للصلح مع الفرنج، فلم ينكروا وسألوا العفو، فأمر المنصور قلاوون بالقبض عليهم، وهم: كوندك، وأيدغمش الحكيمي، وبيبرس الرشيدي، وساطلمش السلاح دار الظاهري، وعلى ثلاثة وثلاثين أخرين من الأمراء الظاهرية، فأخذهم نائب السلطان حسام الدين طرنطاي، إلى بحيرة طبرية، وضرب عنق كوندك وغرقة ثم غرق البقية في بحيرة طبرية، وقرر اعتقال من تبقى منهم، وعندما علم المماليك الظاهرية بنية المنصور قلاوون تجاههم، قرروا الهرب إلى سنقر الأشقر، فكاتبوه ورحب بهم؛ فتوجه الأمير سيف الدين أيتامش السعيدي والأمير سيف الدين بلبان الهاروني، في نحو ثلاثمائة من والمماليك الظاهرية والمماليك من العرق المغولي، وذهبوا إلى قلعة صهيون وانضموا إلى سنقر الأشقر[٣]، وبعضهم توجه إلى المسعود خضر بالكرك، وأرسل قلاوون إلى نوابه في دمشق وغيرها، يأمرهم بإيقاف المماليك الظاهرية، والقبض عليهم، إذا دخلوا من المدن التي يحكوها[٤]، ثم جرد المنصور قلاوون خلفهم جماعة من الأمراء بقيادة طقصوا

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٣٩– ١٤١.

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٨ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٥٠ ، ص ٥٤ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٢٥.

(٣) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤١.

(٤) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ١٧٦ ، ١٧٧.

الناصري، فلم يبلغوا منهم مقصوداً[1].

يتضح مما سبق أن الجبهة الداخلية ازدادت تفرقاً بعد تشتت المماليك الظاهرية، بالرغم من اتِّفاق الصُلح المَبْدئيّ بين قلاوون وسنقر، إلا أن هذا الصُلح لم يُوقع بعد، وكان الاتفاق المبدئي بين الفريقين، بسبب الغارة التي شنها منكوتمر على حلب، لذلك قبل سنقر الأشقر لجوء المماليك الظاهرية إليه ورحب بهم، وربما من ذهب منهم إلى الكرك استشعاراً منهم بأن المسعود خضر سيرحب بهم؛ لأنهم كانوا مماليك أبيه الظاهر بيبرس، وسيستفيد منهم خضر وسنقر، في تقوية صفوفه، الجدير بالذكر أن مملكة الكرك، وقلعة صهيون كانتا مستقلتان عن القاهرة، وليس لقلاوون أي كلمة عليهما.

(١) قرطاي العزي : تاريخ مجموع النوادر ، ص ١٧٨.

المبحث الثاني- الوحدة ودورها في تحقيق النصر على المغول في معركة حمص الثانية عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م:

أولاً- مراسلات قلاوون مع سنقر من أجل الوحدة:

عندما علم المغول بتفرق كلمة المماليك واختلافهم، هاجموا مدينة حلب فقتلوا خلقاً كثيرا ونهبوها، وظنوا أن سنقر الأشقر سيأتي بجيشة ويقاتل معهم المنصور قلاوون، لكن صدموا صدمة شديدة عندما علموا بمراسلات الصلح التي كانت قد بدأت من بداية زحفهم نحو بلاد الشام، وقبل وصولهم حلب[١]، كتب المنصور قلاوون إلى سنقر الأشقر يستميله، ويعاتبه ويقبح عليه ما ظهر من مناصرته الكفر على الإسلام، في آخر عمره[٢] وذكره ما كان بينهم من الصبحة والزمالة، وما يجب عليه من حقوق الملة الإسلامية[٣]، ودعاه إلى الوحدة وكانت رسالة قلاوون إلى سنقر: «إن التتار قد اقبلوا إلى المسلمين، والمصلحة أن نتفق عليهم؛ لئلا يهلك المسلمون بيننا وبينهم، وإذا ملكوا البلاد لم يدعوا منا»[٤]، وأرسل أمراء العسكر المحاصرين لقلعة شيزر رساله تشبه رسالة المنصور قلاوون إلى سنقر الأشقر فكتبوا له: «هذا العدو قد دهمنا وما سببه إلا الخلف بيننا، وما ينبغي أن نهلك الاسلام في الوسط، والمصلحة أن نجتمع على دفعه»[٥]، ولما تحقق مقاربة التتار من الفرات اضطر الأمير عز الدين الأفرم فك الحصار عن شيزر، وكتب المنصور قلاوون إلى الأفرم أن يكتب رسالة إلى الاشقر تحتوي على التعنيف، والتخويف، والترهيب، والترغيب[٦]، ورد سنقر الأشقر على رسالة قلاوون بالسمع والطاعة[٧].

نزل جيش شمس الدين سنقر الأشقر من صهيون، والحاج أزدمر من شيزر، وخيمت طائفة تحت قلعتها، واتفقوا على توحيد الجبهة الداخلية ودفع العدو عن الشام وقد حدث هذا الاتفاق دون اجتماع بينهم، وتم بالمراسلات فقط[٨]، وكان بعض هذه المراسلات تتم عن طريق

---

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٢٣.
(٢) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ١٨٥.
(٣) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ٧٢.
(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٢.
(٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٢٣.
(٦) بيبرس المنصور : زبدة الفكرة ، ص ١٨٥.
(٧) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٢.
(٨) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٢٣.

الحمام الزاجل مباشرة بين قلاوون وسنقر[١] .

نزل جميع نواب سنقر الأشقر من حصونهم وبقوا مستعدين لقتال التتار، بالتزامن مع خروج المنصور قلاوون من مصر في جُمَادَى الآخرة سنة ٦٧٩هـ/ أكتوبر ١٢٨٠م[٢]، وكانت مراسلات قلاوون وسنقر، من أهم أسباب انسحاب المغول من حلب، ولكن انسحابهم لا يعني توقف الخطر المغولي، فبعد خروجهم من دمشق أخذوا يستعدون لهجوم أقوى على بلاد الشام ومصر، ففي المرة الأولى فشلوا بسبب خذلان سنقر الأشقر لهم[٣]، وعندما كان السلطان المنصور قلاوون بالقرب من عكا، يتبادل الرسائل مع الفرنج من أجل تجديد الهدنة، جاء إليه الأمير عيسى بن مهنا من العراق، ولاقاه بالقرب من عكا، فصفح عنه المنصور قلاوون وأكرمه كرماً شديداً[٤] .

بناء على ما سبق يمكن القول، أن الهجوم المغولي على حلب دفع المنصور قلاوون، لمراسلة الأشقر، لتوحيد الجبهة الداخلية للمماليك؛ ونتج عن هذه المراسلات وقوع صدمة شديدة واضطراب عند المغول، وخوف من التوغل أكثر من حلب، والمغول يدركون مدى خطورة هذه المراسلات، وخافوا من أن يطبق سنقر الأشقر عليهم من حصونه في الشمال (من شمال ساحل الشام حتى جنوب لبنان)، والمنصور قلاوون بجيشة من الجنوب، لو توغلوا أكثر في بلاد الشام بعد تخريبهم لحلب، ومن الواضح أن المغول عندما شعروا بأنهم سيقعون بين فكي كماشة، وكان هربوهم انقاذاً لهم من الإبادة، لأنهم لم يكونوا جاهزين لمواجهة قوتين في وقت واحد، ويعرف المغول جيداً أن هذه المراسلات، ستنتهي بوحدة، وقدا عرفوا ذلك منذ الصراع الذي كان في عهد المعز أيبك، والذي أنتهى بالوحدة بين البحرية والمعزية في عهد المُظفر قُطز.

ثانياً – عقد الصلح بين السلطان قلاوون وسنقر الأشقر والمسعود خضر:

١– توقيع المصالحة بين قلاوون وسنقر الأشقر:

وصل المنصور قلاوون إلى دمشق في ١٩ محرم سنة ٦٨٠هـ/٥ مايو ١٢٨١م، ونزل قلعة دمشق، وخرج الناس كافة لتلقيه والترحيب بقدومه، وفي صفر سنة ٦٨٠هـ/ يونيو ١٢٨١م جاء

---

(١) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ٧٢.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٢.

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٨ ، ٣٩.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٢ ؛ ينظر ، اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ١٤٣.

المنصور صاحب حماة الأيوبي إلى دمشق، ليرحب بقدوم السلطان والسلام عليه، فخرج المنصور قلاوون لتلقيه في موكبه، ونزل بداره المعروفة بابن المقدم داخل باب الفراديس[١]، وفي أثناء وجود المنصور قلاوون بدمشق، سمع بنية المغول الهجوم مرة أخرى على البلاد الإسلامية =؛ فاصبح مجبراً على الاسراع بتوقيع الصلح مع سنقر الأشقر[٢].

بدأت الرسائل بين السلطان المنصور قلاوون وسنقر الأشقر لتقرير قواعد الصلح، وفي يوم الأحد ٤ ربيع الأول سنة ٦٨٠هـ/ ٢٢ يونيو ١٢٨١م، وصل الأمير علم الدين الدويداري، ومعه خزندار[٣] سنقر الأشقر؛ لإبرام الصلح بينهما، فحلف السلطان المنصور قلاوون، ووقع على الصلح يوم الاثنين ٥ ربيع الأول سنة ٦٨٠هـ/ ٢٣ يونيو ١٢٨١م، ونادت المنادية في دمشق بانتظام الصلح والوحدة، فرجع الذين حضروا من جهة سنقر الأشقر، وصحبتهم الأمير فخر الدين إياز المقرئ؛ ليحضر يمين شمس الدين سنقر الأشقر، فحلفه، وعاد إلى دمشق يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ٦٨٠هـ/٣٠ يونيو ١٢٨١م فضربت البشائر بالقلعة، وسر الناس بذلك غاية السرور[٤]، ومما جاء في الصلح: أن يسلم سنقر الأشقر شيزر إلى السلطان قلاوون، ويتسلم سنقر الأشقر الشغر وبكاس، وكانتا قد ارتجعتا منه[٥]، وأضاف إليه فامية[٦]، وكفر طاب[٧]،

---

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٨.

(٢) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٢١ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٧٠.

(٣) وهو مركب من لفظين أحدهما عربي، وهو خزانة وهي ما يخزن فيه المال، والثاني فارسي وهو دار ومعناه ممسك، فحذفت الألف والهاء من خزانة استثقالا فصار خزندار، ويكون المعنى ممسك الخزانة، بمعنى المتولي لأمرها، ومتشدقو الكتاب يسقطون الألف والهاء من خزانة، ويلحقون بعد الخاء ألفا، فينقلون لفظ خزانة إلى خازن فاعل من الخزن ويضيفونه إلى دار، ظنا منهم أن الدار على معناها العربي كمصطلح الإستدار والزنان دار وهذا خطأ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٣٥.

(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٨.

(٥) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٧٠.

(٦) أفامية، ويسميها البعض فامية، تقع على الساحل الشامي، وهي إحدى كور حمص، ياقوت الحموي : معجم البدان ، ج ١ ، ص ٢٢٧ ؛ القيطعي : مراصد الاطلاع ، ج ٣ ، ص ١٠١٦.

(٧) كفر طاب بلدة بين المعرة ومدينة حلب، منطقة فقيرة المياه، كان أهلها يعتمدون على ما يجمعونه من مياه الأمطار في الصهاريج، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٧٠ ؛ القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، ج ١ ، ص ٩٨ ؛ الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، ج ١ ، ص ٥٦٣ ؛ الحميري : الروض المعطار ، ج ١ ، ص ٥٠٠.

وأنطاكية[١]، والسويدية[٢]، ودركوش[٣] بأعمالها كلها، وعدة ضياع معروفة، وأن يقيم على ذلك، وابقى بيده، عدة حصون وهي وهو: صهيون، وبلاطنس، مرزية، وجبلة، واللاذقية، وابقى تحت امرته ست مائة فارس، وخوطب بالمقر العالي المولوي السيدي العادلي الشمسي، ولم يصرح في مخاطباته بالملك ولا بالأمير، وكان يخاطب قبل ذلك في مكاتباته من الملك المنصور بالجناب العالي الأميري الشمسي[٤] .

٢- توقيع المصالحة بين المنصور قلاوون والمسعود خضر بن بيبرس:

أرسل المسعود خضر بن الظاهر بيبرس ملك الكرك، طلب الصلح مع السلطان المنصور قلاوون، والزيادة على الكرك، وأن يكون له ما كان للناصر داوود، فلم يجبه السلطان إلى ذلك ولا إلى قامته بالكرك بالأصالة، ثم أرسل المسعود برسائل أخرى طالباً منه أن يقره على حد الموجب إلى الحسا[٥]، فأجابه السلطان، وحلف لهم والتمس المسعود شروطاً، منها: تجهيز الإخوة الذكور والإناث، أولاد الملك الظاهر إلى الكرك، وردّ الأملاك الظاهرية عليهم، وتمّ الصلح وحلف السلطان عليه، وتوجه الأمير بدر الدين بيليك المحسني السلحدار، والقاضي تاج الدين ابن الأثير[٦]، إلى الكرك، وحلفا الملك المسعود، وكوتب من ديوان الإنشاء، كما يُكاتب صاحب حماه[٧]، وتم توقيع الصلح بين المنصور قلاوون والمسعود خضر في ٢٩ ربيع الأول سنة ٦٨٠هـ/١٧ يوليو ١٢٨١م، ونادت المنادية بذلك وفرح الناس باجتماع الكلمة[٨] .

يتضح مما سبق أن المراسلات تكللت بالنجاح وعُقد الصلح، بعد ان أدرك سلطان المماليك

---

(١) أَنْطاكية مدينة من الثغور الشامية، وهي من أهم مدن شمال بلاد الشام، وكانت العرب إذا أعجبها شيء نسبته إلى أنطاكية، وهي قصبة العواصم من الثغور الشامية، تتصف بالجمال الباهر، والهواء النقي، وعذوبة الماء، وكثرة الفواكه، وسعة الخير ، ياقوت الحموي : معجم البدان ، ج ١ ، ص ٢٦٦

(٢) السُّوَيْدِيَة تقع على مصب نهر العاصي، وهي مرتبطة بأنطاكية، الحميري: الروض المعطار، ج ١، ص٣٣٠ ، ٣٣١ ؛ ينظر القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٣٤.

(٣) دركوش حصن قرب أنطاكية ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٥٢.

(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٨.

(٥) الحسا بين الكرك ومعان (في الأردن) ، ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٢٩١.

(٦) تاج الدين أحمد بن الأثير الحلبي، كان كاتب السر في بلاد الشام عند الناصر يوسف الأيوبي، العيني : عقد الجمان ، ج١ ، ص٦٥.

(٧) النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ١٨.

(٨) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٨.

قلاوون، والامراء المستقلين المسعود خضر في الكرك، وسنقر الأشقر وحلفاؤه في شمال وغرب بلاد الشام، وفي الحقيقة كان الصلح بين قلاوون وسنقر هو الأهم؛ لأن الصراع كان بينهما شديد وحدث بينهما تنافس على السلطنة، والأخطر أن سنقر الأشقر أعلن نفسه سلطاناً، أما المسعود خضر لم يحدث بينه وبين قلاوون تنافس، ولم يعلن نفسه سلطاناً، وهو في مرتبة ملك بموافقة قلاوون وكبار الأمراء في مصر، والدليل على ذلك، أن المنصور قلاوون هو من أرسل السعيد محمد بركة بن بيبرس لحكم الكرك، وكان يغض البصر عن تجاوزات أبناء الظاهر بيبرس في الكرك، وكان توقيع المصالحة بين المنصور قلاوون من جهة، وسنقر الأشقر والمسعود خضر من جهة أخرى، قد أنهى الصراع الداخلي تماماً، وأصبحت الجبهة الداخلية للمماليك متماسكة، وقادرة على مواجهة الخطر المغولي، الذي كان يستعد ويخطط للهجوم مرة أخرى على بلاد الشام ثم مصر.

ثالثاً- استعدادات قلاوون وأمراء المماليك المتصالحين معه لمواجهة المغول معاً:

بعد هجوم المغول على حلب تمكن المنصور قلاوون من توحيد قلاوون للجبهة الداخلية وتوقيع الصلح في ابريل مع سنقر الأشقر والمسعود خضر، وأصبحت الجبهة الداخلية متماسكة ومستعدة لمواجهة أي خطر خارجي يهدد المسلمين، وعندما عاد المغول أخذوا يحشدون قواتهم لغزو بلاد الشام ومصر، وعين أبغا أخية مكنوتمر بن هولاكو قائداً للجيش الذي سيتوجه إلى بلاد الشام، وفي أواخر ربيع الآخر سنة ٦٨٠هـ/ أغسطس ١٢٨١م كتب المنصور قلاوون من دمشق إلى مصر وغيرها يستدعي الجيوش لتأتي إليه بدمشق؛ بسبب وصول الأخبار بمجيء المغول[١]، وفي أثناء تواجده بدمشق مع السلطان قلاوون تم اسر أحد أمراء المغول وهو جلتار أمير خور أبغا، وتم القبض عليه من قِبل نفر من التركمان، في كمين على فرقة صغيرة من المغول فهربوا، وقتلوا أحدهم وأسروا جلتار[٢]، وأَحضروه إلى السلطان المنصور فلاوون في ٢٠ جُمَادَى الأولى سنة ٦٨٠هـ/ ٥ سبتمبر ١٢٨١م، وهو بالميدان الاخضر بدمشق؛ وأعترف الأمير المغولي للمنصور قلاوون استعداد المغول لغزو بلاد المسلمين[٣]، وأخبره أن عددهم أكثر من ثمانون ألفاً،

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٢ – ٢٩٤.

(٢) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ٧٢.

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص٣٩.

ولما سمع المنصور قلاوون ما قاله أعظمه، واخلص لله نيته[١]، وأمر الجيش بعمل عرض عسكري، والاستعداد للجهاد[٢]، وأمرهم بزيادة التدريب استعداداً للمواجهة المُقبلة، وأرسل إلى سنقر الأشقر عدة مراسلات بالاستعداد، والنزول من حصن صهيون، ليقف حيث يقف المسلمين، وهو ومن عنده من الأمراء المتحالفين معه، بشريكة عودته إلى مكانه بعد المعركة[٣] .

بدأت النجدات والدعم تتوافد على المنصور قلاوون بدمشق، فأرسل صاحب الكرك المسعود خضر جيشه إلى دمشق في ١٢ جُمَادَى الآخرة سنة ٦٨٠ هـ/ ٢٧ سبتمبر ١٢٨١م [٤]، وجاء إليه الأمير شهاب الدين أحمد بن حجي ومعه كثير من بدو الحجاز وبرية الشام، ووصل دمشق في ١٨ جُمَادَى الآخرة سنة ٦٨٠هـ/ ٣ أكتوبر ١٢٨١م، وفي نفس الشهر وصلت العساكر المصرية إلى دمشق، وجاء عدد كبير من البدو والتركمان، ولم يتأخر أحد منهم، واجتمعوا مع السلطان بدمشق[٥]، وفي الاجتماع استشار السلطان الأمراء «اين يكون الملتقى مع الاعداء»، فاتفقوا أن يكون في مرج حمص، وكان رأي السلطان أن يكون في مرج دمشق[٦] .

وصلت الأخبار لأهل الشام في أواسط شهر جُمَادَى الآخرة سنة ٦٨٠هـ/ سبتمبر ١٢٨١م باقتراب المغول من بلادهم، فجفل الناس خاصة أهل حلب والمناطق القريبة منها؛ فتركوا الغلات، والحواصل والأموال وخرجوا بدون أن يحملوا أي شيء، خوفاً من أن يدهمهم المغول، وتوجهوا جنوباً نحو حماة وحمص، وكان المنصور قلاوون وجيشه على أهبة الاستعداد للمواجهة، وفي العشر الأواخر من شهر جُمَادَى الآخرة سنة ٦٨٠هـ/ أكتوبر ١٢٨١م، وصل منكوتمر بن هولاكو إلى عينتاب[٧]، وما جاورها من المرج، ثم توجهت فرقة تترية تبلغ حوالي ثلاثة آلاف فارس إلى الرحبة واحتلوا قلعتها في ٢٦ جُمَادَى الآخرة سنة ٦٨٠هـ/ ١١ أكتوبر ١٢٨١م، وكان أبغا بن

---

(١) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ٧٢.

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص٣٩.

(٣) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ١٧٨.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٤.

(٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص٣٩.

(٦) ابن ايبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢.

(٧) عَيْنتَاَب هي مدينة تقع شمال مدينة حلب، وهي مدينة جميلة وكبيرة، تمتاز بكثرة المياه، والبساتين، ويوجد بها أسواق كبيرة يأتي إليها المسافرين والتجار من أماكن بعيدة، وبها قلعة محصنة، منحوته من الصخر، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٢٦.

هولاكو، قد نزل الرحبة على شاطئ الفرات متخفياً ينتظر ما يفعل جيشه[١].

في ٢٦ جُمَادَى الآخرة خرج المنصور قلاوون بنفسه من دمشق مع الجيش أي في نفس اليوم الذي استولى فيه المغول على الرحبة، ولم يتخلف أحد من أمراءه أو جنده عنه[٢]، ونزل السلطان في مرج العذراء[٣]، وتشاور مرة ثانية مع الأمراء، وأبلغ الامراء أن العيون والكشافة أبلغوه أبلغوه ان جيش المغول يبلغ حوالي مائة الف فارس وقال لهم «المصلحة تقضي ان نلقاهم في مرج دمشق»، فلم يوافقوه على ذلك، وخرج في مقدمة الجيش الأمير علم الدين سنجر الحلبي، فركب من ساعته وتبعه الأمير بيسرى، وكان كلامهم للسلطان «ما لم تجىء – التقيناهم نحن، فان كان لنا، رجعنا وولينا علينا من نريد، وان كانت علينا فنموت كرام مجاهدين»، ثم رحلوا يد واحده باتجاه حمص، واخبر الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح[٤] السلطان، برحيل الأمراء وقوة عزمهم على الملتقى، وقال «من المصلحة أن تلحقهم»؛ فأمر السلطان بالرحيل واللحاق بهم، ويبدو أن السلطان كان يختبر مدى حماسهم للجهاد؛ فوجدهم أكثر حماساً منه[٥].

في أخر جُمَادَى الآخرة سنة ٦٨٠هـ/ أكتوبر ١٢٨١م لحق المنصور بجيشه، وكان المغول قد وصلوا إلى بغراس[٦]، وقنت الخطباء بالمساجد بالدعاء في الصلوات، ووصل قلاوون مع الجيش إلى حمص في رجب سنة ٦٨٠هـ/ أكتوبر ١٢٨١م، وجمع الجيش كله، وراسل سنقر الأشقر بالحضور إليه بمن عنده من الأمراء والعسكر، وكذلك راسل الأمير سيف الدين ايتمش السعدي ومن معه من المماليك الظاهرية، وايتمش السعدي الذى كان قد هرب من عند السلطان لما قبض على الأمراء الظاهرية، فوصل سنقر الأشقر أولاً واجتمع بالسلطان، واستحلفه لسيف الدين ايتمش يميناً ثانية ليزداد طمأنينة، ثم أحضره ومن معه من المماليك الظاهرية، وتكامل

---

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٩ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٤ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٠٢.

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص٣٩.

(٣) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ٧٢.

(٤) هو لقب على الذي يتولى أمر سلاح السلطان أو الأمير، ويجمع على أمراء سلاح، والسلاح الة القتال، وهو مذكر ويجوز تأنيثه ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٢٨.

(٥) ابن ايبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٢٤٢.

(٦) بَغْراس قلعة من جند قنسرين، تقع شمال مدينة حلب، وتبعد عن أنطاكية حوالي اثنا عشر ميلاً وبينها وبين إسكندرونة كذلك، المهبلي : المسالك والممالك ، ص ٦٩ ؛ الادريسي : نزهة المشتاق ، ج ٢ ، ص ٦٥٢ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٦٧.

حضورهم يوم ٨ رجب، وحصل الاجتماع، والاتفاق على العدو، وعومل سنقر الأشقر ومن معه بالاحترام التام، والخدمة البالغة، والاقامات العظيمة والرواتب الجليلة[١]، وجاء مع سنقر جميع الأمراء الموالين له، ومنهم الأمير الحاج أزدمر والأمير علم الدين الدويداري[٢]، وجلسوا جميعاً بعد بعد اكتمال الحضور بالقرب من ضريح خالد بن الوليدﷺ، ووضعوا بينهم المصحف، وتحالفوا بأن لا يؤذي بعضهم بعضاً، وان لا ينهزمون، وان يموتوا تحت ظلال السيوف، ولا يولون الأدبار، واخلصوا نياتهم لله وللجهاد في سبيله[٣].

مما سبق يتبين أن الأمراء كانوا متحمسين جداً للجهاد والاستشهاد في سبيل الله، وموقف أمراء المماليك عكس موقف الأمراء الذين كانوا في عهد قطز، عندما تخاذلوا عن قطز في السير نحو عين جالوت، فربما كان عند المماليك رهبة من المواجهة، لأن المغول كانوا يروجون لأنفسهم بأنهم جيش لا يُقهر، تمكن من احتلال معظم قارة آسيا، وخوف المماليك قبل عين جالوت، ليس خوف أو جُبن كما تصورهم المصادر والمراجع التاريخية، فكثير من الأمراء الذين شاركوا في معركة عين جالوت، شاركوا أيضاً في معركة حمص الثانية، ومنهم السلطان المنصور قلاوون نفسه، وصاحب حماة المنصور محمد الأيوبي، والأمير علم الدين سنجر الحلبي، والأمير علاء الدين طيبرس الوزيريّ، والأمير عز الدين أيبك الأفرم، وغيرهم، ومن الواضح أن دولة المماليك دخلت في مرحلة الشباب، بدأت هذه المرحلة منذ توحيد الجبهة الداخلية في عهد قطز، وبدأت هذه المرحلة تنمو بالفعل في عهد الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون.

في يوم ١٣ رجب سنة ٦٨٠هـ/ ١٢ أكتوبر ١٢٨١م خرج أهل دمشق بمن فيهم صغار وشيوخ متضرعين إلى الله تعالى في نصرة الاسلام وهلاك عدوهم، وأخرج المصحف الكريم العثماني وغيره من المصاحف العظيمة على رؤوس الناس، وصحبتهم الخطيب والقراء والمؤذنون إلى المصلى بقصر حجاج يسألون الله تعالى النصر والظفر، وكذلك فعل أهل بعلبك، وغيرها، وكان المغول يتقدمون ببطء على خلاف عادتهم، ولما وصلوا إلى حماة افسدوا في ضواحيها، فأحرقوا بستان، وجوسق[٤] الملك المنصور محمد الأيوبي، ومجموعة من الأبنية تابعة للجوسق،

---

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، ج ٢ ، ص ٣٩ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٠٢ ، ٢٠٣.

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٧١.

(٣) ابن ايبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٢٤٢.

(٤) لفظ فارسي معرب وجمعها جواسق، جَوْسَق وتعني القصر ، ويكون عادة قريباً من بستان الملك أو الأمير،

وعسكر المسلمين بظاهر حمص ينتظرون وصولهم، وكان عدد المغول حوالي مائة ألف فارس، وكان عدد المسلمين مقدار النصف من ذلك أو أقل[١]، وقبل المعركة بيوم، هرب أحد أمراء المماليك وهو ركن الدين بيبرس العجمي الجالق، ودل المغول على عورات ونقاط الضعف عند المسلمين، وأخبرهم بعددهم، ودخل شخص من المغول إلى حماة، وقال للنائب بها: «اكتب الساعة إلى السلطان على الحمام الزاجل، وعرفه أن القوم ثمانون ألف مقاتل تحت القلب، منها أربعة وأربعون ألفا مغلا، وهم طالبون القلب، والميمنة التي لهم قوّية جدّا، فيقوّى ميسرة المسلمين ويحترزون على السناجق»، فقرأ السلطان الكتاب، وأنطلق في وقت الصباح لتقوية الميسرة، واعتماد ما يراه مناسباً[٢].

رابعاً- معركة حمص الثانية[٣] (٦٨٠هـ/١٢٨١م):

مع فجر يوم الخميس ١٤ رجب سنة ٦٨٠هـ/ ٢٨ أكتوبر ١٢٨١م اقترب منكوتمر بجيشه من حمص، وكان في الجيش المملوكي حشو كثير من الأكراد والتركمان والبدو[٤]، ورتب قلاوون صفوف الجيش الإسلامي بنفسه وطيّب خواطرهم، وقوّى عزائمهم، وحضهّم على الثبات، وحسن الصبر، ورجع إلى مكانه من القلب متوكّلا على الله بجأش أثبت من الجبال الشمّ، وجنان أصلد من الرواسي الصم، ورتب المنصور قلاوون صفوف جيشه على النحو الآتي[٥]:

الميمنة: وضع المنصور قلاوون الأمير شرف الدين عيسى بن مهنّا قائداً على الميمنة، ومعه من البدو خاصة من قبيلتي آل فضل، وآل مرى، وبدو بلاد الشام ومن انضّم إليهم، وكان

النووي : تهذيب الأسماء، ج ٣ ، ص ٤٨ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٢١٠ ؛ يُنظر، التبريزي ، ديوان الحماسة ، ج ٢ ، ص ٤٢٣ .

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٠ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٠٣.

(٢) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ١٧٩.

(٣) سميت الثانية، لأنه سبقتها معركة بين المسلمين والمغول في مدينة حمص، في يوم الجمعة ١٥ محرم سنة ٦٥٩هـ/١٩ ديسمبر ١٢٦٠م، وكانت معركة حمص الأولى في بداية سلطنة الظاهر بيبرس، بلغ عدد المغول فيها ستة آلاف فارس، وقد تصدى لهم الأشرف موسى الأيوبي صاحب حمص، والمنصور محمد الأيوبي صاحب حماة، ومعهم الأمير البدوي زامل بن علي، وكان عدد الجيش الإسلامي، قدر بألف وأربعمائة فارس، وقد حقق المسلمين انتصاراً باهراً بالرغم من قلة عددهم، فأفنوا المغول قتلاً وأسراً، وقد حملت رؤوس قتلى المغول إلى دمشق، المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٥٢٥.

(٤) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤٦.

(٥) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ١٧٩.

ابرز الموجودين في الميمنة المنصور ناصر الدين محمد الأيوبي صاحب حماة مع عسكر حماة، وعدد من الأمراء الكبار وهم: بدر الدين بيسري الشمسيّ، وعلاء الدين طيبرس الوزيريّ، وعز الدين ايبك الأفرم أمير جاندار الصالحيّ، وعلاء الدين كشتغدي الشمسي، ومضافوهم من أمراء الطبلخانات، وأصحاب العشرات، ومقدّمو الحلقة وأجنادها وغيرهم، والأمير حسام الدين لاجين السلحدار المنصوري نائب دمشق، ومعه أمراء وعسكر الشام[١] .

الميسرة: وكانت بقيادة الأمير سنقر الأشقر ومن معه المماليك الظاهرية، ومعه عدد من الأمراء الكبار، وهم: علم الدين سنجر الحلبي، و سيف الدين أيتمش السعديّ، وبدر الدين بيليك الأيدمريّ، وبدر الدين بكتاش الفخريّ أمير سلاح، وسيف الدين بجكا العلائي، وبدر الدين بكتوت العلائي، وسيف الدين حبرك التتريّ، وأمراء أخرين، وفي رأس المسيرة عسكر حصن الأكراد[٢] والتركمان بجموعهم[٣].

الجاليش وهو مقدّمة القلب: وكان جاليش العسكر الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة، ومضافوه من الأمراء والمغادرة ومماليكة وأجناده، ومعه عدد من الأمراء الكبار، وهم: ركن الدين أياجي الحاجب، وبدر الدين بكتاش بن كرمون وكان معهم المماليك السلطانيّة المنصوريّة[٤]، وكان مع طرنطاي أربعة آلاف فارس وهم من أقوى وأشد المماليك، وكان عدد المماليك المنصورية ثمانمائة مملوك[٥] .

وبعد أن رتب المنصور قلاوون صفوف جيشه، وقف تحت السناجق[٦] المنصورة، وحوله

---

(١) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ٢٢ ، ٢٣ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤٦ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ١٤٨.

(٢) اختلف الجغرافيين في وصف هذا الحصن ويقال أنه بين الرقة ونواحي حلب، (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ، ص ٢٦٤ وهو حصن قوي للأكراد، قريب من حمص، وله قلعة مرتفعة جداً عن مستوى سطح البحر، وكانت محل النيابة ومقر العسكر قبل فتح طرابلس، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٤٩

(٣) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ١٩٧ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ٢٣ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤٦ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ١٤٨.

(٤) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ١٩٧ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ٢٣ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤٦ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ١٤٨.

(٥) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤٦.

(٦) رايات صغيرة لونها أصفر، وأول من حمل السنجق بجانبه، هو غازي بن عماد الدين زنكي، أخو السلطان

مماليكه، وألزامه، والسلحداريّة[١]، والسنجقداريّة[٢]، والطبرداريّة[٣]، وهو ثابت في صهوة جواده ثبوت الطود الراسي، محتسبا في سبيل الله عز وجل ثواب ما يلابس ويقاس[٤]، واختار السلطان من مماليكه المنصورية مائتي فارس وانفرد عن العصائب ووقف على تل، لمراقبة المعركة، وسد الثغرات، فإذا رأى طلباً قد أختل أردفه بثلاثمائة من مماليكه[٥]، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾[٦] .

أشرفت كراديس التتار وهم مثلا عساكر المسلمين، ولم يعتدوا منذ عشرين سنة مثل هذه العدة ولا جمعوا مثل جمعهم هذا، وأرسل أبغا مع أخيه منكوتمر خمسة وعشرين ألف فارس من النخبة من ضمن المائة ألف[٧]، وكان عدد فرسان المغول أكثر من خمسون ألفاً، ومعهم أكثر من ثلاثون ألفاً من جنسيات مختلفة من الروم والفرنج والارمن والكرج[٨] وكان ترتيب الجيش المغولي على النحو الأتي:

نور الدين زنكي، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٧.

(١) لقب للذي يحمل سلاح السلطان أو الأمير، ويتولى أمر السلاح خانة وما يتبعه، ومعناه ممسك السلاح، والسلحدار ضابط يعهد إليه العناية بالأسلحة، وكان عدد من السلحدارية يكون من ضمن الحرس السلطاني ، دهمان ، محمد : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، ص ٩١ ، ٩٢.

(٢) السنجقدار هو الذي يحمل الراية خلف السلطان أو الأمير، وهو مركب من لفظين : أحدهما فارسي وهو: دار بمعنى ممسك والثاني تركي وهو : السنجق بمعنى الرمح، سنجق بمعنى الراية ودار بمعنى ممسك، أي أنها راية معلقة في أعلى الرمح ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٣٠ ؛ دهمان ، محمد : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، ص ٩٣ ؛ حلاق ، حسان وصباغ ، عباس : المعجم الجامع ، ص ١٢٠ ، ١٢١.

(٣) الطبر دار هو الذي يحمل الطبر حول السلطان عند ركوبه في المواكب وغيرها، وهو مركب من لفظين فارسيين أحدهما طبر ومعناه الفأس، ولذلك يقولون في السكر الصلب الشديد الصلابة طبرزذ بمعنى يكسر بالفأس، والثاني دار معناه ممسك، فيكون المعنى ممسك الطبر ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٣٠ ؛ دهمان ، محمد : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، ص ١٠٦.

(٤) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ١٩٧ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ٢٣ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤٦ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ١٤٨.

(٥) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤٦.

(٦) الصف : آية ٤.

(٧) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤٦.

(٨) العيني: عقد الجمان ، ج١ ، ص١٤٨ ؛ ينظر، النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص٢١ ؛ ابن خلدون : تاريخ، ج ٥ ، ص ٤٥٧ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج١ ، ص ٤٧١.

الميمنة وفيها الأمراء: صمغار، وألناق بهادر، وطنجو بهادر، وعايد، وبلطو، وينحي، وكان في **ميسرتهم:** قرمشي بن هندوغور، وبراجار، والبابا شمس الدين والد الأمير جنكلي، ودريبه، وتمدار، وملك الكرج تجاه ميمنة المسلمين، وكان في **القلب** منكوتمر بن هلاكو، ومعه تلاجي، وقراتغيه بن يصمت، ججكاب بن جمغان، ومن الأمراء طلاطاي، ونكباي، وغيرهم[١].

التقى الجيشان في صباح يوم ١٤ رجب سنة ٦٨٠هـ/ ٢٨ أكتوبر ١٢٨١م، بالقرب من قبر الصحابي خالد بن الوليد ﷺ بظاهر حمص[٢]، وصدمت ميسرة المغول ميمنة المسلمين التي يقودها عيسى بن مهنا صدمة شديدة، فثبت عيسى بن مهنا ومن معه في الميمنة، ثم حملوا على ميسرة التتار، وتغلغلوا في القلب الذي يوجد به منكوتمر بن هولاكو، وقد تمكنت ميمنة المغول من كسر ميسرة المسلمين، التي يقودها سنقر الأشقر، وانسحب كثير ممن كان بها، وانكسر جناح القلب الإيسر الإسلامي[٣]، وانكسرت ميسرة وجناح القلب[٤]؛ بسبب تراكم كراديس المغول وترادفها، وكان المغول قد بالغوا في تقوية ميمنتهم وأمعنوا في كثرتها[٥]، وبسبب قيام عيسى بن مهنا ومن معه من البدو، بارتكاب خطأ فادح، فقد قاموا بجمع الغنائم من المغول، بعد أن نجح ابن مهنا في كسر ميسرة التتار والالتفاف خلفهم[٦]، ويروي المقريزي: «لم يعلم المسلمون من أهل الميسرة، بما جري للمسلمين أهل الميمنة من النصر، ولا علم التتار الذين ساقوا خلف المسلمون ما نزل بميسرتهم من الكسرة»، وهذا يبين أن خطأ ابن مهنا غير مقصود، وأن اضطراب قد وقع في الجيشين الإسلامي والتتري معاً، وأعتقدَ كل من الطرفين أنه حقق النصر الكامل.

ثبت السلطان المنصور قلاوون في جمع قليل بالقلب ثباتاً عظيماً، وكانت ميسرة المسلمين قد انكسرت تماماً، ولاحقت ميمنة التتر ميسرة المسلمين حتى بحيرة حمص[٧]، وتحت ضغط ملاحقة التتر وصل الهاربين من الجيش الإسلامي إلى دمشق ومنهم ومن وصل حلب، وبعضهم

---

(١) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ١٨٠.
(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٠.
(٣) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤٦ ، ١٤٧.
(٤) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٢٤٣.
(٥) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ١٨٠.
(٦) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٢٤٣.
(٧) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٠.

وصل غزة[١]، وأحدق جماعة من التتر بحمص، ووجدوا أبوابها مغلقة أمامهم، وقاموا بارتكاب مجازر، فقتلوا كل من وجدوه من الناس والبائعين، والأطفال والمجاهدين المنسحبين، وقتلوا منهم عدد كبير، واضطرب الناس وانزعجوا انزعاجاً عظيما[٢]، ثم نزل المغول بحمص يطبخون ويشوون ويأكلون، وتيقنوا في أنفسهم أنهم قد كسروا جيوش المسلمين[٣]، وبالرغم من اضطراب صفوف المسلمين فقد بقي السلطان قلاوون ثابتاً، وأستمر الجيش الإسلامي بضرب الطبول، وثبت معه عدد من الأمراء الشجعان مثل، سنقر الأشقر، وبدر الدين بيسرى، وعلم الدين الدويداري، وعلاء الدين طيبرس الوزيري، وبدر الدين أمير سلاح، وسيف الدين ايتمش السعدي، وحسام الدين لاجين المنصوري، وجاليش العسكر حسام الدين طرنطاى، وأخرين، وهجموا المغول عدة هجمات، لكنها ضعيفة[٤]، وعندما شاهد الأمير الحاج عز الدين أزدمر وضع الجيش الإسلامي سيئاً والمسلمين مقبلين على الهزيمة، التفت إلى مماليكه يميناً وشمالاً، وقال: «لا يصحبني من يريد الحياة»[٥]، وهاجم مع مماليكه، بشجاعة كبيرة على المغول[٦]، واخترق القلب الذي فيه قائدهم مكنوتمر بن هولاكو[٧]؛ فحمل الحاج أزدمر على عسكر التتار وأظهر بذكاء أنه منسحب[٨]، ونجح في الوصول إلي منكوتمر في القلب، فطعنه برمحه وجرحه[٩]، ثم ألقاه من على فرسه إلى الأرض، واستشهد الحاج أزدمر في هذا الهجوم[١٠]، واستشهد جميع مماليكه ولم ينجى منهم أحد، بعد أن قتلوا عدداً كبيراً من المغول، وقَلب هجوم الحاج أزدمر المعركة لصالح

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤٧.

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٠ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤٧.

(٣) قرطاي : تاريخ مجموع النوادر ، ص ١٧٩.

(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٠.

(٥) قال عكرمة بن أبي جهل ﷺ وهو يقاتل في معركة اليرموك مقولة شبيهة بهذه المقولة، وقال في معركة اليرموك : «من يبايعنى على الموت؟» فبايعه عمُّه الحارث بن هشام ، وضرار ابن الأَزور في أَربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا، وقُتِلوا جميعاً إلا ضرار ابن الأَزور، ابن الأثير:أسد الغابة، ج٤، ص٧٩.

(٦) قرطاي : تاريخ مجموع النوادر ، ص ١٨٠.

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٦.

(٨) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤٧.

(٩) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٦.

(١٠) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤٧ ، ١٤٨.

الجيش الإسلامي[١]، فلما سقط منكوتمر اضطرب الجيش التتري، نزل أمراء التتر من على خيولهم لتفقد قائدهم المصاب وعلاجه؛ فاستغل الجيش الإسلامي إصابة منكوتمر وانشغال قادته وجيشه بتفقده[٢]، وشن الأمير عيسى بن مهنا ومن معه من البدو هجوماً بالعرض، فاضطرب جيش المغول اضطراباً شديداً وانصدموا من هجوم عيسى ابن مهنا الابداعي والمفاجئ، وازدادت حماسة الأمراء: سنقر الاشقر وبيسرى، وطيبرس الوزيري، وبدر الدين أمير سلاح، وايتمش السعدي، وحسام الدين لاجين، وحسام الدين طرنطاي، والدوايداري[٣]، وحملوا حملة قوية على الجيش التتري مع من تبقى معهم من الجيش الإسلامي[٤]؛ فلم يثبت مكنوتمر وانسحب؛ بسبب جرحه، فتبعه جيشه، وتشتتوا؛ بسبب خوفهم واضطرابهم، وتفرقوا إلى فرقتين: فرقة انسحبت نحو سلمية والبرية، وفرقة أخذت ناحية حلب والفرات؛ فأرسل المنصور قلاوون الجيش يتبعهم[٥]؛ فتبعهم الجيش الإسلامي يقتل ويأسر بالمنهزمين من المغول[٦].

اضطرت ميمنة المغول التي كسرت ميسرة المسلمين ودخلت مدينة حمص، للانسحاب من المدينة بعد ورود أخبار لهم بهزيمة جيشهم الرئيسي، وكان السلطان واقف في مكانة وقد امر السلطان بطوي السناجق ووقف ضرب الكوسات، بعد مرور المغول المنسحبين من حمص بجانبه بعد هزيمة جيشهم، مروا من أمام السلطان قلاوون لم يكن معه سوى ألف فارس من مماليكه[٧]؛ لأن الجيش الإسلامي جزء منه كان منكسراً والباقي ذهب يلاحق منكوتمر وجيشه، بعد أن جرح وأنهزم بجيشه، وعاينوا هؤلاء العائدين السلطان قلاوون وحوله مماليكه؛ فطمعوا به واعتقدوا بأنه لقمة سهلة، فقاتلوه، وثبت السلطان ثباتاً عظيما، وتمكن من كسرهم وهزيمتهم، ولحقهم بهم وقتل كثير منهم، وكان هذا تمام النصر، وكان ذلك عند غروب الشمس[٨]، وتوجه من نجا منهم إلى

---

(١) قرطاي : تاريخ مجموع النوادر ، ص ١٨٠.

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ ؛ ينظر ، ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٢٤٤.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٥ ؛ ينظر ، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٠.

(٤) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٢٤٣.

(٥) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤٨.

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٥.

(٧) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤٨ ؛ ينظر ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٥.

(٨) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٥.

طريق الرستن ليلحقوا بقائدهم منكوتمر وجيشه المهزوم[١] .

استمرت المعركة يوماً كاملاً من الفجر حتى غروب الشمس[٢]، وانتهت باستشهاد أكثر مائتي رجل من المسلمين، منهم: الأمير عز الدين أزدمر الحاج الذي جرح منكوتمر مقدم التتار وألقاه عن فرسه، وكان سبب هزيمتهم، وسيف الدين بلبان الرومي الدوادار الظاهري[٣]، وعلم الدين سنجر الإربلي، وبدر الدين بكتوت الخزندار، وشمس الدين سنقر العرسي، وشهاب الدين توتل الشهرزوري، وسيف الدين بلبان الحمصي، وناصر الدين محمد بن جمال الدين صبرم الكاملي، وعلاء الدين على ابن الأمير سيف الدين بكتمر الساقي العزيزي، وناصر الدين محمد بن أيبك الفخري، وبدر الدين بيليك الشرفي، وشرف الدين بن علكان، وصاحب الموصل والقاضي شمس الدين بن قريش كاتب الدرج وقد عدم فلم يعرف له خبر[٤]، وقتل عدد كبير جداً من التتر لا يحصى عددهم، وقتل جميع أمراءهم وأبرزهم الأمير صمغار وهو من أكبر مقدميهم وعظمائهم، وكان له غارات عديدة على بلاد الشام، وفي ليلة الجمعة إلى السحر ١٥ رجب عاد العسكر الذي تبع المغول وقت الهزيمة، وقد قتلوا من المغول المنهزمين أكثر من الذين قتلوهم في المعركة، واختفي كثير من المغول بجانب الفرات، فأمر السلطان قلاوون أن تضرم النيران بالأزوار التي على الفرات؛ فاحترق وهلك كثير منهم[٥].

بعد انتهاء المعركة وتحقيق النصر على المغول، عاين المنصور قلاوون القتلى، وقام الحرافيش[٦] واللصوص بنهب الغنائم قبل تفقد السلطان لما حدث في أرض المعركة، ولم يفكر فيما ذهب من قماش أو ذهب، المهم أنه تحقق النصر، بالرغم من حاجته لهذه الغنائم، بسبب

---

(١) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ١٩٩.

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤١.

(٣) سيف الدين بلبان الدوادار الرومي الظاهري، كان في خدمة الظاهر بيبرس، ومستشاره، وكان ذكياً، ولما تولى بيبرس السلطنة جعله دوادار، الصفاعي ، تالي كتاب وفيات الأعيان ، ص ٥٣ .

(٤) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤٨ ، ١٤٩.

(٥) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤٨.

(٦) مفردها حرفوش، هو الذي ليس بصاحب صنعة أو حرفة، وتطلق على الرعاع وقطاع الطرق، وهم أفقر طبقات الشعب، وأصبح بعضهم من وجهاء بلاد الشام، وأصبح بعضهم أمراء في مناطق البقاع، وجوارها، ابن الحاج : المدخل ، ج ١ ، ص ٢٧٢ ؛ حلاق ، حسان وصباغ ، عباس : المعجم الجامع ، ص ٧٤ ؛ دهمان ، محمد : معجم الألفاظ في العصر المملوكي ، ص ٦٠ ، ٦١.

نقص الخزائن من الأموال، وكان نقصها بسبب تخصيص السلطان الأموال للمعركة[١] .

بناء على ما سبق يمكن القول بأن المماليك بفضل توحدهم حققوا انتصاراً باهراً على المغول، ومن كانوا بالأمس قد تمردوا على السلطان وفرقوا وحدة الجبهة الداخلية، كانوا أشد المقاتلين قتالاً على المغول في المعركة، فكان هجوم الحاج أزدمر، على القلب الذي فيه منكوتمر بن هولاكو، واصابته وايقاعه من على فرسة قد احدث اضطراباً في جيش المغول، وهذه استراتيجية يدركها المغول جيداً، وهي استهداف قائد المعركة، أو استراتيجية قنص القيادات العسكرية الكبرى، التي لها تأثير كبير في جيش العدو، واستخدمها المماليك في معارك سابقة ضد المغول كمعركة عين جالوت، عندما قام الأمير جمال الدين أقوش بقتل كتبغا، ومعركة ابلستين قتل المماليك قائد الجيش التتري تناون، واستخدمها الحاج أزدمر في معركة حمص الثانية، وكان تأثير هذا الهجوم باهراً، وكان السبب الرئيسي في تحقيق النصر على المغول، ثم تبعة هجو بالعرض من الأمير عيسى بن مهنا وكان هجوم ابن مهنا المحكم اكمالاً لهجوم الحاج أزدمر، واتبعه هجوم الامراء الحاسم ومنهم سنقر الأشقر، وكان الأمراء الثلاثة سنقر الأشقر والحاج أزدمر وعيسى بن مهنا قد تمردوا على قلاوون وقاتلوه، وعندما توحدوا مع قلاوون كانوا اكثر الأمراء شجاعة في المعركة، وهم الذين حسموها لصالح المسلمين، ولو لم تحدث الوحدة، لفقد الجيش الإسلامي الإبداع العسكري الذي يحمله هؤلاء الأمراء الثلاثة، وبالتالي ستحدث هزيمة فادحة للجيش الإسلامي، ولكن الله ألف بين قلوبهم، ووحد كلمتهم، ونصرهم على عدوهم.

في يوم الجمعة ١٥ رجب٦٨٠م / ٢٩ أكتوبر ١٢٨١م، أرسل قلاوون كتيبة تتبع المغول بقيادة الأمير بدر الدين بيليك الأيدمري[٢]، وأرسل معه خمسة آلاف فارس[٣]، ولما وصلت أخبار هزيمة الجيش المغولي إلى أبغا بن هولاكو وهو في متخفياً في الرحبة، هرب منها مسرعاً إلى بغداد قبل أن يدركه الأمير بدر الدين الأيدمري، ولحق الأمير الأيدمري المغول إلى حلب، وتقدم حتى وصل نهر الفرات ففروا منه، وغرق منهم خلق كثير، وعبرت طائفة منهم على قلعة البيرة فقاتلهم أهلها، وقتلوا منهم خمسمائة وأسروا مائة وخمسين[٤]، ويروي المؤرخ ابن أيبك عن ابيه،

---

(١) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ١٩٩ ؛ العيني ، عقد الجمان ، ج ١ ، ص ١٨١.

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤٨.

(٣) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٢٤٤.

(٤) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٥٠.

والذي كان مع الملاحقين للمغول وقال: «كنت فيمن جُرد مع الأيدمري خلف التتار، فسقنا خلفهم إلى النهر الأسود وقتلنا منهم خلق كثير وأسرنا ما يزيد عن خمس مائة نفر، وإن التتار قتلوا بعضهم بعضا، ولولا عرب خفاجة أخذوا كبارهم ودلوا بهم على الطريق والمخايض لكنا أخذناهم عن أخرهم»[١]، وهرب من المغول ألف وخمسمائة فارس إلى بغراس، وفيهم أكابر أصحاب سيس وأقاربهم، فخرج عليهم الأمير شجاع الدين السيناني بمن معه فقتلهم وأسرهم عن آخرهم، بحيث لم يفلت منهم إلا دون العشرين، وكان قد توجه إلى سلمية[٢] نحو أربعة آلاف، فأنتظرهم عسكر الرحبة، في الطرقات والمعابر؛ فساروا في البرية فماتوا عطشا وجوعا، ولم يسلم منهم إلا نحو ستمائة فارس؛ فخرج إليهم أهل الرحبة فقتلوا أكثرهم وأحضروا عدة منهم إلى الرحبة ضربت أعناقهم بها، وأدرك بقية التتر الملك أبغا في بغداد وفيهم أخوه منكوتمر، وهو جريح؛ فغضب عليه أخيه أبغا[٣]، وقال له :«لِمَ لا مُت، ولا جيتني مكسوراً»، وغضب على جميع الأمراء الذين أتوا معهُ، ثم توجه أبغا إلى همذان، وتوجه منكوتمر إلى بلاد الجزيرة عند أمه، وكان هولاكو عندما احتل جزيرة ابن عمر اعطاها لأم منكوتمر[٤].

وفي صباح يوم الجمعة ١٥ رجب سنة ٦٨٠هـ/٢٩ أكتوبر ١٢٨١م أرسل المنصور قلاوون بشائر النصر إلى كافة الأمصار وبدأ بالشام ومصر[٥]، قال تعالى : ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ، وَبشر الْمُؤْمِنِينَ﴾[٦]، وفرح المسلمين كثيراً بهذا النصر العظيم، وطابت نفوس أهل الشام بعد أن جفلوا[٧]، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾[٨]، وعاد الأمير بدر الدين الأيدمري في ٢١ رجب سنة ٦٨٠هـ/٤ نوفمبر ١٢٨١م، بعد أن نجح في قتل وأُسر الكثير من المغول، وجاءت التهاني للمنصور قلاوون من اليمن، وغيرها من البلاد

---

(١) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٢٤٤.

(٢) قرية في ناحية البرية، وكانت تعد من أعمال حمص، ولا يعرفها أهل الشام إلا بسلمية، وفيها قبور كثير من التابعين، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٤٠.

(٣) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٥٠.

(٤) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٢٤٨.

(٥) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠.

(٦) الصف : آية ١٣.

(٧) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥.

(٨) الروم : آية ٤ ، ٥.

الإسلامية[١] .

دخل المنصور قلاوون دمشق يوم الجمعة ٢٢ رجب سنة ٦٨٠هـ/ ٥ نوفمبر ١٢٨١م، قبل صلاة الجمعة، وخرج الناس لاستقباله، وكان معه عدد كبير من أسرى المغول، وبأيديهم رماح، عليها شعف رؤوس القتلى منهم، وكان يوماً مشهوداً، ودخلها مع جميع المماليك الذين كانوا متخاصمين معه، وأبرزهم: سنقر الأشقر، والأمير سيف الدين التميش السعدي، والامير علم الدين سنجر الدواداري[٢]، وسيف الدين بلبان الهاروني، وغيرهم، ودخل قلعة دمشق، وكان سنقر قد ودعه من حمص، وعاد إلى صهيون[٣]، ورغب عدد من الامراء الظاهرية بالعودة إلى مصر مع المنصور قلاوون، وهم : سيف الدين أيتمش السعدي، وعلم الدين الدواداري، وكراي التتري وابنه، وتماجي وعدد من الأمراء، وبقوا مع السلطان ودخلوا معه إلى مصر[٤].

خرج المنصور قلاوون من دمشق عائداً إلى مصر، فوصلها يوم السبت ٢٢ شعبان ٦٨٠هـ/ ٥ ديسمبر ١٢٨١م، وقد زُخرفت بأنواع الزينة، وكان معه أسرى المغول مصفدين بين يدية ورؤوس قتلاهم على الرماح، وقد ازدادت قوة وهيبة قلاوون بعد النصر العظيم الذي حققه مع أمراء المماليك الشجعان، ووصلت له هدايا من ملك اليمن المظفر شمس الدين بن رسول، وهي هدايا ثمينة، من العود والعنبر واللانس الصيني، والنطوع، ورماح القنا، وغيرها، وشاهد رُسل ملك اليمن أسرى المغول، وعجبهم منظر المغول مذلين مهانين في الأسر، ورحب المنصور قلاوون برسل ملك اليمن، وكتب المنصور قلاوون، برسالة أمان ومودة وشكر لملك اليمن على قميص، ووصلت رسائل تهنئة من كثير من ملوك المسلمين للمنصور قلاوون، ومدحه الشعراء، وقال الأمير ركن الدين بيبرس الفارقاني[٥] أبيات من الشعر، وأشار فيها إلى دور الوحدة في

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٥١.

(٢) علم الدين سنجر الدواداري، كان في أواخر سلطنة الصالح أيوب، وفي دولة الظاهر بيبرس، كان أميراً في حلب ثم دمشق، وأضيف إليه قيادة الجيش، والدواوين، ووضع في نيابة دمشق سنة ٦٧٨هـ/١٢٨٠م في عهد السعيد بركة مؤقتاً، وعزل سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٥، قم أعيد سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٨م، وحضر مع الناصر محمد بن قلاوون في معركة وادي الخزندار ضد المغول سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م، الصقاعي : تالي كتاب وفيات الأعيان، ص ٨٧.

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤١.

(٤) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٢٠٠.

(٥) الأمير بيبرس الفارقاني، كان نائباً في قلعة دمشق، وكان شيخاً خيراً، متديناً، توفي في جمادى الأولى سنة ٧٤٥هـ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٤٩.

تحقيق النصر في معركة حمص الثانية، وكان الأمير بيبرس الفارقاني أحد أمراء العشرات وهو تركي، وكان رجلاً ذكياً إلا أنه كان في الكتابة والقراءة أمياً وكان يزن الشعر بالطباع، وكان شعره جميل، ولا يعتب عليه للحنه، وتم إصلاح ما يمكن اصلاحه من إعرابها عند كتابتها، والأبيات التي أشار فيها إلى دور الوحدة وتحقيق النصر هي:

بَـــدَا الْإِسْـــلَامُ فِـــي سَـــعْد جَديـــد ... هنَـــــاهُ للْمـــــــوَالِي وَالْعَبيـــــد
وجزْنَـــا الشـــام فِـــي جَـــيْشٍ عَظِـــيمٍ ... سِـــوَى جَـــيْشِ الأعـــاربِ وَالْحُشُـــودَ
فَقَـــصَ الْقَاصِـــدُونَ حَـــديث قُـــوَّمٍ ... بِـــأَرْضِ الـــرُّومِ مَـــعَ خَيْـــلِ الْبَريـــد
فَسَـــرَنَا حِـــينَ سَـــارُّوا وَالْتَقَيْنَـــا ... عَلَـــى حِمَّـــص مُســـربلة الْحَديـــدَ
وَصَـــــارَ النَّصْـــــرُ لِلْمَنْصُـــــورِ ... عَوْنَـــا بِهِمَّـــةِ خَالِـــدِ بُـــنِّ الْوَلِيـــدِ
إِذَا مَـــا شِـــئْتِ ان تَحِيَـــا هَنِيئًـــا ... عَوْنَـــا بِهِمَّـــةِ خَالِـــدِ بُـــنِّ الْوَلِيـــد
تُـــرى مِـــنْ تَحْتهَـــا مِلْكَـــا حَلِيمَـــا ... وَفِيًّـــــا بِـــــالْمَوَاثِقِ وَالْعُهُـــــود
هُـــوَ الْمَنْصُـــورُ خَـــوَّاض الْمَنَايَـــا ... إِذَا مَا الْحُرّ تَسْعَـــــرُ بِالْوَقُـــود[1]

كما وأشار الشاعر ناصر الدين بن النقيب، إلى دور توحيد الجبهة الداخلية في تحقيق النصر على المغول في معركة حمص النصر، في قصيدة كتبها، والأبيات التي أشار بها إلى الاختلاف والوحدة والنصر هي:

وَمِـــنْ مُخْبِـــر خاقـــانٍ أَنَّ قَبِيلَـــه ... قَـــدْ أَعطَـــاهُمْ اللَّـــهُ الْمَهَابَـــةِ والنصـــرا
فَـــلَا يَعْتَقِـــدَ مُغِـــل التتـــار بِـــأَنّهُمْ ... قَـدْ اِخْتَلَفُـوا فِـي الـرّاي او أَضْـمَرُوا غَـدَرا
فَمَـــا اِخْتَلَفَـــتْ مِـــنهُمْ قُلُـــوبَ تألفـــت ... عَلَى الشُّكْرِ فِي الدُّنْيَا أو الْأَجْرَ فِي الأُخْرَى
وَقَـــدْ تَنْفِـــرَ الْأَطْيَـــارُ عَـــنْ وكناتهـــا ... لِـــوَهَّمَ جَـــرَّى يســـتوجُب الْخـــوَّفَ والحـــذرا
إِلَـــى ان يَـــزُولَ الْـــوَهْمُ عَنهَـــا فَتَنْشَّـــنِي ... الْقُلُـــوبُ جَمِيعَـــا بِالتَّشَـــوُّشِ وَالـــذِّكْرَى
وَمَـــا فَارَقَـــتْ زَهْـــرُ النُّجُـــومِ سَـــمَاءَهَا ... وَلَا الْمَـــاءُ مجـــراه وَلَا الْحَبَـــبُ الخمـــرا
وإن اصْـــبَحُوا شَـــتَّى فـــان قُلُـــوبَهُمْ ... جَمِيعًـــا عَلَـــى الْأَعْـــدَاءِ قَـــدْ اعملـــت فِكْـــرا
وَقَـــدْ نَـــزَغَ الشَّـــيْطَانُ مَـــا بَـــيْنَ يوســـف ... واخوتـــــه حَتَّـــــى ارْدُوا بِـــــهِ شَـــــرّا
وَصَـــارَ إِلَيْـــهِ الْأَمَـــرَّ عِنْـــدَ عَزِيزِهَـــا ... فَكَـــانَ بِـــهِ الْأَوْلَـــى وَكَـــانَ بِـــهِ الْأُخْـــرَى
وَجَاءَتْـــهُ مُحْتَـــاجِينَ اخوتـــه الَّتِـــي ... تُمَـــالُوا عَلَيـــهِ طَـــالِبِينَ بِـــهِ غَـــدرَا

(١) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨.

فَأَعْطَـــاهُمْ مِمَّـــا لَدَيـــهُ وَمَـــارِّهِمْ وَزُودِهِـــمْ بُـــرًّا وَزَادَهُـــمْ بِـــرَا
وَقَـــدْ قَـــالَ: لَا تَثْرِيـــبُ بُعْـــد عَلَـــيكُمْ وَقَـــدْ سَـــأَلَ اللَّـــهُ الْكَـــرِيمِ لِهُـــمْ غَفَـــرَا
فَسُـــلْطَانُ مُصِـــرٌّ يَقْتَفِـــي اثْـــرُ يوســـف لِيُقْنَـــى ثَـــوَابُ اللَّـــهِ وَالْحَمْـــد والشـــكرا
وَيَعْلَـــمُ ان اللَّـــهَ فِـــي آثـــره اذا عَلَـــيهُمْ بِمَـــا أَعطَـــاهُ مِـــنْ نِعْـــمَ تَتِـــرَا
وَلِلَـــهُ فِـــي مُلَّـــك الْمُلُـــوكِ سَـــرِيرَة لِمَصْـــلَحَةِ قَـــدْ شَـــاءَهَا وَهِـــي لَا تُـــدْرَى
لِخَيَّـــرَ أَرَادَّ اللَّـــهُ مُلَّـــكُ قَـــلاُونَ فَأَحْيَـــا بِـــهِ الْإِسْـــلَامُ وَالْمِلَّـــةُ الْغَـــرا[١]

وتعقيباً على ما سبق يمكن القول بأن المماليك لم يكتفوا بالنصر في المعركة، بل أكملوا النصر بملاحقة المغول، وقتل عدد كبير منهم في جميع المناطق التي هربوا إليها؛ وهذه كانت خطوة ذكية، فلو الجيش الإسلامي بعد تحقيق النصر في المعركة، لربما اخذ المغول أنفاسهم وهاجموا بلاد الشام مرة أخرى، وبقيت الجبهة الداخلية المملوكية متماسكة، بعد تحقيق النصر في معركة حمص الثانية، ولم تعد الاحقاد، ولم يحدث إعادة نبش الصراع الذي كان قبل الوحدة.

أُصيب منكوتمر بن هولاكو بغم شديد، بعد هزيمته في معركة حمص الثانية، وكان ينوي جمع الجيش التتري، وقصد بلاد الشام، والأخذ بثأره، لكنه اشتد عليه الألم ونقص وزنه، وعندما لم يستطع تحقيق نيته أصيب بالصرع، حتى مات وهو يأكل لسانه بأسنانه من شدة الصرع، وكانت وفاته ما بين أواخر ذي الحجة سنة ٦٨٠هـ/ أبريل ١٢٨٢م، واوائل محرم سنة ٦٨١هـ/ أبريل ١٢٨٢م، وكان عمره عندما توفي نيف على ثلاثين سنة [٢]، وكان موت منكوتمر بن هولاكو، بجزيرة ابن عمر، مكموداً[٣]، وهناك رواية ثانية حول موت منكوتمر، وهي أن القاضي جمال الدين بن العجمية[٤] سقاه سماً فمات منه، وعندما علم المغول بفعله، قتلوا جمال الدين وابادوا عائلته كلها[٥]، وكان الذي شجع جمال الدين بن العجمية، هو صاحب الديوان علاء الدين الجويني[٦]، وكان علاء الدين قد أرسل رسولاً إلى المنصور قلاوون؛ ليملكه البلاد التي بقيت

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥.

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٧١.

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٧١.

(٤) ذكر النويري أن الشخص الذي سم منكوتمر، هو مسلم واسمه مؤمن أغا، وعندما كشف المغول أنه الفاعل، هروب إلى مصر ؛ فكافأه المنصور قلاوون بمنحه إقطاعاً ، النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ٢٧٠.

(٥) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٢٤٨.

(٦) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ٢٧٠.

تحت الاحتلال المغولي، ولكن المغول تمكنوا من القبض على رسول علاء الدين، وعرفوا محتوى الرسالة، فقبضوا عليه وارسلوه إلى أبغا، وجاء الرسول وأعترف بأنه أخذ ألف دينار مقابل إيصال الرسالة؛ فأمر أبغا بتعذيب الرسول تعذيباً شديدا، ويقال أن الرسالة مزورة، وكانت بهدف نية أمراء المغول التخلص من علاء الدين الجويني[١]، وقبض على علاء الدين وأخذ أمواله، وكان علاء الدين الجويني شاعراً، له شعر جميل، ومنه:

أباديةُ الأعرابِ عنيِ فإنني بِحاضرةِ الأتراكِ نِيطت عَلائقي

وأهْلك يا نجل العيونِ فإنني جننت بهذا الناظرِ المتضايقِ[٢].

بعد هزيمة المغول القاسية في معركة حمص الثانية؛ بدأت حالة زعيم المغول أبغا بن هولاكو بالنقص[٣]، ومات غماً وكمداً، وله من العمر نحو من خمسين سنة، في منتصف ذي الحجة سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨٢م في قرية من قرى بابل بهمذان، وقيل: في بلدة اسمها كرمانشهان من بلاد همذان، ودفن في قلعة تلا عند أبيه، ومات بعده بيومين أخوه اجاى[٤]، ووصل خبر موته إلى دمشق في أوائل سنة ٦٨١هـ/ أبريل ١٢٨٢م[٥]، ويقال أن الصاحب شمس الدين محمد الجويني (شقيق علاء الدين الجويني)، قد دس له السم وسقاه، خوفاً من قيامه بقتل أخيه علاء الدين[٦]، لما مات أُبغا بن هولاكو، وقع الاختلاف بين التتر، وبدأ الصراع بينهم على الحـكم، وكاد ملوكهم أن يقتلوا بغضهم بعضا، وأتفقوا في النهاية على تولية أحد ابناء هولاكو، ووقع اختيارهم على أحمد بن هولاكو[٧] وهو مسلم[١]، وقد لعب علاء الدين الجويني وأخيه الصاحب

---

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٩٠.

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٧١ ؛ ينظر النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ٢٧٠.

(٣) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ٢٧٠.

(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٣.

(٥) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٣.

(٦) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ٢٧٠.

(٧) أحمد بن هولاكو ، واسمه الحقيقي تُكدار، دخل في الإسلام، وكان شيخه الشيخ عبد الرحمن، والذي كان يعتبره قدوة له، فكان يحثه على مصالحة المسلمين، وخدمتهم، وأمره بالوحدة بين المسلمين، وأجاب طلبه الخاص بمصالحة السلطان المنصور سيف الدين قلاوون، فكتب على يد الشيخ عبد الرحمن، رسائل تدل على دخوله في الاسلام، واتباعه أوامر الله تعالى في الحلال والحرام، وتوجه بها الشيخ عبد الرحمن، فلما وصل الشام بلغه خبر مقتل أحمد تُكدار على يد أبن أخيه أرغون بن أبغا، فبطل توقيع الصلح بين قلاوون وأحمد تُكدار، الذي جاء الشيخ عبد الرحمن بسببه، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٨٤.

شمس الدين الجويني دوراً مهماً، في تولية أحمد بن هولاكو على عرش دولة المغول[٢]، وتسمى بأحمد سلطان واعلن دين الإسلام في دولة المغول، وراسل المنصور قلاوون؛ للصلح مع المماليك[٣] .

من خلال ما سبق يتبين أن هزيمة جيش المغول في حمص، قد أثرت على نفسية أبناء هولاكو– منكوتمر، وأبغا، وأرجح بأن يكون منكوتمر قد مات مكموداً، ومتأثراً بإصابته؛ لأنه مات بعد حوالي شهر من معركة حمص الثانية، والواضح أنه واجه صعوبة في علاجه؛ لأن الجيش الإسلامي لاحقهم بسرعة وضغط عليهم في الملاحقة، حتى لم يسمح لهم بالتقاط أنفاسهم، ولأن اصابته كانت اصابتين، فقد طعن بالرمح، ووقع من على الفرس، ثم تبعتها الأزمة النفسية والصرع الذي أصابه، أثر هزيمته في معركة حمص الثانية، أما في رواية السم فالمرجح بأن علاء الدين الجويني قد سمم أبغا فقط، بعد أن شعر بضعفه تجرأ على سمه، وأن لعائلة الجويني المسلمة مناصب إدارية في دولة المغول، وربما قاما بتسميم أبغا انتصاراً للإسلام، بعد أن شعر علاء الدين الجويني وأخيه شمس الدين الجويني بحالة الضعف، والاضطراب النفسي الذي أصابت عائلة هولاكو بعد معركة حمص القاسية، مهما يكن الأمر فقد كان لهزيمة المغول في معركة حمص دور مهم، في هلاك أبغا ومنكوتمر، ويتضح ذلك من خلال حالة الضعف والحالة النفسية التي ظهرت عليهما بعد الهزيمة مباشرة، وقد ونتج عن موت أبغا اشتعال الصراع الداخلي بين المغول، وتولية أخية أحمد المسلم.

خامساً– دور الوحدة في تحقيق النصر في معركة حمص الثانية:

١– مراسلات الوحدة بين السلطان المنصور قلاوون والأمير سنقر الأشقر أبان الهجوم المغولي على بلاد الشام، لم توقف الزحف المغولي عند حلب فحسب، بل جعلتهم ينسحبون مضطربين خائفين، وعندما تم توقيع الوحدة زاد خوف المغول من هذه الوحدة[٤].

٢– ارتفاع الروح المعنوية عند الناس، وقويت عزائم الجند بعد توقيع قلاوون الصلح مع سنقر

---

(١) قرطاي : تاريخ مجموع النوادر ، ص ١٨٠.

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٩٠.

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٧٢.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٩٨، ٢٩٩؛ ينظر، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣ ، ص٢٩٢.

الأشقر والمسعود خضر، وإتمام توحيد الجبهة الداخلية للمماليك[١] .

٣- كان أمراء المماليك الذين حاربوا السلطان المنصور قلاوون، هم قادة الميمنة والميسرة، فكان الأمير سنقر الأشقر قائداً على الميسرة، والأمير عيسى بن مهنا قائداً على الميمنة[٢].

٤- الدعم العسكري والنجدة التي ارسلها المسعود خضر من الكرك لقلاوون بعد إتمام الوحدة؛ ساهمت في تقوية الجيش الإسلامي الذي يترأسه المنصور قلاوون، ودخول كثير من البدو والتركمان والأكراد قد قوى صفوف الجيش المملوكي[٣] .

٥- ازدادت قوة جيش قلاوون بعد توحيد الجبهة الداخلية، وقدوم سنقر الأشقر، ومعه الأمراء الذين كانوا متحالفين مع سنقر الأشقر ضد قلاوون، ومنهم: الحاج أزدمر، وبيجق اليغدادي، وكراي، وشمس الدين الطنطاش، والمماليك الظاهرية في حمص[٤]، وكان ثبات سنقر مع قلاوون قد ساهم في تحقيق النصر على المغول[٥] .

٦- كانت هجمات سنقر الأشقر، والحاج أزدمر، وعيسى بن مهنا في معركة حمص الثانية، هي التي حققت النصر على المغول، فالهجوم القوي الذي شنه الحاج أزدمر؛ أدى إلى إصابة منكوتمر بن هولاكو وإسقاطه من على فرسه، وقد أدى هجومه إلى اضطراب جيش المغول، وكان السبب المباشر في هزيمة المغول، وقد أكتمل النصر بهجوم عيسى بن مهنا المحكم والمفاجئ، ثم تبعه هجوم الأمراء الكبار، ومنهم سنقر الأشقر[٦] .

---

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج٢ ، ص ٣٨.

(٢) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ١٧٩.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٤ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤٦.

(٤) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ١٧٨.

(٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٠ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ١٨٠.

(٦) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ ؛ ينظر ، الذهبي : العبر ، ج ٥ ، ٣٢٧.

الفصل الثالث : **أثر توحيد جبهة المماليك الداخلية في تحقيق النصر على المغول في معركة مرج الصُفر** (**شقحب**) **عام ٧٠٢هـ/١٣٠٣م**:

- **المبحث الأول: سوء الأوضاع السياسية في دولة المماليك بعد مقتل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، وغزو المغول لبلاد الشام:**
- **المبحث الثاني: الوحدة بين المماليك بعد احتلال غازان لبلاد الشام، ودور الوحدة في تحقيق النصر على المغول في معركة مرج الصُفر (شقحب) عام ٧٠٢هـ/١٣٠٣م:**

المبحث الأول: سوء الأوضاع السياسية في دولة المماليك بعد مقتل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، وغزو المغول لبلاد الشام:

أولاً- استمرار الوحدة من معركة حمص الثانية حتى مقتل الأشرف بن قلاوون:

حافظ السلطان المنصور قلاوون على الوحدة بعد النصر في معركة حمص الثانية عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م، وتمكن من تحرير حصن المرقب وطرابلس من أيدي الصليبيين، وكان ينوي غزو عكا وتحريرها من الصليبيين، ولكن مرضه حال دون ذلك، وتوفي في ٦ ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ/ ٩ نوفمبر ١٢٩٠م، وتولى بعده ابنه الأشرف صلاح الدين خليل، ولما استقر السلطان الأشرف في السلطنة، عمل على ضبط الوحدة الداخلية، وضيع على مماليك أبيه الكبار فرصة التحكم به، فقبض على حسام الدين طرنطاي[١] نائب السلطنة، الجمعة في يوم الجمعة الثاني عشر ذي القعدة من نفس العام، وفوض نيابة السلطنة إلى بدر الدين بيدرا[٢]، والوزارة إلى شمس الدين محمد بن السلعوس[٣]، وتمكن الأشرف خليل بفضل الوحدة الداخلية من تحرير عكا، ولما فُتحت عكا، ألقى الله تعالى الرعب في قلوب الصليبيين الذين بساحل الشام، فسلموا صيدا وبيروت، وصور وأنطرطرس[٤]، وبذلك تمكن الأشرف خليل من تطهير بلاد الشام من الصليبيين[٥]، وفي عام ٦٩١هـ/١٢٩٢م قبض السلطان خليل بن قلاوون على الأمير حسام الدين لاجين، وولى الأمير عز الدين أيبك الحموي في نيابة دمشق، وعزل الأمير علم الدين سنجر الشجاعي[٦]، وعزل الأمير قراسنقر المنصوري[١] من نيابة حلب، وولى مكانة سيف الدين

---

(١) حسام الدين طرنطاي المنصوري، كان من مماليك سيف الدين قلاوون الألفي، وعندما تولى قلاوون السلطنة، جعله في نيابة السلطنة بمصر، ولعب دوراً مهمها في معركة حمص الثانية، وعندما تولى الأشرف خليل بن قلاوون السلطنة في سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، قام بقتله، الصقاعي: تالي كتاب وفيات الأعيان، ص٩٤.

(٢) بدر الدين بيدرا، كان من الأمراء المفضلين عند أستاذه السلطان المنصور قلاوون، وكان من كبار أمراء دولته، وكان نائباً له في السلطنة، وكان عادلاً، لكنه خرج على السلطان الأشرف خليل وقتله، ثم قتله الأمراء، وهو شاباً لقيامه بقتل السلطان خليل، الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٥٢ ، ص ١٧٧ ، ١٧٨.

(٣) شمس الدين محمد بن عثمان التنوخي الدمشقي، كان تاجراً، وكاتباً، ووليا لحسبة دمشق، تولى الوزارة في مصر، في مصر ولُقب بالوزير الكامل، توفي سنة ٦٩٣هـ/١٢٤٢م، اليافعي: مرآة الجنان، ج٤ ، ص١٦٧

(٤) مدينة شامية بناها معاوية بن أبي سفيان، وكانت حصناً للبيزنطيين قبل أن يفتحها المسلمين، وهي غير مدينة طرسوس الشهيرة ابن جعفر: الخراج ، ج ١ ، ص ٢٩٨.

(٥) أبو الفداء : المختصر ، ج١ ، ص ٤٧٧ ، ٤٧٨.

(٦) علم الدين سنجر الشجاعي المنصوري، تربي بدمشق عند امرأة تُعرف بست قسا بجوار المدرسة المنكلانية،

بلبان الطباخي[٢]، وفي نفس العام أفرج الأشرف خليل عن الأمير حسام الدين لاجين المنصوري[٣]، وأعطاه أمرة مائة فارس، وأعاد له بعض مماليكه، وفي رجب سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢ حرر الأشرف خليل قلعة الروم من المغول، وكانت من أكثر القلاع تحصيناً، وأعظمها في ارتفاعاً[٤].

وتعقيباً على ما سبق يمكن القول بأن أثر تماسك وحدة الجبهة الداخلية للمماليك، بقيت من بعد معركة حمص الثانية، واستمرت في عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، وبفضل هذه الوحدة تم تحرير بلاد الشام، وقد حافظ الأشرف خليل بن قلاوون على الوحدة بالحزم والقوة، وإرهاب جميع المتربصين به في الداخل، والخارج من العدوين الأساسين للآمة آنذاك، وهما المغول، والصلبيين.

ودار صاحب حماة بدمشق، ذهب إلى مصر وتعلم الخط، والأدب، وأتصل بالأمير سيف الدين قلاوون الألفي، تولى الوزارة في سلطنته، وكان شديداً على المصريين، وفي سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م، و في عهد الأشرف خليل بن قلاوون تولى نيابة دمشق، عوضاً عن الأمير حسام الدين لاجين، ثم عزله وسجنه سنة٦٩١هـ/١٢٩٢م، وولى مكانه الأمير عز الدين أيبك الحموي، ثم جعله السلطان نائباً له بمصر، وقُتل الشجاعي سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٤م، الصقاعي : تالي كتاب وفيات الأعيان، ص ٩٠ ، ٩١.

(١) قراسنقر الجوكندار الجركسي المنصوري، أشتراه المنصور قلاوون قبل أن يتولى السلطنة، ويُقال أنه أحد السبايا، ووالده من النصارى، وكان ساقياً، ثم قام قلاوون بترقيته، وعرف من صغره بحسن التأني، وهو من أقران زين الدين كتبغا، وحسام الدين طرنطاي، تولى نيابة حلب لأستاذه المنصور قلاوون، أغراه الوزير ابن السلعوس وجعله يأتي إلى مصر من حلب، وجعله أمير جندار، في سلطنة الأشرف خليل، ولما تولى الناصر محمد بن قلاون، جعله في نيابة الصبيبة، ثم جعلة في نيابة حلب بعد كتبغا المنصوري، ثم في نيابة دمشق سنة ٧٠٩هـ/١٣١٠م، وفي سنة ٧١١هـ/١٣١٢م خرج منها، واستجار بالأمير البدوي مهنا بن عيسى بن مهنا ثم ذهب إلى ملك المغول في ربيع الأول سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م، وبقي في مراغة، وتوفي فيه سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٨م، وكان أمير ذا خبرة ودهاء، وكان يحترم العلماء ويعظمهم كالشيخ ابن تيمية، ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج ٤ ، ص ٢٨٧ – ٢٨٩.

(٢) سيف الدين بلبان المنصوري المعروف بالطباخي، كان من الأمراء الكبار في دولة المماليك، تولى في عهد المنصور قلاوون نيابة حصن الاكراد، وطرابلس، وشارك في العديد من الحملات العسكرية في عهد المنصور، والأشرف خليل، توفي سنة ٧٠٠هـ/١٣٠١م، الصقاعي : تالي كتاب وفيات الأعيان ، ص ٥٦

(٣) حسام الدين لاجين، كان أشقر رومياً مُعَرق الوجه، طويلاً مهيباً، موصوفاً بالشجاعة والإقدام، وهو من مماليك السلطان المنصور قلاوون، تدرج في المناصب، إلى أن أصبح من كبار أمراء الدولة، وأصبح سلطاناً، وكانت دولته سنتين وثلاثة أشهر، وقتل سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م، وعمره في الخمسينيات، الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٢٢٨.

(٤) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة ، ص ٢٨٨.

قبض السلطان خليل بن قلاوون على الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، وجرمك الناصري، وطقصو[١]، وأعدمهم[٢]، وفي عام ٦٩٢هـ/١٢٩٣م قبض على أبناء الأمير عيسى بن مهنا[٣]، وأفرج عن الأمير بدر الدين بيسري الشمسي بعد اعتقال ثلاث عشرة سنة[٤]، ومن أخطاء سياسة الأشرف خليل أنه أساء إلى مماليك أبيه، وأنعم على مماليكه؛ حتى تنافرت عنه القلوب، وعندما خرج السلطان خليل للصيد، وخطط الأمير بدر الدين بيدرا مع عدد من الأمراء الحاقدين على السلطان، وهم قراسنقر المنصوري، وبهادر رأس النوبة[٥]، وحسام الدين لاجين المنصوري، وطُرنطاي الساقي، آقوش الموصلي الحاجب، وألطُنبغا الجمدار، محمد خواجا، وجماعة كبيرة من المماليك، ونجح بيدرا في قتل السلطان خليل في ١٢ محرم سنة ٦٩٣هـ/١٢ ديسمبر ١٢٩٣م بمساعدة هؤلاء الأمراء، وبعد وصول خبر قتل السلطان للناس والجند، اضطرب الجميع[٦]، وكان سبب قيام بيدرا نائب السلطنة بقتل السلطان خليل هو طمعه في السلطنة، وأما لاجين شارك في قتله لأن السلطان عزله عن نيابة دمشق، وقرا سنقر الذي عزله من حلب، وأتفق القتلة على تولية بيدرا السلطنة وتلقب بالقاهر، وقد أثار قيام هؤلاء الأمراء قتل السلطان الأشرف خليل، غضب مماليكه الأشرفية، وتعهدوا بالثأر لأستاذهم، وتولى زعامة المماليك الأشرفية الأمير زين الدين كتبغا المنصوري[٧]، وقاموا بملاحقة الأمير ببيدرا ومن شارك بقتل السلطان، ووقعت معركة

---

(١) الأمير طقصو، أو تُقُصَوا هو أحد كبار أمراء المماليك، قبض عليه بتهمة التخطيط لاغتيال السلطان خليل بن قلاوون، وأعترف مع التعذيب بنيته في ذلك، وتم إعدامه وهو في الستينات من العمر، الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٢١٧.

(٢) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة ، ص ٢٩٠ ، ٢٩١.

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج١ ، ص٤٨٠.

(٤) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة ، ص ٢٩٢.

(٥) الأمير بهادر رأس النوبة المنصوري هو أحد مماليك المنصور قلاوون، شارك في قتل السلطان الأشرف خليل ونكل بجثته، فَقبض عليه المماليك الأشرفية وقتلوه وأحرقوا جثته ؛ لتنكيله بأستاذهم، النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ١٦٤ ، ١٦٩ ؛ العيني : عقد الجمان، ج ١ ، ص ١٦٦،١٦٧.

(٦) قرطاي : تاريخ مجموع النوادر ، ص ٢١٧ – ٢١٩.

(٧) زين الدين كتبغا المنصوري، من العرق المغولي، كان أحد أسرى المغول معركة حمص الأولى سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م، وأصبح من كبار الأمراء في دولة المنصور قلاوون، وأصبح أحد سلاطين المماليك سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م، وأكان أسمراً قيراً في ذقنه شعرات قليلة، وعنقه قصير، وكان يوصف بالشجاعة والإقدام والتواضع، وكان متديناً، ومحافظاً على صلاة الجماعة، الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢ ؛ الصفدي : أعيان العصر ، ج ٤ ، ص ١٤٤ – ١٤٦.

الطرانة[١] وهي معركة صغيرة، في منتصف محرم سنة ٦٩٣هـ/ ١٥ ديسمبر ١٢٩٣م، وكانت بعد مقتل السلطان خليل ببضع أيام، وفر بيدرا وجميع من شارك معه في قتل السلطان، وتفرقوا، ثم تبعوا بيدرا وعندما تمكنوا من القبض عليه قطعوا رأسه، واختفى الأميرين لاجين وقرا سنقر، ولما وصل زين الدين كتبغا إلى قلعة الجبل، كان نائبها علم الدين سنجر الشجاعي، وقد اتفقا على تولية السلطنة للناصر محمد بن قلاوون[٢]، وأصبح كتبغا نائب السلطان، الذي سرعان ما استبد بأمور الحكم وعذب الوزير ابن سلعوس حتى مات وأخذ أمواله [٣] .

بناء على ما سبق يمكن القول بأن الأشرف خليل كبح جماح الأمراء، وتخلص من بعضهم بالسجن، أو بالقتل، ولكن من الأفضل كان على الأشرف مُسايستهم، خاصة طرنطاي وسنقر، وابناء الأمير عيسى بن مهنا، لأنهم عضد الدولة، والسيوف التي تصدت للمغول وقاتلت الصليبيين، وأخطأ الأشرف بالوثوق، ببيدرا وغيره، وفي الحقيقة أن طرنطاي، وسنقر الأشقر أفضل واكفأ منه، خلاصة القول شكل مقتل الأشرف خليل بداية لصراع جديد بين أمراء المماليك.

ثانياً- سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الأولى (٦٩٣-٦٩٤هـ/١٢٩٣-١٢٩٤م):

بعد مقتل الأشرف خليل بن قلاوون، وقع اختيار المماليك المنصورية، ومن تبقى من المماليك الصالحية النجمية، على أخيه الأصغر الناصر محمد بن قلاوون، واجلسوه على عرش دولة المماليك، في ١٤ محرم سنة ٦٩٣/ ١٤ ديسمبر ١٢٩٣م، وعمره تسع سنين، وولد محمد بن قلاوون في ١٥ محرم سنة ٦٨٤ هـ/ ٢٢ ما رس ١٢٨٥م[٤]، وأستقر الأمير زين الدين كتبغا، في نيابة السلطنة، وأصبح الأمير سنجر الشجاعي وزيراً بدلاً من الوزير ابن السلعوس[٥]، ومدبراً لشؤون الدولة[٦]، والأمير بيبرس الجاشنكير[٧] حصل على رتبتين في الدولة: أستادار، وكاشف

---

(١) الطرانة هي بلدة في البحيرة بمصر ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٥٢١ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٤ ، ص ٦٣.

(٢) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٢٣١.

(٣) اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ١٦٦.

(٤) النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ١٦٨.

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٧٨ ، ٣٧٩.

(٦) النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ١٦٨.

(٧) ركن الدين بيبرس العثماني المنصوري، المعروف بالجاشنكير، كان من كبار أمراء المماليك بمصر، وأستقر بمنصب الاستادارية، وتسلط الجاشنكير مع الأمير سلار في الدولة، وعلى السلطان الناصر محمد بن

الكشاف[١] وكان الجاشنكير يطمح في تولي السلطنة[٢].

يروي النوي أن الناصر محمد بن قلاوون، بعد تولي السلطنة أمر بالقبض على الأمراء الذين ساعدوا بيدرا في قتل أخيه الأشرف خليل، وقتل الأميرين طرنطاي الساقي، وسيف الدين الناق الساقي الحسامي، وضرب عنق كلاهما، ثم أحرقهما، ثم قبض على عدد من الأمراء الأخرين، وهم وشمس الدين أقسنقر الحسامي، وعلاء الدين الطنبغا الجمدار، وناصر الدين محمد خواجا، فاعتقلوا، وكان الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، يحقق معهم حول جريمة قتل السلطان الأشرف خليل، ويأخذ منهم معلومات حول قتلهم للأشرف خليل، ويعذبهم، ثم قطعت أيديهم وأرجلهم، وسمروا[٣] على الجمال، وطيف بهم، وأيديهم في أعناقهم، وقتلوا شر قتلةٍ، ثم ألقوا القبض على قجقر الساقي، فشنقوه، وأما الأمير حسام الدين لاجين، والأمير شمس الدين قراسنقر، فإنهما هربا واختفيا[٤].

وأختلف مع ما ذكره النويري، بأن الناصر محمد بن قلاوون قام بملاحقة وقتل، المتورطين في قتل أخيه الأشرف خليل، فلا يُعقل طفل صغير يبلغ من العمر ٩ سنوات أن يقوم بمثل هذه الأعمال، وأعتقد المماليك الأشرفية من قام بذلك، انتقاماً لأستاذهم الأشرف خليل، وأميل إلى أن يكون المنفذ هو زين الدين كتبغا، بعد أن أصبح زعيماً للمماليك الأشرفية.

قام الأمير علم الدين الشجاعي بظلم الناس، ونهب الأموال وأستخدم العنف ضد الناس، وأستمال إليه مجموعة من الأمراء، ثم دخل في صراع مع كتبغا، وحدثت فتنة كبيرة في البلاد؛ بسبب الصراع بينهما، لكن الشجاعي عندما رأى أنه سيهزم أمام زين الدين كتبغا، سلم نفسه

قلاوون، وتجاوز صلاحياته، ومنع الناصر من حجات كان يطلبها، وقام الجاشنكير بالانقلاب على الناصر وتولى السلطنة، عام ٧٠٨هـ/١٣٠٨م عندما ذهب السلطان للحج وميل على الكرك، وبقي في سلطنته وتنازل عن السلطنة سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، وهرب إلى الصعيد، ثم قُبض عليه، فأمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بقتله سنة ٧٠٩هـ/١٣١٠م بمصر، الصفاعي ، تالي كتاب وفيات الأعيان ، ص ٥٨.

(١) كاشف الكشاف أمير يقود ألف فارس من المماليك ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٠٧.

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٧٩.

(٣) التسمير أحد طرق الإعدام في العصر المملوكي، كان يدق الشخص على خشب يسمى خشب التسمير، ثم يطاف به على جمل ويُرسل إما لتعليقه بعد موته في مكان عام ليكون عبرة لغيرة، أو لدفنه مباشرة بعد موته، النويري : نهاية الآرب ، ج ٣٣ ، ص ٢٣٥

(٤) النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ١٦٩ ، ١٧٠.

وقال: «إن كنت أنا المطلوب، فها أنا أتوجه إلى السجن»، فأُخذ إلى السجن، وقطع المماليك رأسه في الطريق داخل باب الحديد، واجتزت رأسه وطيف بها في مصر كما فعلوا مع بيدرا، وعاقب زين الدين كتبغا المماليك السلطانية، وشتتهم، ثم قام بقتل أميرين منهما، وهما ساطلمش والآخر كتبغا الحموي، نكل بهم وذلهم، بعد فتنة أثاروها في القاهرة[١].

بناءً على ما سبق يمكن القول بأن الصراع بين المماليك عاد مرة أخرى بعد مقتل الأشرف خليل بن قلاوون، ولم يستطع المماليك إنهاء خلافاتهم على السلطة، فاتجهوا إلى تولية احد أبناء المنصور قلاوون، كحل مؤقت، لوقف فتنة جديد ستؤدي إلى تفكيك جبهتهم الداخلية.

عندما اضطربت الأحوال السياسية في مصر، أجتمع الأمراء، وتشاوروا في أمور السلطنة، والأوضاع السيئة فيها، وقالوا : «إن السلطان صغير في السن، وطمع فيه المماليك، ومن الرأي أن يتولى المملكة سلطان كبير من الأتراك، لقمع المماليك والعربان»، وقد وقع الاتفاق على الأمير زين الدين كتبغا، فأرسلوا خلف القضاة الأربعة، وخلعوا الناصر محمد بن قلاوون من السلطنة، وكانت مدة سلطنته في المرة الأولى أحد عشر شهراً وبضع أيام[٢]، وكان خلعه في محرم سنة ٦٩٤هـ/ ديسمبر ١٢٩٤م[٣].

ثالثاً – سلطنة العادل زين الدين كتبغا:

في التاسع من محرم سنة ٦٩٤هـ/ ٢٨ نوفمبر ١٢٩٤م تولى زين الدين كتبغا المنصوري السلطنة، ولقب نفسه بالملك العادل، واستحلف الناس على ذلك وخطب له بمصر والشام، ونقشت السكة باسمه، وجعل الناصر محمد بن قلاوون في قلعة الجبل، وحجب عنه الناس[٤]، وحضر حسام الدين لاجين إلى العادل كتبغا بعد اختفاءه[٥]، فقام العادل كتبغا بتعيينه نائباً له في السلطنة[٦]، وعامله بالإكرام والاحتفاء؛ بسبب الصداقة التي كانت تربط زين الدين كتبغا بحسام الدين لاجين منذ صغرهما[٧].

---

(١) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ٩٨ – ١٠٠.
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٨٦.
(٣) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٠٥.
(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٨٢.
(٥) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٣٥٦.
(٦) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٨٢.
(٧) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ١٠١.

جاء إلى العادل كتبغا ما يزيد عن عشرة آلاف من المغول الأويراتية، بحريمهم وأولادهم ومواشيهم، راغبين في الدخول في دين الإسلام، وأَنهم كانوا من عسكر بيدوا، فلما انهزم، خافوا من غازان، فقصدوا بلاد المسلمين، وكان قائدهم طرغاي، وكان هذا القائد متزوجاً من إحدى بنات هولاكو، وسير السلطان العادل كتبغا الأمير علم الدين الدواداري ليلتقي بهم، وقد حن كتبغا إلى جنسه المغولي، والقادمين عليه من نفس جنسه، وعندما وصلوا الشام في ٢٣ ربيع الأول سنة ٦٩٤هـ/ ٩ فبراير ١٢٩٥م رحب بهم الناس ترحيباً كبيراً، ثم دخلوا مصر؛ فأكرمهم ورحب بهم[١].

في عهد كتبغا ارتفعت الأسعار بشكل كبير في مصر، وأكل بعض الناس الجيف والميتة والكلاب والقطط، ثم أعقب ذلك وباء الطاعون، مات فيه كثير من الناس، لدرجة أن بعض الناس لم يجد من يدفنه، فأكلتهم الكلاب وهم ملقون على قارعة الطريق[٢]، وفي سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٦م كثر عدد الموتى، وقد وصل على الموتى من أهل مصر حوالي الثلث، وفي عام ٦٩٦هـ/١٢٩٧م، زاد الغلاء والجوع، وقد أنتقل الغلاء إلى سائر بلاد الشام، ومكة والمدينة، وأرسل الله الجراد على أهل مصر؛ فأكل منه الناس قاطبة، وكان به غاية النفع للناس، ثم وقع الرخاء[٣] .

رابعاً- خلع العادل كتبغا، وسلطنة المنصور لاجين:

١- خلع العادل كتبغا:

خرج العادل زين الدين كتبغا إلى الشام وعندما وصل دمشق عزل نائب دمشق الأمير عز الدين أيبك الحموي، وصادر أمواله، ووضع مكانه مملوكه أغرلو الزيني[٤]، ولما جاء كتبغا من الشام إلى مصر، أجتمع عدد من الأمراء والمطالبون بالثأر على خلعه، والإيقاع بمماليكه[٥]؛

---

(١) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٣٦٢.

(٢) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ١٠١ ، ١٠٢.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٩٠ ، ٣٩١.

(٤) شجاع الدين أغُرلو أحد مماليك العادل زين الدين كتبغا، وكانت كل الدول المعادية والصديقة لدولة المماليك تعظمه؛ لشجاعته وفروسيته المشهورة، ولأنه قد أبلى بلاء حسناً في الحروب التي دخلها، تولى أغرلو نيابة دمشق في ذي القعدة سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٦م، بدلاً من أيبك الحموي، ولما خُلع أستاذه العادل زين الدين كتبغا من الحكم، بقي أميراً كبيراً في دمشق، وتوفي سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م، ودُفن في تربته في الصالحية، الصفدي : أعيان العصر ، ج ١ ، ص ٥٤٢ ، ٥٤٣.

(٥) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣١١.

بسبب قيام كتبغا بتقديم المماليك الأويراتية، لكونهم من جنسه، وعدم اهتمامه بكبار الأمراء، وتطاول مماليكه على الناس، وقلة أدبهم وإساءتهم لكبار الأمراء، وأثناء اجتماع الأمراء المخططين لخلعه، استوثق بعضهم البعض باليمين، على خلعه دون قتله[١]، ولما وصل نهر العوجا، توجه الأمراء: حسام الدين لاجين، وبدر الدين بيسري الشمسي[٢]، وسيف الدين قفجق، وسيف الدين بهادر الحاج[٣]، وقراسنقر المنصوري، ومن انضم إليهم، وقصدوا خيمة بكتوت الازرق وقتلوه، وقتلوا الأمير بتخاص الزيني، وتمكن زين الدين كتبغا من الهرب من فوق قنطرة نهر العوجا، وتوجه إلى دمشق واقام بها أياماً، وبها مملوكه أغرلو[٤]، واستدعى كتبغا الأمراء والفقهاء وأخبرهم بما فعل لاجين، وطلب منهم أن يجددوا بيعتهم له مرة ثانية، ففعلوا، وأصبحت سلطنة العادل كتبغا محصورة على الشام فقط[٥].

أصبحت الوحدة الداخلية تترنح وعلى اقتراب الإنقسام السياسي والعسكري من جديد، لكن كتبغا رفض هذا الإنقسام، وصارح أمراء الشام كتبغا بضرورة الوحدة، والبيعة للاجين؛ لأنه أخذ بيعة الخليفة والفقهاء في مصر، فرحب كتبغا بذلك، وقال : «أنا ما مني خلاف» وقال أيضاً: «هو خُوشداشي»، ثم دخل في طاعة لاجين، معلناً رفضه التام لإحداث إنقسام داخلي في الدولة، وكانت دولته سنتين وشهر[٦] .

وتعقيباً على سلطنة العادل كتبغا يمكن القول بأن كتبغا نجح في إعادة الوحدة الداخلية في سلطنته، لكن من سوء حظه أن الأسعار ارتفعت في عهده، وحدثت مجاعة ومات كثير من

---

(١) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ١٧٩.

(٢) بدر الدين بيسري الشمسي الصالحي، كان من كبار أمراء الدولة، وكان من ضمن الأمراء الذين قبض عليهم قلاوون، وسجنهم، وخرج من السجن في سلطنة الأشرف خليل، وعاد على ما كان عليه، وقبض عليه المنصور حسام الدين لاجين، وتوفي في السجن، في سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م وكانت وفاته في بداية سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية، الصفدي : أعيان العصر ، ج ٢ ، ص ٩٩ ، ١٠٠.

(٣) سيف الدين المنصوري المعروف بالحاج بهادر، كان من كبار أمراء المماليك بمصر، أخرج من مصر إلى حلب ثم إلى دمشق، وكان يثير الفتن، بين أمراء المماليك، وكان يحرض الأمراء على آقوش الأفرم نائب دمشق، وأقام الحاج بهادر في طرابلس بعد الأمير أسندمر، وتوفي في ربيع الأخر سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، الصفدي : أعيان العصر ، ج ٢ ، ص ٥٤ – ٥٦.

(٤) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣١١.

(٥) العيني : عقد الجمان ، ج ١ . ص ٢٩٧.

(٦) الصفدي : أعيان العصر ، ج ٤ ، ص ١٤٦.

الناس فيها، وبالرغم من ذلك لم تؤثر سوء الأوضاع الاقتصادية في عهده، على الأحوال السياسية والعسكرية، فبقيت البلاد قوية وموحدة، ومن المواقف التي تثبت رجولة زين الدين كتبغا، أنه بعد انقلاب لاجين عليه رفض الدخول في معركة جديدة، وإعلان استقلال الشام عن مصر، وأعلن تنازله عن السلطنة؛ للحفاظ على وحدة البلاد الداخلية، وبين للأمراء أنه لا يريد أن يكون سبباً في اِنفجار الصراع بين المماليك، وقال عن لاجين الذي إِنقَلَبَ عليه، أنه زميله ويرحب بسلطنته.

٢- سلطنة حسام الدين لاجين المنصوري:

تولى حسام الدين لاجين السلطنة، ولقب نفسه بالملك المنصور، وبعد بضع أيام من إعلان سلطنة لاجين في القاهرة، بدأ الناس في دمشق بالتخلي عن العادل كتبغا تدريجياً، ثم تلاشى أمره، وأرسل حسام الدين لاجين مراسيم شريفة لقضاة دمشق، وطلب من أمراء دمشق أن يجتمعوا في دار السعادة، ويقرأوا مراسم السلطان لاجين على العادل زين الدين كتبغا، فحضر القاضي بدر الدين بن جماعة الشافعي، وبقية القضاة، واستدعوا زين الدين كتبغا، فحضر، وقرأوا عليه مراسيم السلطان الجديد لاجين، بأن يخلع نفسه من السلطنة، ويتوجه معززاً مكرماً إلى صرخد، ويقيم بها، وخصصوا له ما يعتاش منه؛ فأجاب بالسمع والطاعة، وخرج ومع أهله ومماليكه وغلمانه وممتلكاته، وتوجه إلى صرخد[١] فأقام فيها[٢].

في عام ٦٩٦هـ/١٢٩٧م قام السلطان لاجين بنفي الناصر محمد بن قلاوون إلى الكرك[٣]، في نصف ذي القعدة من سنة ٦٩٦هـ/ ٣ سبتمبر ١٢٩٧م، قبض السلطان لاجين على نائب السلطنة شمس الدين قراسنقر المنصوري، ثم قبض على الوزير شمس الدين الأعسر[٤]، في ١٣

---

(١) صَرْخَدُ مدينة ملاصقة لحوران، وفيها قلعة محصنة، كانت تتبع إدارياً لمدينة دمشق، وفيها قلعة محصنة، وكانت تشتهر بأنتاج الخمور، ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٤٠١ ؛ ينظر ، البكري : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج ٣ ، ص ٨٣١ ؛ الزمخشري : الجبال والأمكنة والمياه ، ص ٢٠٤ ؛ ابن الرابي : رحلة بنيامين التطيلي ، ص ٢٧٤ ؛ القيطعي : مراصد الاطلاع ، ج ٢ ، ص ٨٣٨ ؛ العمري : مسالك الأبصار ، ج ٣ ، ص ٥٢٦.

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٩٢.

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٨٤.

(٤) الأمير شمس الدين سنقر المعروف بالأعسر، كان مملوك الامير عز الدين أيدمر الظاهري نائب الشام، وعزله أيدمر الظاهري، من وظيفة دوادار، وأرسله إلى مصر، وأصبح من مماليك السلطان المنصور قلاوون، بعد أن أشتراه المنصور، ولما تولى الأشرف خليل كان وزيره شمس الدين بن السلعوس، يحقد عليه، فطلبه إلى مصر وعاقبه، ثم توصل إلى حل الخلاف معه، بالتزوج من ابنة الوزير، وفي سنة

ذي الحجة سنة ٦٩٦هـ/١ أكتوبر ١٢٩٧م، وولى لاجين أحد مماليه واسمه منكوتمر نيابة السلطنة، وذلك في العشر الأواخر من ذي القعدة سنة ٦٩٦هـ/ سبتمبر ١٢٩٧م[١]، وفي ٦ جُمَادَى الأولى سنة ٦٩٧هـ/٢٠ مارس ١٢٩٨م أوكل السلطان لاجين إلى أحد الأقباط المصريين، مباشرة تقسيم قرارط مصر، وهو ما يعرف بالروك الحسامي، وجار هذا القبطي على الناس، وضج منه الأمراء وسائر الجند، وكانت ضواحي مصر يومئذ مقسومة إلى أربعة وعشرن قيراطاً، منها أربعة قراريط للسلطان، وعشرة للأمراء، وعشر للجند كلهم؛ فرسم السلطان للتاج أن يزيد قراريط السلطان قليلاً، فعمد التاج إلى زيادة قراريط السلطان من أربعة قراريط إلى ثلاثة عشر، وعشرة للأمراء والجند، وقيراطاً للأجناد المشتكين، وكان المدبر لهذا كله الأمير منكوتمر النائب، فصار يتجرأ على الأمراء والجند، وكرهه سائر الجيش، وأكثر الناس من الدعاء عليه، وزاد منكوتمر في ظلم الناس، وكان الأمراء والجيش غير راضين عنه، وحسَن للسلطان بأن يقبض على مجموعة من الأمراء، فقبض على الأمير أيبك الحموي، وأميران أخران، وأرسلهم إلى سجن الإسكندرية [٢].

خامساً– تفكك الجبهة الداخلية للمماليك، وهروب أمراء من الشام إلى زعيم المغول غازان، في عهد المنصور لاجين:

كان الأمير سيف الدين قبجق[٣] قد ساعد لاجين في عزل العادل زين الدين كتبغا، وكانت مكانة قبجق في الدولة مثل لاجين، وعندما تولى لاجين السلطنة خير قبجق بين نيابة الشام

١٢٩٦/٦٩٥م قبض عليه السلطان العادل كتبغا، وصادر أمواله، وعاقب معه الأمير سيف الدين أسندمر، وكان الوزير ابن السلعوس هو الذي أوقع به، وبعد وصول حسام الدين لاجين إلى السلطنة، في سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٧م، عاد الأعسر إلى دمشق، وتولى الوزارة مكان ابن السلعوس، وبقي وزيرا في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون، وتوفي ابن الأعسر ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، الصقاعي: تالي كتاب وفيات الأعيان، ص٨٨ ، ٨٩.

(١) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٣٦٨ ، ٣٦٩.

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٩٦ ، ٣٩٧.

(٣) سيف الدين قَبْجَق، أحد أمراء المماليك الشجعان، وكان مخططاً عسكرياً بارعاً، وإدارياً ممتازاً، وكان يمتاز بشدة الدهاء والحزم، فكان يظُن بالشيء قبل وقوعه، ويقدر الأمور السياسية والعسكرية جيداً، وكان فصيحاً في اللغة المغولية، ويجيد كتابتها، كما كان يجيد كتابة العربية، وكان قناصاً ماهراً، وعندما يدخل معركة مع أعداء المسلمين كان يقتل منهم الكثير، وتولى في حياته نيابة دمشق، وحماة، وحلب، وتوفي في جمادى الأولى سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م، ودفن في حماة، الصفدي : أعيان العصر ، ج ٤ ، ص ٦١ ، ٦٢.

ونيابة مصر، فاختار الشام، وظهر من تعظيم لاجين له، وكان يكتب له في الرسائل بـ «الجناب العالي»، وبعد أن ولى لاجين أمير اسمه جاغان[١]، في وظيفة مسؤول الدواوين وهو أحد مماليك لاجين، وكان مُدللاً عنده، وكان جاغان يُضايق قبجق كثيراً، ووصل به الأمر إلى تجاهل قبجق، حتى تطور الأمر بجاغان إلى عدم الرد على رسائله، ثم نشأت بينهما منافسة، وكان جاغان حاقداً على قفجق، وكان يُلصق به اتهامات وافتراءات باطلة ويرسلها للسلطان لاجين، وكان جاغان يطمع في نيابة السلطنة في دمشق، وأرسل قبجق إلى الأمير أقوش الأفرم، وكتب له بتطاول جاغان عليه، فلم يرد الأفرم على رسالته، فأظهر قبجق الرضا، وأبطن غضبه، وازدادت المؤامرة على قفجق، عندما أغلى منكوتمر صدر لاجين على الأمراء الكبار، ومنهم قفجق[٢].

أرسل لاجين جنود ليقبضوا على الأمير قفجق؛ ففر الأخير هارباً من الشام، وهرب معه مجموعة كبيرة من الأمراء، وهم محتارين أين سيذهبون؛ فتوجهوا مُجبرين إلى غازان ملك المغول، وأحدث منكوتمر، فتنة عظيمة بين الأمراء والجند، وأجبر كثير من أمراء الشام للهروب إلى المغول، للنجاة بأنفسهم[٣]، وقد هربوا إلى غازان بسبب سماعهم دخول ملك المغول غازان في الإسلام، فأجمع الأمراء في الشام على الهروب إليه، فساروا من حمص باتجاه غازان[٤]، وكان غازان ببغداد، فأنعم عليهم وأكرمهم، وكان هروبهم قبل مقتل لاجين بمدة بسيطة، وعندما قتل لاجين أرسلوا للأمير قفجق يخبروه بمقتل لاجين طالبين منه العودة إلى الشام، فلم يثق بصحة قولهم ولم يرجع[٥].

يروي ابن إياس عن قفجق، أن السلطان المنصور قلاوون (أستاذ قفجق)، قد خرج يوماً إلى خليج الزعفران، للتنزه، ومعه مجموعة من الأمراء، كان بينهم الأمير قفجق، وكان المنصور قلاوون سعيداً في هذا اليوم، وذبح فيه خروفاً سميناً بيده، وقطعه بيده أيضاً، وفي أثناء قيام

---

(١) سيف الدين جاغان الحُسامي، أحد مماليك السلطان حسام الدين لاجين المنصوري، كان سياسياً ماهراً، وتم ترقيته للإشراف على الدواوين بدمشق، وكان يضايق قبجق، وتسبب في تشريده، وعندما قُتل السلطان حسام الدين لاجين عام ٦٩٨هـ/١٢٩٩م، ألقي القبض عليه بدمشق في ربيع الآخر من نفس العام، وأُفرج عنه بعد شهر، وتوفي في شوال سنة ٦٩٩هـ/١٣٠٠م، الصفدي : أعيان العصر ، ج ٢ ، ص ١٥٠.

(٢) الصفدي : أعيان العصر ، ج ٤ ، ص ٦١ – ٦٧.

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٩٦ ، ٣٩٧.

(٤) ابن العماد : شذرات الذهب ، مج ٧ ، ص ٧٦٩.

(٥) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ج ١ ، ص ٣٣٦.

السلطان بشوي الخروف، أطال فيه التأمل، ثم ظهر على وجهة الغضب، فسأله بعض الأمراء عن ذلك بعد ان سكن غضبه، فقال: «لا تخرجوا قفجق بعدي، ولا تولوه نيابة الشام، فيحصل منه غاية الفساد، وسوف ترون ذلك إن خرجتوه من مصر»؛ وكانت هذا القول قبل أن تولى قفجق نيابة الشام بعشر سنوات.

لم يذكر أحد هذه الرواية غير المؤرخ ابن إياس، ويتضح بأنها مزحه من السلطان قلاوون، فالأمير قفجق كما ذكرنا في السابق قد أشرف على أن يُقتل، لكنه هرب في الوقت المناسب، وجميع المصادر تصفه بالإداري الناجح، والمخطط العسكري البارع، وفي الحقيقة خُدع قبجق بإسلام غازان، لذلك توجه إليه مع الأمراء، وما يثير التعاطف مع قبجق أنه تعرض للظلم من قبل الحاقدين والحاسدين عليه؛ لنجاحه في الإدارة وقيادة الجيوش، وكما أسلفنا سابقاً أن جاغان ومنكوتمر قد تربصا به، لذلك هرب مجبراً إلى المغول.

كان لاجين يُصفي خلافاته الداخلية مع الأمراء، ولم تكن فيه ميزة التسامح والعفو، كغيره من الأمراء، وكان يُحب الانتقام، وهذا كان سبباً آخر لهروب أمراء من المماليك إلى المغول، ومن هؤلاء الأمراء فارس الدين ألبكي[1]، وكان بينه وبين هذا الأمير خلاف قديم، وهو عندما غضب السلطان الأشرف خليل بن قلاوون على حسام الدين لاجين، وهو على عكا، أمر بسجنه في قلعة صفد، فأخذ الأمير فارس الدين ألبكي المقرعة وضربه بها على كتفه، وقال له «ما تمشي إلا خواتيني»، وأخذ خوجة كانت معه وطرطوراً وبقجة، ودار الزمن وأصبح حسام الدين لاجين سلطاناً، ولما تم الأمر للاجين أرسل للأمير فارس الدين ألبكي يقول له: «أحتفظ بالبقجة والجوخة والطرطور»، فخاف منه ألبكي كثيراً، ولم يعرف أين يذهب، وعندما علم الأمير سيف الدين قبجق، والأمير بكتمر السلاح دار، بهروبهم إلى غازان، لما بلغه إسلامه، التحق بقبجق وبكتمر وذهبوا معاً إلى غازان[2].

---

(١) فارس الدين أَلْبكي الظاهري، كان من كبار الأمراء وشجعانهم، وكان في السجن، وكان المنصور قلاوون يخرجه من السجن، ويستشيره في أمور، ويعيده إلى السجن، ثم أخرجه وولاه صفد، فأقام فيها عشرة أعوام، وكان جميلاً، وكان يشعر بالخَطر قبل وقوعه، ويتجنبه، وكان قريباً من الناس بالخير، والفقراء بالمعروف، وكان معروفاً بالشجاعة والثبات، في الكر والفر، والالتفات، وتوفي في ذي القعدة سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٣م، وعندما كان نائبا على صفد، كان العلامة الشيخ نجم الدين حسن بن الكمال الصفدي يأتي إليه، ويتسامر معه إليه إلى نصف الليل، ووصفه الصفدي بالحشمة، الصفدي : أعيان العصر، ج١ ، ص ٥٨ ، ٥٩٠.

(٢) الصفدي : أعيان العصر ، ج ١ ، ص ٥٨٩ ، ٥٩٠.

يتضح مما سبق بأن حسام الدين لاجين، لا يملك من دهاء السياسة شيئاً، ولا يستوعب الأمراء، ولا ينسى خلافاته معهم عندما كان أميراً (قبل توليه السلطنة)، فالمعروف عن كثير من سلاطين المماليك كما أسلفنا سابقاً أنهم يتسامحون عندما يمسكون بالسلطنة، وينسون خلافاتهم الداخلية عندما كانوا أمراء، فحدوث الخلاف طبيعي بين الأمراء، أما أن يتم تصفية الخلافات الداخلية بعد تولي الأمير للسلطنة، فهذا خطأ يُهدد الوحدة الداخلية، وقد كان تصرف لاجين بتصفية خلافاته السابقة مع الأمراء، وزُملائه بالذات كان من أكبر أخطائه، ويتضح أيضاً بأن حسام الدين لاجين هو المسؤول الأول والأخير، عن تفكيك الجبهة الداخلية للمماليك، فبتصرفاته الخاطئة أجبر كبار أمراء المماليك الأقوياء بأن يكونوا عونا للمغول، بدلاً من أن يكونوا شوكة حلقهم، فزين الدين كتبغا ضحى بالسلطنة من أجل بقاء وحدة المماليك، أما حسام الدين لاجين فقد فرق المماليك، وأنهى وحدتهم من أجل أن يبقى سلطاناً.

سادساً- مقتل السلطان حسام الدين لاجين المنصوري:

علم المماليك الأشرفية أن السلطان لاجين كان جالساً في القصر الكبير، وكان صائماً في يوم شديد الحر، وكان عنده قاضي القضاة حسام الدين الرازي، وأمامه محب الدين بن العسان، وشيخ العرب يزيد، وكان المماليك الأشرفية يرصدون السلطان لاجين لاغتياله؛ لأنه من أبرز المشاركين في قتل الأشرف خليل، وقالوا «هذا وقت انتهاز الفرصة»، فاتفقوا مع المماليك البرجية[1]، واجتمعوا في دهليز القصر الكبير، وكانت تلك الليلة نوبة شخصين من السلحدارية، يقال لهما : نوغان الكرمان، وكرجي[2]، ولما دخل وقت العشاء، تقدم كرجي وتظاهر بأن يريد إصلاح شمعة، وكان السلطان منكب على لعب الشطرنج، من بعد المغرب وبعد أن أنهى افطاره، لا يدري بالمؤامرة المدبرة ضده، وكان المماليك البرجية واقفين بسيوفهم جاهزين، ولما أبطأ السلطان في لعب الشطرنج، تقدم إليه كرجي، وقال له : «يا خجم، ما تصلي العشاء»؟ فقال : «نعم»، فلما قام السلطان ليصلي ضربه كرجي بالسف على كتفه، فوقع السلطان، فبادر السلطان

---

(١) هم من مماليك السلطان المنصور قلاوون، وكان عددهم ما بين سبعة آلاف إلى إثنى عشر ألف مملوك، وقد أمر منهم ثلاث آلاف وسبعمائة مملوك، وهم من عرق الجراكسة، وسموا بالبرجية؛ لأن السلطان قلاوون أسكنهم في برج القلعة، المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٢١٨ ؛ العيني : عقد الجمان، ج ١ ، ص ٢١٠.

(٢) الأمير سيف الدين كرجي، كان جريئاً وشجاعاً، كثير التهور، شديد الإقدام، وهو الذي قتل السلطان حسام الدين لاجين المنصوري، وكان مقتله بعد مقتل الأمير طغجي، وكان مقتل كرجي في سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٩م، وبعد قتله طيف برأسه في القاهرة ، الصفدي : أعيان العصر ، ج ٤ ، ص ١٥٧.

ليأخذ النمجاة، فلم يجدها، فقبض على كرجي، وأرماه إلى الأرض، ثم هجم عليه المماليك البرجية الذين كانوا في دهليز القصر، وضربوا بالسيوف حتى قتلوه، وكان مقتله في ١٠ ربيع الآخر سنة ٦٩٨هـ/١٥ ديسمبر ١٢٩٨م، وصاح عليهم قاضي القضاة حسام الدين: «ويلكم قتلتوا أستاذكم»، ثم توجه كرجي إلى بيت نائب السلطنة منكوتمر، وأحرق بابه، ثم أمسك به، وتوجه به إلى الجب الذي كان بالقلعة، يسجن فيه الأمراء، وأرسله عند الامراء الذين سجنهم منكوتمر، فقاموا إليه وقتلوه(١).

سابعاً- سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية، والغزو المغولي لبلاد الشام:

١- سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية:

في صبيحة اليوم الثاني لمقتل السلطان لاجين جلس سيف الدين طغجي الأشرفي(٢) في موضع نيابة السلطنة وأمر ونهى، وهو العقل المُدبر لإغتيال لاجين، وأتفق مجموعة من الأمراء، منهم سلار(٣)، وبيبرس الجاشنكير، وحسام الدين الأستادار على الإيقاع بطغجي، وإعادة الناصر محمد بن قلاوون إلى السلطنة، وعندما جاء وطلب الأمراء من طغجي أن يستقبل أمير سلاح قادم من حلب معه، جزء من جيش حلب، فرفض، ثم أعادوا مطالبته، فوافق، وترك طعجي في النيابه كرجي الذي قتل لاجين، واعترف القتله بفعلتهم، وأشاروا إلى أن المدبر لقتله هو طغجي، وعندما شعر طغجي بأن الأمراء عازمين على قتله، هرب منهم(٤)، وقبل هروبه التقى بالأمير بدر الدين بكتاش وكان الأخير عائداً من حملة حلب ضد المغول، وسأل عن السلطان لاجين، فقال

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٩٨ – ٤٠٠.

(٢) سيف الدين طغجي الأشرفي هو مملوك الأشرف خليل بن قلاوون، وعندما تولى الأشرف السلطنة قدم طغجي، وجعله أميراً، وأمسكه خزينة الدولة، ولكن نزلت مكانته بعد مقتل الأشرف خليل، وأصبح حذراً على نفسه، ولكنه بقي أميراً، وكان قد أقام في نيابة السلطنة أربعة أيام فقط، وقتله مماليك لاجين عام ٦٩٨هـ/١٢٩٩م وهو في الثلاثينيات من العمر، الصفدي : أعيان العصر ، ج ٢ ، ص ٦٠٤ ، ٦٠٥.

(٣) الأمير سيف الدين سلار المنصوري، كان جنسه من المغول، أحضر أخوته وأمه إلى مصر، وترقى إلى الأستادارية، ولما قتل المنصور حسام الدين لاجين بمصر، عزم الأمراء على إعادة الناصر محمد بن قلاوون من الكرك، وإعادته للسلطنة، وتوجه إليه وأحضره وتولى النيابة، وأتفق سلار مع بيبرس الجاشنكير بأن تكون كلمتهم واحدة، وصلاحيتهم واحدة، في الدولة، وأستبدوا على صلاحيات السلطان، وتحكموا بأموال الدولة، إلى فارقهم السلطان سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م، وبعد عودة السلطان في سلطنته الثالثة، نفاه وصادر أمواله وإقطاعاته، الصقاعي : تالي كتاب وفيات الأعيان، ص ٨٩.

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٨٨.

له طغجي :«وأين هو السّلطان؟ قد قتلناه»، فعرج بفرسه عنه، وقال بكتاش : «إليك عني، أكلما قام للمسلمين سلطان، وثبتم عليه، وقتلتموه!»، ثم استفرد مماليك وأعوان لاجين بطغجي وقتلوه[١]، وقتلوا المملوك كرجي أيضاً بعد أن قبضوا عليه وهو هارب، واستدعى الامراء الناصر محمد بن قلاوون من الكرك ليعود إلى السلطنة[٢]، ورفضت والدة الناصر محمد عودة ابنها إلى السلطنة، كما ورفض نفسه العودة، ولكنه وافق أخيراً على العودة مُجبراً إلى السلطنة، بعد ضغوطاتهم وتهديداتهم له؛ لأنهم كانوا عازمين على أن يحكموا البلاد به[٣].

توجه الأميران سيف الدين بن الملك، وعلم الدين الجاولي إلى الكرك، وأحضرا الناصر محمد بن قلاوون إلى مصر، فوصل قلعة الجبل، وجلس على عرش دولة المماليك مرة أخرى في ١٤ جمادى الأولى سنة ٦٩٨هـ/ ١٦ فبراير ١٢٩٩م، وأتفق معه الأمراء على أن يكون سيف الدين سلار نائباً للسلطنة، وبيبرس الجاشنكير، وبكتمر الجوكندار أمير جاندار[٤]، وكان في الحضور الأمير بيبرس الدوادار المنصوري صاحب كتاب زبدة الفكرة[٥]، وفوض السلطان الناصر محمد نيابة دمشق إلى الأمير جمال الدين أقوش الأفرم[٦] [٧]، وأرسل الأمير سيف الدين كرد إلى دمشق، وافرج عن الأمير شمس الدين قراسنقر الجوكندار من الاعتقال وأعاده إلى ما كان عليه

---

(١) الصفدي : أعيان العصر ، ج ٢ ، ص ٦٠٥.

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٨٨.

(٣) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ج ١ ، ص ٣٣٦.

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٨٨.

(٥) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٢٦.

(٦) جمال الدين آقوش الأفرم، كان من مماليك المنصور قلاوون الألفي القدماء، وهو من عرق الجراكسة، وكان من كبار أمراء المماليك البرجية السلاح دارية، وكان في البرج مُحباً للرياضة، فكان يمارس رياضة المصارعة والملاكمة، ويعشق رمي النشاب، وكان مُثقفاً، وهو ما ساعده؛ ليكون أميراً ناجحاً، وكان المنصور قلاوون قد أنتبه إلى مواهبة، وولاه دمشق، وفي عهد العادل كتبغا، أشتد عضد الأفرم به، لأنه كان ابن خالته، ولما تولى لاجين السلطنة، أصبح الأفرم حاجباً له، ولما قُتل لاجين ألتزم الأفرم داره، تولى نيابة دمشق في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية، ثم نفي الأفرم إلى صرخد، وعندما جاءه جيش مصر ليعتقله في سلطنة الناصر محمد الثالثة/ هرب مع قراسنقر إلى المغول، لكنه كان متضايق من ذلك وكان يبكي أنه أضطر لذلك حفاظاً على حياته، وكان العلماء والشعراء يكثرون من مدحه؛ لأنه مجاهد عظيم، توفي بعد عام ٧٢٠هـ/١٣٢٠م، الصفدي : أعيان العصر ، ج ١ ، ص ٥٦١ – ٥٧٢.

(٧) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٢٦ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٨٨.

من الرتبة، وفرح الخاصة والعامة بعودة الناصر محمد بن قلاوون إلى السلطنة[١].

٢- استعداد غازان غزو بلاد الشام وتشجيع أمراء المماليك الفارين إليه على ذلك:

في ذي الحجة من سنة ٦٩٨هـ/ سبتمبر ١٢٩٩م، كانت نية غازان غزو بلاد الشام واحتلالها، وقام الأمراء المتواجدين عنده، والذين فروا في عهد لاجين إليه، بتشجيعه على غزو دولة المماليك، وابرز من شجعه منهم، الأميران: قفجق، وبكتمر السلحدار[٢]، وأكد قفجق لغازان أن الفرصة مناسبة، لغزو بلاد الشام ثم مصر؛ لضعف الجبهة الداخلية عند المماليك، وضعف السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وعدم طاعة كثير من أمراء المماليك له، ومما زاد حماس غازان لغزو مصر والشام، تشجيع الأمير قفجق له[٣]، وبين الأخير لغازان سوء الأحوال السياسية في مصر، وقال له : «إن السلطان صغير والأمراء في خلف بينهم»[٤] .

يستنتج مما سبق بأن غازان كان ينوي تحقيق طموح أجداده في السيطرة على بلاد الشام ومصر، بعد أن فشلوا أمام صلابة قوة دولة المماليك، والمشكلة الكبيرة أن من شجعه على الغزو هما أمراء المماليك الفارين إليه – وهذا من نتائج أخطاء سياسة لاجين – الذي أجبرهم على الفرار إلى أعداء الإسلام، وفي الحقيقة اخطأ هؤلاء الأمراء في تقييم نية غازان، من الواضح أنهم يعتقدون بأن إسلامه صحيح وأنه أفضل من سلطان مصر، وهم لا يدركون مدى خطورة التعاون مع هذا البربري، الذي تظاهر بالإسلام.

٣- استعداد الناصر محمد بن قلاوون لمواجهة الخطر المغولي في ظل تفرق الجبهة الداخلية للمماليك:

في أواخر عام ٦٩٨هـ/١٢٩٩م وصلت الأخبار إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون، بنية غازان على غزو بلاد الشام ثم مصر، خرج الناصر محمد بن قلاوون في ٢٤ ذي الحجة سنة ٦٩٨هـ/ ٢١ سبتمبر ١٢٩٩م من مصر قاصداً بلاد الشام، ووصل إلى غزة مطلع عام ٦٩٩هـ/٢٧ سبتمبر ١٢٩٩م، ونزل منطقة تل العجول في غزة، وتأكد من نية غازان على غزو الشام، وفي غزة أعد خطة لمواجهة المغول، ولكن حدث ما لم يكن بالحسبان، إذ قامت مجموعة

---

(١) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٢٦.

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٥٢ ، ص ٦٧.

(٣) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ج ١ ، ص ٣٣٦.

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٠٣.

من المغول الأويراتية، الذين وفدوا إلى مصر في عهد العادل كتبغا، بالتخطيط لعزل السلطان الناصر محمد، وإعادة كتبغا للسلطنة، وعندما علم السلطان الناصر محمد بنيتهم، قام بإعدامهم في غزة، وقبض على من كان منهم في الثغور، وأودعوا السجون[١]، وتأخر السلطان في غزة؛ بسبب ذلك، ثم انطلق إلى دمشق، ووصلها في ٨ ربيع الأول سنة ٦٩٩هـ/ ٢ ديسمبر ١٢٩٩م، وزينها، وقاسى أهل الشام من البرد والوحل، خاصة المدن الكبرى مثل دمشق وحلب وحماة، وعندما رأى السلطان الناصر محمد اشتداد البرد عليهم، أقام عندهم تسعة أيام قبل خروجه للملاقاة المغول[٢].

٤- معركة وادي الخزندار (٦٩٩هـ/١٢٩٩م):

عبر غازان نهر الفرات بجيشه متجها إلى الشام، بجيش يبلغ مائة ألف مقاتل[٣]، ومعه عناصر أخرى من الكرج والأرمن، ومعه أمراء المماليك، وأبرزهم قبجق المنصوري، وبكتمر السلحدار، وفارس الدين البكي، وسيف الدين غزار[٤]، وتوجه الناصر محمد بن قلاوون إلى حمص، ومعه بضع وعشرين ألفاً، وأخذ الناس في الشام يدعون ويستغيثون ربهم تبارك وتعالى، لينصرهم على عدوهم، وكان الجيش الإسلامي مستعداً، وبقي ينتظر المغول في حمص بضع أيام ولم يأتوا إليه، وجاءت الأخبار للناصر محمد بقرب المغول من سلمية، وأنهم يريدون الرجوع، ولكنها كانت مكيدة؛ فأنطلق السلطان في اليوم التالي من حمص إلى وادي الخزندار[٥]، فأرهقوا من الطريق كثيراً[٦]، وكان المغول قد أعدوا كميناً للجيش المملوكي في وادي الخزندار، وعند اقتراب جيش الناصر محمد بن قلاوون من الوادي، عطش الجند والخيل، وأُرهقت الخيول من ثقل العتاد[٧]، وكان الاميران سلار، وبيبرس الجاشنكير هما المستبدان بأمور السلطنة، وكان كثير من الأمراء يطمعون في الحكم؛ وأدى طمعهم إلى النقص الكبير في عدد الجيش، مع سوء التدبير،

---

(١) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٢٨ – ٣٣٠.

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٥٢ ، ص ٦٩.

(٣) الصفدي: أعيان العصر ، ج ٥ ، ص ٨٠ ؛ يُنظر ، الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٥٢ ، ص ٢٧٧

(٤) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٧٣.

(٥) يقع وادي الخزندار بين حماة وحمص، بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ١١١.

(٦) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٥٢ ، ص ٢٧٧.

(٧) بيبرس المنصوري : مختار ا لأخبار ، ص ١١١.

لأن السلطان لم يكن له الكلمة الأولى والأخيرة[١] .

وصل الجيش الإسلامي في نهار يوم ٢٧ ربيع الأول سنة ٦٩٩هـ/٢١ ديسمبر ١٢٩٩م، والتحم الفريقان عند وصول الناصر محمد بجيشه إلى وادي الخزندار[٢]، وحملت الميسرة الإسلامية على ميمنة المغول فهزمتها، ولم تستطع ميمنة المغول من الصمود، وعندما عاين غازان هزيمة ميمنته اعتزل بثلاثين فارساً من حرسه جانباً، وانصدم غازان من ثبات السلطان الناصر في المعركة[٣]، ودام الطعن والضرب، واستمر القتل بالتتار، ولاحت أمارات النصر، وثبت المسلمون إلى بعد العصر[٤]، ومن بعد العصر اضطربت ميمنة المسلمين[٥]، بعد حملة قوية من ميسرة المغول تجاه ميمنة المسلمين، وضغطت الميسرة المغولية بشدة على ميمنة المسلمين، حتى تمكنت من هزيمتها، ثم بدأ الخطر بالضغط المغولي على قلب الجيش الإسلامي الذي به السلطان الناصر[٦]، وثبت القلب مع السلطان حتى الغروب[٧]، ثم أطلق المغول السهام بكثرة، ويروي بيبرس المنصوري الدوادار أن سهام المغول كانت كالشمس، وبذلك انهزم الجيش الإسلامي[٨]، وكان أخر من أنهزم السلطان الناصر مع حاشيته نحو بعلبك، وتفرق الجيش، وبالرغم من ذلك كان عدد شهداء المسلمين قليل[٩]، وكان قتلى المغول أضعاف من قتل من المسلمين، بالرغم من انتصار المغول، ولما رأى غازان انتصار المسلمين ظنها مكيدة فتوقف عن اتباع من انهزم[١٠]، واستشهد في معركة وادي الخزندار خيرة من أمراء المماليك، منهم : سيف الدين كرد نائب السلطنة بالفتوحات، وناصر الدين محمد بن الأمير عز الدين الحلبي، وبدر الدين بيليك المنصوري المعروف بالطيار، وسيف الدين بلبان التقوى وكان من أمراء طرابلس، وصارم الدين ازبك الطغريلي وكان نائباً ببلاطنس، وأستشهد أكثر من ألف مملوك في هذه

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٩٠.
(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٥٢ ، ص ٢٧٧.
(٣) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٣١.
(٤) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٥٢ ، ص ٢٧٧.
(٥) اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ١٧٢.
(٦) بيبرس المنصوري : مختار ا لأخبار ، ص ١١١.
(٧) اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ١٧٢.
(٨) بيبرس المنصوري : مختار ا لأخبار ، ص ١١١.
(٩) اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ١٧٢.
(١٠) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ٢٧٧.

المعركة، ثم قام المغول بنهب الخيول والجمال والاثقال والأموال، التي بقيت خلف الجيش الإسلامي، الذي تشتت بعد الهزيمة[١] .

يروي القاضي محي الدين بن فضل الله، كاتب السر الشريف، رواية نقلها عن قفجق نفسه بعد عودته لصف المسلمين، قال: «حكى لي الأمير قفجق بعد أن جرى منه ما جرى، ورجع إلى القاهرة»، قال : «لما تلاقى عسكر السلطان مع عسكر غازان، فكاد غازان أن ينكسر، وهم بهروب فطلبني ليضرب عنقي؛ لأني كنت السبب في مجيئه إلى دمشق، فلما أحضرني بين يديه، قال لي: إيش هذا الحال كله، ما شغلك؟ فقلت له : القان يصبر ساعة، فإن عسكرنا لهم أول صدمة ثم يولوا عن القتال، فلا يقابلوا بعدها أبدا ... فلما انكسر عسكر السلطان، أراد أن يزحف عليهم، فقلت في نفسي متى أن أزحف عليهم لم يبقى منهم أحد، فقلت للقان: أصبر ساعة، فإن عسكرنا لهم حيل وخداع، فربما يكون لهم كمين يخرج علينا فننكسر؛ فسمع لي وصبر حتى أبعدتم عنا، فلو زحف عليكم ما بقي منكم أحد، فلولا أنا، ما سلم منكم أحد»؛ وقد صح ما رواه قفجق[٢] .

٥- سقوط الشام بيد المغول:

سار غازان إلى حمص من غير ممانعة ومقاومة، وأستلم مفاتيح المدينة، وأمن أهلها[٣]، ودخل نائبها محمد بن الصارم، في خدمتهم، ثم رحلوا عنها، وتوجهوا إلى دمشق، وتوجهت بعض الكتائب المغولية إلى فلسطين[٤]، وعندما بدأ غازان بالزحف تجاه دمشق، وبدأ بعمليات نهب وسبى بأهل الشام، خاف أهل دمشق على أنفسهم، فخرج إليه علماؤها؛ ليطلبوا منه الأمان[٥]، في ٣ ربيع الآخر سنة ٦٩٩هـ/ ٢٧ ديسمبر ١٢٩٩م، وأبرز هؤلاء العلماء: قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعي، والشيخ زين الدين الفارقي، والشيخ تقي الدين بن تيمية الحراني الحنبلي، والقاضي نجم الدين بن الصصري، والقاضي عز الدين بن الزكي، والشيخ عز الدين بن القلانسي، والقاضي جلال الدين القزويني، وغيرهم من الصالحين والزهاد، وعندما دخلوا على

---

(١) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٣٢.

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٠٧.

(٣) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ٢٧٧.

(٤) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ١١١ ، ١١٢.

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٠٤.

غازان ووقفوا بين يدية، تكلم المترجم مع غازان في أمرهم، بأنهم جاءوا يطلبوا منه الأمان، فقال غازان للمترجم : «قل لهم إنى أرسلت لهم الأمان قبل حضورهم»، فلما سمعوا ذلك رجعوا إلى دمشق، واجتمعوا في جامع بني أمية، وأهل الشام قاطبة، فقُرئ عليهم الأمان الذي أرسله لهم غازان، فلما سمعه أهل دمشق سكن خوفهم الشديد من المغول[١] .

بعد سقوط دمشق أرسل غازان عشرين ألف فارس بقيادة القائد المغولي بولاي[٢]، لاستكمال السيطرة على بلاد الشام، وتوجه قائدان مغوليان وهما وججك وهولاجو، وكان طريقهم باتجاه فلسطين[٣]، وهاجما صفد وبيسان والأغوار[٤]، وأما القائد المغولي بولاي فقد توجه إلى غزة، وأرتكب مجزرة في جامع غزة[٥]، وقتل خمسة عشر من المصلين[٦]، ثم قام بتدمير غزة[٧]، ونهب المغول جميع المدن الفلسطينية الكبرى وأخذوا أموالها وغلالها ومواشيها، وأسروا كثيراً من أهلها، وقتلوا الكثير من المسلمين والمسلمات، وعندما أغاروا على القدس والخليل، قتلوا من وجدوه في طريقهم من المسلمين والنصارى، وشربوا الخمر في المسجد الأقصى والحرم الإبراهيمي، وأفسدوا كثيراً في المدن الفلسطينية، وأستشهد عدد كبير من أهلها[٨].

بعد هزيمة الجيش المملوكي في وادي الخزندار، توجه إلى بعلبك وأقام بها أياماً، وعندما علم

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٠٤.

(٢) بولاي النوين التتري، أحد قادة المغول، في دولة غازان، واسمه الصحيح مولاي، وكان الناس يُحرفون اسمه تهكماً به وبأمثاله، كما يقولون في خداي بَنْدا، وكان غازان يثق به ويضعه في الحملات الكبرى على بلاد الشام، الصفدي : أعيان العصر ، ٢ ، ص ٧٠ ، ٧١.

(٣) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ٢٧٨.

(٤) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ١١٢.

(٥) يُسمى الجامع الكبير (المسجد العمري) وهو من المساجد العظمى في فلسطين، ضخم البناء، كبير القيمة الأثرية، شُيد على تلة تقع في منتصف مدينة غزة، وكانت حوله مدارس عديدة، وهو يعود بأصله إلى الكنيسة التي بُنيت في منتصف القرن الثاني عشر للميلاد من قبل فرسان المعبد، على اسم القديس يوحنا المعمدان (النبي يحيى عليه السلام)، وتعتبر منطقة الجامع الكبير من أهم المناق في غزة منذ ثلاثة آلاف سنة، وتم إصلاح المسجد الكثير من المرات في العصر المملوكي فقد تم ترميمه سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م في عهد السلطان حسام الدين لاجين، وأمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون مملوكه تنكز الناصري بزيادة كبيرة في مساحة الجامع، الدباغ ، مصطفى مراد: بلادنا فلسطين، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٢٤ – ١٢٦.

(٦) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ٢٧٨.

(٧) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٥٢ ، ص ٨٠.

(٨) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ١١٢.

أفراد الجيش المشتتين بمكانه، جاءوا إليه، ولما تكامل قدومهم، قصد التوجه إلى مصر، ووصل القاهرة بعد أسبوعين من ذلك[١]، ودخلها الجيش الإسلامي وحالته في غاية الضعف[٢]، وكان الأميرين زين الدين قرجا، وسيف الدين بكتمر الحسامي[٣] أمير خور ممن كان إلى جانب السلطان، وقدما له ما يلزمه طوال الطريق، ووصل الناصر في ١٢ ربيع الآخر ٦٩٩هـ/ ٥ يناير ١٣٠٠م إلى القاهرة، وبعد وصوله بدأ الجيش الإسلامي المنهزم، الوفود إلى مصر على دفعات[٤]، وفتح الناصر محمد خزائن السلاح، وفرق ما فيها من ملابس وخوذ وسيوف على الجند، ثم فتح خزائن المال، ووزع على عناصر الجيش، فأعطى لكل جندي من خميسين إلى ثمانين ديناراً، حسب رتبهم، ثم أنفق على الجيش الشامي الذي حضر معه إلى القاهرة كل واحد منهم عشرة دنيابر ذهب، وعشرة أرداب شعير[٥].

٦- قيام غازان بتولية أمراء المماليك الذين انضموا إليه نواباً على الشام، وصمود قلعة دمشق:

ولى غازان قبجق على دمشق وكتب له فرمان التولية[٦] ليُقرأ على أهل دمشق، بعد قراءة فرمان الأمان على أهل دمشق، في ٨ ربيع الآخر ٦٩٩هـ/ ١ يناير ١٣٠٠م، وصادر المغول الكثير من الخيول والسلاح والأموال المخبأة عند الناس، وفي يوم ١٠ ربيع الآخر/ ٣ يناير ١٣٠٠م قدم سيف الدين قبجق المنصوري، ونزل الميدان، وقام الجيش المغولي بالعبث والتخريب في البلد، وارتكبوا المجازر بحق الناس، وارتفعت الأسعار بالشام جداً، وهرب كثير من الناس، والعلماء، والتجار سراً إلى مصر، والمناطق المجاورة للشام، وغادر كثير من العلماء، منهم، القاضي إمام الدين الشافعي، وقاضي المالكية الزواوي، وتاج الدين الشيرازي، وعلم الدين الصوابي وجمال الدين بن النحاس، وبالرغم من ذلك فلم تسقط قلعة دمشق بيد المغول، ومن سقط

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٠٥.

(٢) اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ١٧٣.

(٣) سيف الدين بكتمر الحسامي، كان حاجباً في نيابة دمشق، وفي سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م ولاه الناصر محمد بن قلاوون ثغر الإسكندرية، ومات بها في شهر رمضان سنة ٧٢٤هـ، ابن حجر : الدرر الكامنة، ج٢، ص٢٣.

(٤) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٢٦.

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٠٥.

(٦) أنظر فرمان تولية غازان لقفجق على دمشق في ملحق رقم (١٠).

بيد المغول المدينة دون قلعتها، وكان على قبجق بعد أن ولاه غازان على دمشق، أن يُخضع القلعة، فأرسل قبجق إلى قائد القلعة[١]، واسمه علم الدين سنجر المنصوري والمعروف بأرجواش[٢] وهو من أمراء المماليك المتواجدين بشكل كبير في دمشق[٣]، وطلب منه قبجق التسليم، ولكن الأخير رفض تسليمها لقبجق، فجمع له قبجق اعيان البلد ليحدثوه بهذا الخصوص، فلم يجبهم وبقي مصمماً على الصمود في القلعة، وأرسل الشيخ ابن تيمية إلى قائد القلعة يشجعه على الصمود والثبات في القلعة، وكان من مضمون رسالة ابن تيمية للقائد أرجواش «لو لم يبق فيها الا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك ان استطعت»[٤].

تأسيساً على ما سبق يمكن القول، بأن سياسة حسام الدين لاجين الخاطئة تجاه كبار أمراء المماليك، واجبرتهم على الهروب من الشام إلى المغول قد ظهرت، فأصبح هؤلاء الأمراء بدلاً من أن يكونوا حماة للشام من المغول، أصبحوا عوناً لهم، ويتضح أيضاً أن قبجق لم يكن له سلطة على الجيش المغولي، وكان مجرد أداه يستخدمها غازان لإدارة الناس، والسيطرة الفعلية كانت للمغول، فمطالبته من أرجواش الاستسلام، وعدم قدرته على إيقاف جرائم المغول ضد أهل دمشق، تدل على أنه لم يكن لهم سلطة عليهم، وأنه مجرد أداه وناطق بأسم المغول في الشام، وكذلك سيكون الحال مع بكتمر وألبكي، وغيرهم من الأمراء الفارين إلى غازان.

أظهر أرجواش المقاومة والحزم، وأستخدم المغول معه سياسة الترهيب والترغيب، فلم يرهب ولم يرغب، بل قاوم وصمد، وعندما فشل معه الترغيب والترهيب، أطبق المغول حصاراً حول القلعة وعليها المجانيق الكبيرة، ولما شدد المغول الحصار على القلعة، خشي أرجواش أن يستولوا على الأماكن والمساكن التي حولها؛ فهدم جميع ما حولها من العمائر والبيوت، وابادها، وقرر تدمير دار السعادة، وقد وُفق في قرار هدمها؛ لئلا يتيسر للمغول النزول بها، وينصبوا المجانيق

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٧.

(٢) علم الدين أرجواش الجمدار المنصوري، تولي قلعة دمشق في أول دول المنصور قلاوون، فقام بتعمير القلعة وتحصينها، وكان شجاعاً وحازماً، ويمتاز بالصدق والجدية في التعامل مع الآخرين حتى مع السلطان، وفي توفي أرجواش سنة ٧٠١هـ/١٣٠٢م، في نفس القلعة، الصقاعي : تالي كتاب وفيات الأعيان، ص٩٢،٩١؛ الصفدي : الشعور بالعور ، ج ١ ، ص ١٤٠ ، ١٤١.

(٣) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة، ٣٣٢ ؛ ينظر ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٧.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٧ ، ٨.

خلف بنيانها[١].

وفي أثناء الليل أرسل أرجواش عدداً من الجند، وأخذوا معهم النفط، وقاموا بإشعال النار في بيت السعادة، وكان فيها عدد كبير من المغول، فحرق عدد قليل منهم و هرب الباقين منهزمين، وبقيت النار يومين وثلاث ليال في دار السعادة، ولما بلغ ذلك غازان غضب غضباً شديداً، وخرج بنفسه لمعاينة القلعة، وعندما رآها وجدها صغيرة وقلل من أمرها، وأمر بردم الخندق[٢]، فقالوا له: لا يمكن ردمه في شهر؛ لأن المياه مسلطة عليه وصعبوا أمره، وكان قصدهم إخماد النار، وأشار قفجق إلى أن يخاطب نائب القلعة بحضور غازان، وسمع غازان طلبه، فخرج قبجق، وبكتمر، وبعض أمراء المغول، ووقفوا قريباً من الخندق، وكان أرجواش قد نصب له كرسي عال بحيث يراهم ويرونه، فلما رأوه سلموا عليه، وسلم عليهم، ثم شرع قفجق بإغرائه بالوعود والعطايا، وإن لم يفعل سيلاقي عقاب شديد من غازان، فلما سمع أرجواش كلامه أجابه فأغلظ في جوابه، وقرعة تقريعاً شديدا، وقال له: «يا منافق، من يتقرب إلى القلعة؟ والله لو تقرب إليها أستاذي الملك المنصور ما كان له عندي غير سهم في صدره، ولكن قل لقازان يتقدم حتى ينظر ما يجري عليه»، ثم أخذ في سبهم ولعنهم، وأخبر المغول غازان بِرد أرجواش، جن جنونه، وازداد غضبه، واقترب المغول يحدقون من حول القلعة؛ فأمر أرجواش الرماة، وكان عددهم حوالي ألف رام في القلعة بضرب السهام، بكافة أنواعها، فنزلت السهام عليهم مثل المطر، وقتل عدد كبير من المغول، وجرح آخرون[٣].

كان المغول يجهزون لإعداد منجنيق كبير ومدمر ليضربوا به القلعة، وكلف غازان واليه قفجق بالإشراف على صناعة هذا المنجنيق بنفسه، وعندما علم القائد المملوكي الفذ أرجواش بنية المغول صناعة هذه المجانيق، أرسل أربعة رجال من الشجعان، ليقتلوا صانع المنجنيق، وبالفعل ذهب هؤلاء وقاموا بقتل صانعي المنجنيق وعددهم أربعة أشخاص، وطعن كل واحد من رجال أرجواش واحد من صانعي المنجنيق، ثم أحرقوا المنجنيق الذي قام المغول بصنعة قبل أن

---

(١) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٣٢ ، ٣٣٣.

(٢) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٣٦٠ ؛ ينظر ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٩ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٣١٦.

(٣) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٣٦٠.

يكتمل، وقد صلت النار إلى جامع دمشق، وانصدم المغول من هجوم أرجواش المفاجئ[١]، ولما علم غازان بما فعله أرجواش بالعملية التي قام بها الفرسان المسلمين الأربعة، ضاق صدره من أرجواش وصموده، وولى غازان أحد قيادات المغول الأكفاء، واسمه إسماعيل، ليعاقب أهل دمشق بزيادة الضرائب، والمصادرات؛ بسبب صمود قلعة دمشق، وعندما علم قفجق بذلك، أسرع بالتوجه إلى قازان وطلب منه أن يتلطف مع الناس في جمع الضرائب وقال له: «يا خوند الأموال لا تستخرج على هذه الحالة، ولكن بالتلطف على الناس» فأجاب غازان طلبه، وولى أشخاص أخرون في جمع الاموال من الناس، وهذه من أبرز حسنات قفجق، فقد أنقذ أهل دمشق من الموت القادم، فإسماعيل هذا قائد عسكري لا يعرف الرحمة، ولو تولى أمر جمع الأموال من الناس، لقتل منهم الكثير[٢].

بناء على ما سبق يمكن القول بأن القائد المملوكي علم الدين أرجواش المنصوري، لعب دوراً مهما في قهر المغول، من خلال صموده في القلعة، كما أن العمليات الفدائية التي كان يخطط لها، ويقوم بها رجاله، لعبت دوراً كبيراً في الاستخفاف بقوة الجيش المغولي، الذي كان يعدُ نفسهُ بأنه لا يُقهر، فإذ بقلعة صغيرة تمكنت من إعاقة وإرهاق جيشه، بالإضافة إلى تكبده خسائر مادية وبشرية فادحة.

بالرغم من الأمان الذي منحه غازان لأهل الشام إلى أن المغول هاجموا المساجد، وعاثوا تخريباً فيها، وانتهاكاً لها، مثل مسجد الأسدية، ومسجد خاتون، ودار الحديث، وقام الكرج والأرمن (حلفاء المغول) بحرق جامع التوبة بالعقيبية، وفي ٢ جمادي الأولى أرتكب المغول مجزرة في دمشق بحق الرجال، وأسروا كثيراً من النساء، ونال الشيخ تقي الدين بن تيمية كثيراً من الأذى، وفي هذا اليوم قتل المغول نحو أربعمائة من أهل الصالحية، وأسروا نحواً من أربعة آلاف أسير، ونهبت كتب ثمينة ومهمة، كثيرة ومن الرباط الناصري، والضيائية، وخزانة ابن البزوري[٣].

عين غازان سيف الدين بكتمر السلحدار على حلب، وحمص، وحماة، وكتب له فرمان

---

(١) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٧٤ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٣٦٠.

(٢) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٣٦١ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٨.

بتوليته على المدن الثلاث، ويُقرأ الفرمان على الناس[١]، وفعلوا وكان وضع المدن الثلاث لا يقل سوءاً عن دمشق[٢]، وكتب غازان فرمان للمدن الثلاث كفرمان دمشق، أعتمد فيه على خديعة الشاميين بالخطاب الديني[٣]، ووضع الأمير فارس الدين البكي الساقي في نيابة طرابلس وصفد والساحل الشامي، وعين الأمير يحيى بن جلال الدين على جباية الأموال، ومرجع نواب الممالك إليه[٤]، وفي ١٢ جمادي الأولى سنة ٦٩٩هـ/ ٣ يناير ١٣٠٠م رحل غازان عن بلاد الشام، وترك نوابه فيها[٥]، وأبرزهم نائبة المغولي قطلوشاه[٦] ليكون عوناً لقفجق في دمشق[٧]، وبالرغم من أن نيابة الشام كانت بيد قبجق إلى أنه لا يستبد بأمرها، بل الحكم كله لقادة غازان العسكريين، مثل بولاي وغيره[٨] .

لما تجاوز غازان الفرات أشار قبجق، وبكتمر السلحدار على النائب المغولي قطلوشاه أن يتحول عن دمشق إلى حلب بمن معه من التتار، وجمع قبجق له مالاً من الناس، وخرج قطلوشاه من دمشق في ٢٢ جمادي الأولى سنة ٦٩٩هـ/ ١٣ فبراير ١٣٠٠م، وأخذ معه عدداً كبيراً من المغول في دمشق، وترك بعض الكتائب المغولية فيها، وخرج قبجق لوداعة، وعاد بعد ثلاثة أيام في ٢٥ جمادي الأولى ٦٩٩هـ/١٦ فبراير ١٣٠٠م، ونزل بالقصر الأبلق، ونودي في اليوم التالي ٢٦ جمادي الأولى/١٧ فبراير ١٣٠٠م، بألا يخرج أحد إلى الجبل والغوطة، ولا يغرر بنفسه، ويفكر بالثورة، ثم نودي بخروج أهل الضياع إلى ضياعهم، وفي ٢٩ جمادي الأولى/ ٢٠ فبراير ١٣٠٠م تجول قبجق إلى مدينة دمشق وأقام بها، وفي ١ جمادي الآخرة/ ٢٢ فبراير ١٣٠٠م نودي بخروج الناس إلى الصالحية وغيرها، فخرجوا إلى أماكنهم وفتحت الأسواق، وأبواب المدينة، وفي ٧ جمادي الآخرة/ ٢٨ فبراير ١٣٠٠م، أمر قبجق جماعة من الموالين له بإدارة الخمارة بدار

---

(١) أنظر فرمان تولية غازان لبكتمر السلحدار على حلب وحمص وحماة في ملحق رقم (١١).

(٢) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٣٣.

(٣) أنظر فرمانات خديعة غازان للشاميين بالخطاب الديني ملحق رقم (١٢).

(٤) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ٢٧٨ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٢٥.

(٥) اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ١٧٣.

(٦) هو أحد أبرز قادة المغول في عهد غازان، وبقي على رتبته ومكانته في دولة المغول، في عهد خربندا (حاكم المغول بعد غازن وأخيه)، وكان خربندا قد أرسل قطلوشاه في عام ٧٠٥هـ/١٣٠٦م لقتال الأكراد، فقاتلهم، فهزموه وقتلوه، وكان مقتل قطلوشاه ضربه كبيرة لدولة المغول، النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ٢٨١

(٧) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ٢٧٨ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٢٥.

(٨) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٢٨.

ابن جرادة، فظهرت الخمور والفواحش، وكانت تدر اموالاً كثيرة للخزينة، حوالي ألف درهم يومياً[١].

في ٨ رجب سنة ٦٩٩هـ/ ٢٩ مارس ١٣٠٠م طلب قبجق من القضاة وأعيان دمشق، أن يكونوا عوناً لدولة غازان، فحلفوا له مُجبرين، وفي نفس اليوم خرج الشيخ تقي الدين بن تيمية إلى مخيم قبجق، واجتمع به، وأستطاع الشيخ ابن تيمية أن يخرج أسرى المسلمين من سجون المغول، وانقذ الكثير منهم، وبقي عند غازان ثلاثة أيام، ثم عاد، وقد أهان المغول الكثير من أعيان دمشق، وقد جاء إليه مجموعة منهم إلى قفجق، وقبل وصولهم إلى قفجق، قام جنود المغول بإهانتهم، وهذا يدل على أن قفجق ليس له سلطة على جنود المغول[٢]، وكان الأمراء الموالين لغازان، وهم: قفجق، وسيف الدين بكتمر السلحدار، وسيف الدين ألبكي، يعتقدون أنه بمجرد خروج غازان من الشام، ستكون بلاد الشام في قبضتهم وحوزتهم، دون المغول، ولكن ما حدث هو استبداد المغول بالأمور، وبدأوا يشعرون بأنهم ظلموا أنفسهم، وظلموا المسلمين بتحالفهم مع المغول الذي خدعهم بتظاهره بالإسلام، وتبين لهم انهم أفسدوا في الشام معه، وأنهم غلبوا مصالحهم الشخصية على مصالح الأمة[٣] .

بناءً على ما سبق يمكن القول بأنه بالرغم من تولية غازان للأمراء قبجق، وبكتمر، وألبكي، إلا أنه لم يكن يثق بهم، ووضع عليهم أحد قادته وهو قطلوشاه، ليكون مراقباً عليهم، ويتضح عدم ثقة غازان بهم، من هشاشة العلاقة بين غازان والأمراء الفارين إليه، فعدم ثقة غازان بهم، يعني أنه يشعر أيضاً في إمكانية عودتهم لأحضان المسلمين؛ لأنهم قدموا إليه فارين من الموت، وليس قادمين إليه من أجل التحالف ضد أبناء جلدتهم، وتأكيداً لهذا التحليل، سأستعرض رواية للمؤرخ الصفدي، دافع فيها عن سيف الدين قبجق، والأمراء الفارين إلى المغول معه، قائلاً: «اضطر في الدخول إلى بلاد التتار، والتجاهر بالخروج منها دون الاستتار، ولكنه شعب ما صدع، ودمل ما جذع، فكان في عداد التتار وهو مع الإسلام، وفي ظاهر الأمر بينهم، وهو في الباطن تحت الأعلام، وداراهم إلى أن عادوا، وبَدههم بدهائه إلى أن بادوا»[٤].

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٢٦.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١٠.

(٣) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٣٦١.

(٤) الصفدي : أعيان العصر ، ج ٤ ، ص ٦٢.

المبحث الثاني- الوحدة بين المماليك بعد احتلال غازان لبلاد الشام، ودور الوحدة في تحقيق النصر على المغول في معركة مرج الصُفر (شقحب) عام ٧٠٢هـ/١٣٠٣م:

أولاً- المراسلات بين الناصر محمد بن قلاوون وأمراء المماليك الموالين لغازان من أجل الوحدة:

تضايق قَفجق من تصرفات المغول ضد أهل الشام، وتضايق من استبداد أمراء المغول بحكم الشام وإذلالهم للناس، وعندما خرج بولاي وهو أحد كبار قادة المغول العسكريين، في ١٤ رجب سنة ٦٩٩هـ/ ٤ أبريل ١٣٠٠م، أشيع في دمشق أن قفجق يريد الانفصال عن المغول، وبالفعل دخل الندم إلى قلب قفجق على موالاته للمغول ضد المسلمين[١]، واتخذ الأمراء قبجق، وبكتمر السلحدار، وسيف الدين إلبكي بمكاتبة المسلمين والانضمام إليهم، وفعلوا دون علم المغول[٢] .

وصلت الاخبار إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون والأمراء في مصر، بخروج غازان من دمشق وعودته إلى بلاده، فقرر الناصر محمد بن قلاوون ترتيب صفوفه، ثم قصد الخروج؛ لتحرير الشام من المغول، فخرج في العشر الأوائل من رجب سنة ٦٩٩هـ/ مارس ١٣٠٠م من مصر[٣]، وأخذ معه الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد، والقضاة الأربعة، وأنطلق بالأمراء والجند، وتوجه إلى الريدانية، وعندما أراد الخروج منها، تقلب عليه الجند، وشكوا من قلة الرواتب، فنفق عليهم الأموال، ثم رحل من الريدانية، وأما نائب السلطنة سلار، والأتابك بيبرس الجاشنكير، قررا نسيان السيطرة على السلطنة، وجعل الكلمة الأولى للسلطان الناصر محمد بن قلاوون[٤]، ووصل السلطان الناصر إلى الصالحية في ١٩ رجب سنة ٦٩٩هـ/ ٩ ابريل ١٣٠٠م، وتوجه الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة[٥]، والأمير بيبرس الجاشنكير[٦]، ومعهم عدد كبير من الأمراء باتجاه الشام[٧]، وبقي السلطان الناصر في الصالحية، وفي أثناء الطريق بدأت المراسلات بين

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٢٨.
(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٩٠.
(٣) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٠.
(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٠٥.
(٥) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ١١٤.
(٦) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٧٥.
(٧) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ١١٤.

أمراء الناصر سلار وبيبرس، والأمراء الموالين لغازان قفجق وبكتمر والبكي، واتفقوا على إعادة توحيد الجبهة الداخلية المملوكية، ورص الصفوف[١]، وكانت مراسلات بين بينهما، على الوحدة، وكان الرسول الذي ينقل المراسلات بين الامراء، هو الأمير بدر الدين بكتوت الفتاح[٢]، وفي ٢٢ رجب ٦٩٩هـ/١٢ أبريل ١٣٠٠م وصل الأميران سلار وبيبرس إلى منطقة تسمى سكرير، وعند وصولهما إليها، كان الأمراء سيف الدين قفجق، وسيف الدين بكتمر وفارس الدين إلبكي، قد خرجوا من بلاد الشام متوجهين إلى مصر، وذهب الأمير بدر الدين بكتوت الفتاح إلى معسكر السلطان الناصر بالصالحية، واخبره بنجاح المراسلات مع الأمراء الثلاثة المتحالفين مع المغول، وبشره بقرب وصولهم، وبعودتهم إلى صفوف المسلمين، وفرح السلطان الناصر فرحاً شديداً بهذا الخبر، وضربت البشائر وعمت الأفراح، وكافأ السلطان الأمير بكتوت الفتاح ببردةٍ، وخلعة وفرس بسرجه ولجامه، على الخبر الذي نقله له، وعلى دوره في إتمام مفاوضات الصلح مع الأمراء: قفجق، وبكتمر: وإلبكي[٣].

ثانياً- دخول الأمراء قفجق وبكتمر وإلبكي إلى مصر وإتمام الوحدة مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون:

بعد خروج الأمراء قفجق، وبكتمر، وإلبكي من دمشق توجهوا إلى مصر، ودخلوا معسكر الأمراء أولاً سلار وبيبرس، وعندما دخلوا معسكرهم رحب بهم أمراء الناصر محمد، ثم بعثوا بهم إلى السلطان في الصالحية[٤]، ووصل الأمراء الثلاثة إلى الصالحية، في ١٠ شعبان سنة ٦٩٩هـ/٣٠ أبريل ١٣٠٠م، وتوجه السلطان الناصر محمد بن قلاوون لاستقبالهم بنفسه، وأقبل عليهم، وأكرمهم بالهدايا، وحوائص الذهب، والخيول، وخصص لهم رواتب قيمة[٥].

---

(١) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٧٥.

(٢) بدر الدين بكتوت الفتاح، كان من مماليك المنصور قلاون، وترقى إلى أن أصبح أميراً في سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٩م، وأستقر به الحال أمير جندار، وكان مساعداً لبيبرس الجاشنكير، ولما تولى الجاشنكير السلطنة، سار معه إلى الصعيد، ثم رجع إلى القاهرة طائعاً، ثم قبض عليه، وسجنه بالإسكندرية إلى أن مات جوعاً وعطشاً، ويقال أنه ترك أحد عشر يوماً محروماً من الأكل والشرب، وكان أميراً كريماً مهاباً، توفي سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م (في أوائل سلطنة الناصر الثالثة)، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٢٦

(٣) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ١١٤ ، ١١٥.

(٤) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٧٥.

(٥) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ١١٥.

عندما خرج جيش السلطان الناصر محمد إلى الشام، خرج قفجق ومن معه الجند المسلمين في دمشق، بالتزامن مع خروج جيش السلطان، وتركوا المغول، وعندما علم المغول بوصوله، ووصول بكتمر، وإلبكي، إلى مصر وإتمام المصالحة وتوحد المماليك، خافوا خوفاً شديداً من تكتل أمراء الشام مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وبدأوا يهربون أفواجاً قبل وصول الجيش الإسلامي إليهم، حتى طُهرت الشام من المغول؛ بالوحدة فقط، وليس بالحرب[١].

قرر السلطان الناصر محمد بن قلاوون العودة إلى القاهرة، بعد أن أقنعهُ الأمراء بأن عين المصلحة والحكمة، أن يعود للقاهرة، وأرسل الأمير سلار للسلطان، بأن أمر قفجق والأمراء الآخرين قد انحل، ومن الأفضل عودته للقاهرة[٢]، وكان عودة السلطان إلى القاهرة في ١٤ شعبان سنة ٦٩٩هـ/ ٤ مايو ١٣٠٠م[٣]، ووصلها في أوائل شهر رمضان من نفس السنة، وكان بصحبته الأمراء الثلاثة[٤]، وأسكنهم السلطان قلعة الجبل، ولما أستقر قليلا في مصر عين الأمير قفجق على نيابة الشوبك وأعمالها، ومنح بكتمر السلحدار إقطاع بمصر، وأعطاه أمرة مائة فارس، ومنح الأمير إلبكي إقطاع بدمشق[٥].

ثالثاً- إتمام الوحدة بين زين الدين كتبغا والسلطان الناصر محمد بن قلاوون:

عندما علم زين الدين كتبغا وهو بصرخد بهزيمة للجيش الإسلامي، في معركة وادي الخزندار، وسقوط الشام بيد المغول، فلم يرضَ أن يبقى مكتوف اليدين، وقرر الدخول في خدمة الناصر محمد جندياً بعد أن كان سلطاناً، للجهاد ضد المغول[٦]، فغادر صرخد متوجهاً إلى مصر، ونزل في طريقة بالكرك، وترك عائلته وأولاده بها[٧]، ورحب به السلطان وأكرمه بالهدايا والأموال[٨]، وتم منح كتبغا نيابة حماة بعد قراسنقر، وتم تعويض الأخير بولاية حلب، وكان الأميران سلار وبيبرس الجاشنكير هما من عينا كتبغا في نيابة حماة، ووصل كتبغا حماة في ٢٤

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٩٠.
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٠٥ ، ٤٠٦.
(٣) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ١١٥.
(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٠٦.
(٥) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ١١٥.
(٦) المقريزي: السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٢٦.
(٧) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٣٤.
(٨) المقريزي: السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٢٦.

شعبان سنة ٦٩٩هـ/١٤مايو ١٣٠٠م، وأستقر بحماة وأقام بدار صاحب حماة الملك المظفر [١].

رابعاً- عودة الشام بيد المماليك بعد توحيد جبهتهم الداخلية:

بعد انسحاب المغول من دمشق نزل أرجواش من قلعة دمشق، وضبط البلاد، ودبر أمورها، حتى وصول أمير يستلمها، وأمر أرجواش بتزيين الشام، وأُعيدت الخطبة للناصر محمد بن قلاوون، بعد أنقطعها فترة الاحتلال المغولي للشام، مدة مائة يوم[٢]، وعندما وصل الأميران بيبرس الجاشنكير وسلار إلى دمشق كانت فارغة من المغول ووضعا في نيابة دمشق الأمير جمال الدين أقوش الأفرم، وفي نيابة حلب قراسنقر المنصوري الجوكندار بدلاً من بليان الطباخي، وفي نيابة طرابلس، سيف الدين قطلبك، وفي حماة العادل زين الدين كتبغا، وفي قضاء دمشق بدر الدين بن جماعة، لوفاة أمام الدين بن سعد الدين القزويني، ثم عاد الأميران بيبرس وسلار إلى مصر، في منتصف شوال، وقام الأمير أقوش الأفرم بعقاب عملاء المغول في دمشق، وأرسل عساكره إلى جبل كسروان[٣] والدروز، وفرض على أهل دمشق التجنيد الإجباري، وتعلم الرماية وحمل السلاح، وفرض الناصر محمد بن قلاوون ضرائب على أهل دمشق ومصر؛ لقلة الأموال في الخزينة[٤] .

في عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م حدثت فتنة بين بدو البحيرة، من قبيلتي جابر ومرديش، وكاد يفتكوا ببعضهم البعض، أثناء انشغال الجيش المملوكي بالمغول، وكانت قبيلة مرديش قد اثخنت في قبيلة جابر، وعندما وصلت أخبار هذه الفتنة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، جهز عشرون أميراً من اكفأ أمراء المماليك، في حملة عسكرية؛ لإيقاف هذه الفتنة، وكان قائد الحملة الأمير المؤرخ بيبرس المنصوري، صاحب كتاب زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ولم يخجل هؤلاء العرب من أنفسهم، وقد نجحت الكتائب التي أرسلها الناصر في هزيمة الطرفين، وايقافهم عن القتال، وقد فر كثير من العرب إلى غرب الاسكندرية، وأخذ الجيش المملوكي مواشيهم من الجمال والأغنام، وأعتقل بيبرس المنصوري زعماء التمرد، وساقهم إلى القاهرة وسلمهم للسلطان الناصر

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٩٠.

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٢٨.

(٣) كسروان حاليا إحدى مقاطعات لبنان، وهي قضاء في جبل لبنان، وتطل على البحر المتوسط، مجموعة باحثين: مركز المعلوماتية للتنمية المحلية في لبنان، http://www.localiban.org.

(٤) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٧٥.

محمد بن قلاوون، الذي أجبرهم على توقيع الصلح بينهم تحت تهديد السيف؛ لأن الأخبار تواترت بنية المغول العودة إلى بلاد الشام، وكافأ السلطان الأمير بيبرس المنصوري على نجاحه في إيقاف الفتنة بسرعة[١] .

خامساً- محاولات غازان إعادة السيطرة على بلاد الشام واستعدادت الناصر محمد بن قلاوون للمواجهة:

في ١٣ محرم سنة ٧٠٠هـ/ ١٥ سبتمبر ١٣٠٠م وصلت الأخبار إلى أهل حلب بقدوم المغول إليهم؛ فخافوا، وبدأوا بإخلاء المدينة، وتوجهوا نحو مصر، حصون الشام، مثل الكرك، والصبيبة، وحصن الأكراد، وصفد، وشقيف، وشيزر وغيرها[٢]، وعندما توجه غازان بجيشه للفرات، وقصد حلب، خاف أهل الشام خوفاً شديداً، وارتفعت الأسعار كثيراً بسبب التقدم المغولي الجديد[٣]، وأرسل الرجال ونواب المدن بحريمهم إلى القاهرة[٤]، ولما تأكد السلطان الناصر محمد بن قلاوون من اقتراب جاليش عسكر غازان من الفرات، جمع الأمراء وشاورهم، وقال في المجلس: «أنتموا تعلموا أني رجعت من التجريدة الأولى مكسوراً، ونهب جميع بَرَكي، والآن لم يبقَ في بيت المال لا دينار ولا درهم، فمن أين أنفق على العسكر»؟ فقال نائب السلطان الأمير سلار والأتابك بيبرس الجاشنكير:«وزعوا هذه النفقة على المباشرين، وأعيان التجار، وأعيان الناس»[٥]، وقد أقتضت المصلحة وتحصيل ما يُعين على ذلك، وفرض على الاغنياء والتجار والباعة، وذوي الأنساب بمصر ضرائب بحسب أحوالهم؛ لتوزع على العساكر، وشراء السلاح، وجُبي منهم أقل من مائة ألف دينار، وكان المسؤول عن جبابة الضرائب شمس الدين الأعسر الوزير، والأمير ناصر الدين الشيخي والي القاهرة[٦].

استدعى السلطان الناصر محمد بن قلاوون نائب الحسبة مجدي الدين عيسى بن الخشاب؛ ليأخذ فتوى الفقهاء، بأخذ المال من العامة؛ لإنفاقه على العساكر؛ فأحضر فتوى الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، للملك المظفر قطز بأن يؤخذ من كل إنسان دينار، فرسم له سلار

---

(١) بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة ، ص ٣٤٩ ؛ ينظر ، ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١ ، ص٤٠٧، ٤٠٨.
(٢) البرزالي : المقتفي ، ج ٣ ، ص ١١٨.
(٣) اليافعي: مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ١٧٥.
(٤) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ١١٥.
(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٠٩.
(٦) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ١١٥ ، ١١٦.

بأخذ خط الشيخ تقي الدين محمد بن دقيق العيد، فأبي ابن دقيق العيد أن يكتب بذلك، فشق هذا على سلار، فاستدعاه، وقد حضر عنده الأمراء وشكا إليه قلة المال، وأن الضرورة دعت إلى أخذ مال الرعية؛ لأجل التصدي للعدو، وأراد منه أن يكتب على الفتوى بجواز ذلك، فامتنع ابن دقيق العيد، فاحتج عليه ابن الخشاب بفتوى ابن عبد السلام فقال: «لم يكتب ابن عبد السلام للملك المظفر قطز، حتى أحضر سائر الأمراء ما في ملكهم من ذهب وفضة وحلي نسائهم وأولادهم»، وحلف كل الأمراء للشيخ تقي الدين محمد بن دقيق العيد أنهم لا يملكون سوى القليل من الأموال، وقدموا الاموال القليلة له، وعاين الشيخ ابن دقيق العيد الخزينة، فوجد الأموال قليلة، وغير كافية، فعند ذلك كتب بأخذ الدينار من كل واحد، وقال الشيخ ابن دقيق العيد، «الآن فيبلغني أن كلاً من الأمراء له مال جزيل، وفيهم من يجهز بناته بالجواهر واللآلئ، ويعمل الإناء الذي يستنجي منه في الخلاء من فضة، ويرصع مداس زوجته بأصناف الجواهر، وقام عنهم فطلب ناصر الدين محمد بن الشيخي متولي القاهرة، ورسم له بالنظر في أموال التجار، وأعمال الناس وأخذ ما يقدر عليه من كل منهم بحسب حاله»، فما أهل جمادى الأولى حتى استجد عسكر كبير وغصت القاهرة ومصر وما بينهما، بكثرة الأخبار المخفية الواردة من بلاد الشام، حتى ضاقت بهم المساكن ونزلوا بالقرافة بالنظر في أموال التجار وأصبحت الشام فارغة من سكانها، وأخذ ما يقدر عليه من كل منهم بحسب حاله[١].

قام الشيخ تقي الدين بن تيمية بتحريض الناس على الجهاد، وأجتمع مع كبار أمراء المماليك، وأرسل للسلطان الناصر محمد بن قلاوون يطلعه على الأوضاع والمستجدات في الشام، ونودي في دمشق بالجهاد[٢]، وعندما وصل غازان إلى أطراف حلب بعد عبور الفرات في ربيع الأخر سنة ٧٠٠هـ/ ديسمبر ١٣٠٠م [٣]، وبعد عبور المغول للفرات قتلوا كثير من الناس، وأخذوا منهم كثير من الأسرى، وباعوا الأسير بعشرة دراهم، واشترى صاحب سيس منهم خلقاً كثيراً، وبيع كثير من الناس إلى بلاد الفرنج وكان أسرى المسلمين مقيدين بالأغلال والحديد[٤]، وتوجه قراسنقر بجيش حلب إلى حماة، لتكوين جبهة واحده ضد المغول، وأجتمع بزين الدين كتبغا

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٢٦.

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب ، مج ٧ ، ص ٧٩٤.

(٣) اليافعي: مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ١٧٥.

(٤) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ٤٦.

نائب حماة، وكان القائد العام للجيش هو كتبغا؛ نظراً لخبرته العسكرية العالية، وكونت الشام جيشاً واحداً، لمواجهة المغول في ٢٢ ربيع الأخر سنة ٧٠٠/ ٣ يناير ١٣٠١م، كما ووصل دعم عسكري من دمشق إلى حماة[١]، وكان كتبغا ينتظرهم مع عسكر الشام على أحر من الجمر؛ لتوجيه ضربه عسكرية قوية للمغول، قبل توغلهم في الشام[٢]، ووجد كتبغا بعض الكتائب المغولية في أطراف حماة الشمالية، فهاجمهم وقتل منهم حوالي مئة مقاتل، وأبعدهم عن حماة ولاحقهم [٣]، وجاءت الضربة الأخيرة للمغول، بهطول كثير من الثلوج والأمطار على المغول، ولاقى المغول كثيراً من المشاق في الطريق، من الوحل وشدة الأمطار والثلوج[٤]، وهلك عدد كبير منهم بعد منهم في هذه الحملة، خلال الأربعة أشهر التي استمرت فيها؛ بسبب البرد الشديد، وبسالة عسكر الشام في التصدي لها[٥].

بعد هزيمة المغول قرر غازان العودة مرة أخرى بحملة عسكرية أكبر في وقت آخر[٦]، وقبل هزيمة المغول كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون، قد قدم إلى الشام بعد جمع حوالي مائتي ألف دينار، لمواجهة المغول، فلما وصل غزة، أخبره العيون بهزيمة جيش المغول قبل وصولهم إلى حلب، ورجعوهم منهزمين إلى بلادهم[٧]، وتقدم السلطان إلى نهر العوجا في فلسطين، واشتدت عليه الأمطار، ولاقى مشاقاً من الوحل، حتى عجز الجيش والخيل تماماً عن المسير، وتوفي في الطريق الأمير سيف الدين بلبان الطباخي، وهو أحد أبرز أقوى وأشهم أمراء المماليك، وكان قد أبلى بلاءً حسناً في معركة وادي الخزندار سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م ضد المغول، ودُفن في الرملة؛ فاتخذ السلطان قرار العودة إلى مصر، وكان قراره ليس بسبب الوحل والبرد فقط وانما بسبب هزيمة المغول على يد أمراء المماليك في الشام[٨]، وعودتهم إلى بلادهم، واحتياطاً لحدوث طارئ جديد، أو هجوم مغولي جديد على بلاد الشام، طلب السلطان الناصر من الأمير

---

(١) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤١.
(٢) ابن سباط : تاريخ ، ج ١ ، ص ٥٢٢.
(٣) الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٢٣١.
(٤) اليافعي: مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ١٧٥.
(٥) الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٢٣١.
(٦) اليافعي: مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ١٧٥.
(٧) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٠٩.
(٨) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤١.

بكتمر السلحدار، وجماعة من أمراء العشرات والمماليك السلطانية، بأن يتوجهوا من غزة إلى حلب ويقيموا بها إلى أن يظهر من أمر المغول ما يتوجب التصدي، فتوجهوا إليها، وعاد السلطان الناصر إلى القاهرة، في موكب عظيم، ودخل إلى القلعة، وسكن الحال قليلا[١].

بالرغم من تمكن بلاد الشام في صد الهجمة المغولية، إلا أن الناس كانوا خائفين، ويتذكرون دائما أفعال المغول بحلب وغيرها، من المدن الشامية، وفي جمادى الأولى كان الناس ينتظرون السلطان والجيش من مصر؛ ليطمئن قلوبهم، وكان الناس يتساءلون «أين العسكر؟»، وكان الشاميون يعتبرون بلاد الشام البوابة الشمالية لمصر فإذا سقطت فهذا يعني سقوط مصر، وبذل الامام ابن تيمية في جُمَادَى الآخرة جهوداً واسعة، للحفاظ على ثبات نواب الشام، وأهلها، وعندما وصل الأمير سيف الدين بكتمر السلحدار في ٧ جمادى الأولى ٧٠٠هـ/ ١٧ يناير ١٣٠١م، ومعهم نحو ألف فارس، فرح الناس بهم فرحاً شديداً، وقد أخذوا دعماً معنوياً هائلا، بالرغم من قلة عدد الفرسان، وبقي بعض الناس في حزن؛ لعدم قدوم السلطان بنفسه إليهم[٢]، وبعد أن وجد الشيخ ابن تيمية خوف الناس في الشام قرر التوجه إلى مصر؛ لطلب السلطان الناصر محمد العودة إلى الشام، لمواجهة الخطر المغولي، وادخال الطمأنينة في قلوب الناس، ودخل الشيخ ابن تيمية القاهرة في ١١ جمادي الأولى/٢١ يناير ١٣٠١م، وأجتمع بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون، وكبار أمراء الدولة، واستصرخ بهم، وحضهم على الجهاد، وتلا عليهم الآيات والأحاديث، أخبرهم بما أعد الله للمجاهدين من الثواب، فتشجعوا وقويت هممهم، وأبدوا له العذر في رجوعهم، مما قاسوا من المطر والبرد، في الطريق إلى بلاد الشام، وبينوا له أنهم كانوا عازمين حسم الأمر مع المغول، من دون قدومه إليهم، لكن الشيخ ابن تيمة شجعهم أكثر، وبدأت الاستعدادات مرة أخرى لمواجهة حاسمة مع المغول، وأكرم السلطان محمد بن قلاوون الشيخ ابن تيمية كرماً شديداً، وتردد الأعيان إلى زيارته[٣]، وسكن أهل الشام قليلاً وعاد الأمير قراسنقر من حماة إلى حلب، بعد تراجع المغول خلف نهر الفرات في أواخر جمادي الآخرة سنة ٧٠٠هـ/ مارس ١٣٠١م[٤].

أصدر السلطان الناصر محمد بن قلاوون مرسوماً بأن يلبس النصارى عمائم باللون الأزرق،

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٠٩ ، ٤١٠.

(٢) الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ ، ٢٣٤.

(٣) ابن عبد الهادي : العقود الدرية ، ج ١ ، ص ١٣٥.

(٤) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤١.

واليهود باللون الأصفر، ويهود السامرة باللون الأحمر، لتمييزهم عن المسلمين، وفي ١٠ رمضان/١٨ مايو ١٣٠١م أصدر السلطان الناصر محمد بن قلاوون مرسوم قسم فيه نيابة قلعة دمشق بين أرجواش، والأمير سيف الدين اقبجا[١] في نيابة القلعة، وأن يجلس في حكم القلعة، كل واحد منهما، يوما ويكون الآخر بالقلعة يوما، فتنازل أرجواش لصالح سيف الدين اقبجا[٢] .

في شوال سنة ٧٠٠هـ/ أبريل ١٣٠١م وصلت رسائل نواب البيرة وحلب، بوصول خمسة رُسل من جهة غازان، وكان من بينهم قاضي الموصل، فخرج إليهم الأمير سيف الدين كراي السلحدار المنصوري، ليحضرهم، وكان وصولهم عند السلطان في ١١ ذي القعدة سنة ٧٠٠هـ/١٧ يوليو ١٣٠١م، وجمع السلطان الأمراء، لسماع رسالة القاضي المذكور، وهو كمال الدين موسى بن يونس، وجلس السلطان الناصر محمد، وأستمع رسالة غازان، وكانت الرسالة تحمل عتاب وكلام معسول، ودهاء كبير، وذكر غازان بأنه سلطان مسلم[٣]، كما وحملت الرسالة وعيد وتهديد، ورد عليها السلطان الناصر محمد بن قلاوون برسالة حملت التهديد وأخذ الثأر والانتقام[٤]، وكانت قد جاءت رسائل للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، ودية وتطلب السلم مع هدايا ثمينة للسلطان الناصر، وكان هيبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد زادت مع توحيد الجبهة الداخلية للمماليك[٥].

في مطلع عام ٧٠٠هـ/ سبتمبر ١٣٠٠م أراد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، تبديل بعد الاداريين في الدولة، فعزل الامير قطلبك عن نيابة البلاد الساحلية، وتولاها الأمير سيف الدين أسندمر، وتولي سيف الدين أقجبا المنصوري نيابة غزة، وجعل مكانه بالقلعة الأمير سيف الدين

---

(١) الأمير سيف الدين أقبجا المنصوري، هو أحد كبار أمراء دمشق، تولى رئاسة الدواوين في دمشق، في جمادى الآخرة سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م، وعُين الركب الشريف في سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، ودار بالمحمل في أول الثلاثة أشهر على العادة، ثم توقف عمل الركب ؛ لوصول الأخبار إلى دمشق بتحرك السلطان الناصر محمد بن قلاوون من الكرك إلى دمشق، وكان أقبجا أمير ثقة متدين، وفيه عفة في المباشرات، وحفظ الأمانة والأموال، تنقل في النيابات، وباشر نيابة بعلبك، ثم تولى نيابة غزة، ثم عُزل وبقي أميراً أقل درجة مما كان عليه، وتوفي في ربيع الأخر سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م، الصفدي : أعيان العصر، ج ١ ، ص ٥٥٠

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١٦.

(٣) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ١١٧.

(٤) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٢.

(٥) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ٥١.

بهادر السيجري وهو من الرحبة[١]، وعزل عن وزارة مصر شمس الدين الأعسر، وتولاها الأمير عز الدين ايبك البغدادي وهو من أمراء المماليك البرجية[٢] .

في العشر الأول من جمادى الأولى سنة ٧٠١هـ/ يناير ١٣٠٢م، اثار البدو فتنة جديدة، ورفضوا دفع الضرائب للدولة، وأرسل الناصر محمد بن قلاوون الامير سلار والأمير بيبرس الجاشنكير، والأمير سيف الدين بكتمر امير جاندار، ونجحوا في حصار البدو، وانهوا فتنتهم[٣]، في ليلة ١٨ جمادى الأولى سنة ٧٠١هـ/١٨ يناير ١٣٠٢م، توفي الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد، وهو أول خلفاء بني العباس في مصر، وهو الذي تولى دولة الظاهر بيبرس البندقداري وأقام أكثر من أربعين سنة في الخلافة، وتولى مكانة ابنه أبو الربيع المستكفي بالله[٤] .

يتضح مما سبق بأن جميع محاولات غازان في إعادة بلاد الشام، باءت جميعها بالفشل؛ بسبب الوحدة الداخلية للمماليك، وصلابة أمراء المماليك في الشام، وسرعة تصديهم للمغول، وتحريض الإمام ابن تيمية لأمراء المماليك على الجهاد، والدعم اللوجستي الذي كان السلطان يسرع في تقديمه لأمراء المماليك في الشام، وكان زين الدين كتبغا قد لعب دوراً كبيراً في التصدي للمغول، ومن الواضح أنه يكتسب خبرة عسكرية كبيرة، وأعتقد بأنه يفهم العقلية المغولية؛ لأنه من نفس جنس المغول.

سادساً- قضاء الناصر محمد بن قلاوون على الخطر الصليبي قبل المواجهة مع المغول:

في ٨ محرم سنة ٧٠٢هـ/ ١ سبتمبر ١٣٠٢م، وصلت رُسل من جهة غازان، وكانت رسالة غازان هذه المرة تحمل تهديداً صريحاً، ومطالبة بالتسليم[٥]، وهي تشبه رسالة هولاكو التي أرسلها لقطز، ورد له الناصر محمد بن قلاوون رسالة شديدة اللهجة، قرعة فيها تقريعاً شديدا[٦]، وبالتزامن مع رسائل المغول تحصن الصليبيين في جزيرة أرواد في محرم سنة ٧٠٢هـ/ سبتمبر ١٣٠٢م، وبنوا فيها أسواراً ضخمة، واتخذوها قاعدة لهم للهجوم على السواحل الإسلامية، وتم

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١٧.

(٢) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ١١٨.

(٣) المصدر نفسه ، ص ١١٩.

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤١٠.

(٥) انظر رسالة غازان للناصر محمد بن قلاوون في ٨ محرم سنة ٧٠٢هـ في ملحق رقم (١٣).

(٦) أنظر رد الناصر محمد بن قلاوون على رسالة غازان في ملحق رقم (١٤).

تعيين سيف الدين كُهُرداش قائداً للحملة[١]، يساعده أمير الساحل الأمير أسندمر[٢]، وأرسل السلطان الناصر محمد بن قلاوون لأسندمر، بالاستعداد فوراً لمساندة الاسطول في فتح جزيرة أرواد، فجُهزت السفن، وطُور الأسطول الإسلامي، وأنطلق أسندمر، عبر بحر الروم، حتى وصل الجزيرة[٣]، وكان أسندمر أميراً على طرابلس وهي قريبة من جزيرة أرواد[٤]، وقاتل الجيش المملوكي الصليبيين قتالاً شديداً، ونصر الله المسلمين، وفتحوا الجزيرة، وقتلوا وأسروا جميع أهلها وخربوا أسوارها، وعادوا بالأسرى والغنائم[٥]، وتم اتمام فتح الجزيرة في ٢ صفر سنة ٧٠٢ هـ/ ٢٥ سبتمبر ١٣٠٢م، ونتج عن الحملة إيقاف الخطر الصليبي عن سواحل بلاد الشام[٦].

سابعاً- استعدادات الناصر محمد بن قلاوون لمواجهة المغول في بلاد الشام:

في ٢٠ جُمَادَى الآخرة سنة ٧٠٢هـ/ ٨ فبراير ١٣٠٣م، جهز السلطان الناصر محمد بن قلاوون عشرة آلاف فارس، بقيادة الأمير حسام الدين الأستادار، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير؛ لحفظ الشام، والتأكد من صحة الأخبار التي جاءت بقصد المغول نحو بلاد الشام، وتوجه الأميران مع العدد الذي حدده السلطان من الفرسان، وجاءت الأخبار أن المغول متجهين بالفعل نحو بلاد الشام، بل تعدى بعضهم نهر الفرات[٧]، وبعد اجتياز النهر وصل جزء من جيش المغول بقيادة أمير مغولي اسمه قطلوشاه، ونزلت كتيبة من الجيش المغولي في مرعش، فأرسل نائب حلب يكاتب السلطان على الفور، وعندما وصل الجيش الذي أرسله الناصر محمد إلى غزة،

---

(١) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ٨٠.

(٢) الأمير سيف الدين أسَندمر، كان والي البر بدمشق، ولما جاء العادل كتبغا إلى دمشق في ذي القعدة سنة ٦٩٥هـ، عزله من ولاية البر بدمشق، وولى مكانة علاء الدين بن الجاكي، وكان قد تولاها في سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣م، وقيده كتبغا بقلعة دمشق في محرم سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م، وتولى نيابة طرابلس سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م، وضبطها، ولما عاد الناصر محمد بن قلاوون من الكرك ولاه نيابة حماة، وبعد وفاة الأمير سيف الدين قَبجق وكان الأخير في نائباً على حلب، فولاه مكانه، وقيل أنه قبض عليه بأمر من السلطان، وقيل أيضاً أنه نفي إلى الكرك وتوفي فيها في ذي القعدة سنة ٧١١هـ، الصفدي: أعيان العصر، ج ١ ، ص ٥٣٤ ، ٥٣٥.

(٣) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٣.

(٤) البرزالي : المقتفي ، ج ٣ ، ص ٢٠٠.

(٥) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٣.

(٦) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ٨٠.

(٧) المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ٨٠.

تأكدوا من صحة الاخبار بقدوم غازان بنفسه، وتأكدوا أنَّه وصل الرحبة، فلما تحقق السلطان من ذلك، أحضر الأميرين سلار، وبيبرس الجاشنكير، وتشاوروا في أمر غازان، فأشاروا على السلطان بضرورة الخروج فوراً، قبل أن يتمكن المغول من البلاد، ونودي بالنفير، وأرسل السلطان إلى بدو الشرقية والغربية، وأخبرهم بأمر غازان، فنسوا خلافهم الداخلي مع الدولة، وأجتمع منهم ما لا يحصر، وخرج السلطان ومعه القضاة الأربعة، والخليفة العباسي المستكفي بالله سليمان[١]، وكان خروج السلطان الناصر محمد في ١٨ رجب سنة ٧٠٢هـ/ ٧ مارس ١٣٠٣م، وتمكن غازان من الاستيلاء على الرحبة، بعد ان قام نائبها واسمه علم الدين سنجر الغتمي، بسياستهم وملاطفتهم، وأعلن هذا النائب أنه في طاعة غازان وخدمته، وشاءت الأقدار أن أصيب غازان بمرض الفالج، فعاد من الرحبة راجعاً، بسرعة إلى بلاده، وعين قطلوشاه أحد اكفأ أمراء المغول قوة وخبرة في علوم وفنون القتال، قائداً عاماً على جيوش المغول، وحثه على التقدم، والاستيلاء على بلاد الشام[٢]، وبلغ عدد جيش المغول أكثر من تسعين ألفاً[٣].

لما خرج السلطان الناصر محمد بن قلاوون من القاهرة، تقدمه الأتابك بيبرس الجاشنكير مع جماعة من العسكر، ولما وصلوا الشام، وجدوا جاليش غازان قد وصل قرب حماة؛ فأرسل الأتابك بيبرس الجاشنكير يستحث السلطان في سرعة السلطان الناصر محمد، وعندما وصلت رسالة بيبرس الجاشنكير إلى السلطان؛ فأسرع السلطان في السير حتى وصل الشام في مستهل شهر رمضان، وأنضم إليه بدو من نابلس، وأندمج معه عسكر صفد، ودمشق، وطرابلس، وغير ذلك من المدن الشامية[٤]، ويروي ابن إياس أنه اجتمع مع الناصر حوالي مائتي ألف مقاتل.

وتعقيباً على العدد الذي ذكره ابن إياس عن المسلمين، يمكن القول بأن هذا العدد مبالغ فيه؛ لأن نصف الجيش الإسلامي كان مع بيبرس الجاشنكير في دمشق، ومهما اصطحب الناصر من الجند من المدن الشامية أثناء خط سيره، فأنه لم يأخذ معه كل الجنود المتواجدين في النيابات، فمهمة حماية المدن أثناء غياب الجيش الرئيسي أهم من القتال، والخوف الكبير دائما يكون من قيام المغول بالهجوم عليها من الخلف، فتصبح كارثة، لو كانت المدن خالية من حماية الجند،

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤١٢ ، ٤١٣.

(٢) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ١٢٣.

(٣) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٧٨.

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤١٣.

وأعتقد بأن العدد الحقيقي للمسلمين ربما يكون قريباً من عدد المغول أو حتى أقل منه بكثير.

يقول الأمير والمؤرخ بيبرس المنصوري انه عندما كان متواجداً في دمشق، جاءه خبر من العيون، بوصول المغول إلى قارا، واستيلائهم عليها، وأصبح الوضع خطيراً جداً على المسلمين، وأن أمراء الشام أعلنوا حالة الاستنفار القصوى في صفوف الجيش، والتأهب الجهاد[١] .

أجتمع السلطان الناصر محمد بن قلاوون في الطريق في منطقة قريبة من تل الحرة وتل الفرس، للتشاور والتخطيط للمعركة، وأعلن جميع أمراء الجيش، أن الكلمة الأولى والأخيرة هي للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، وأن القلوب كلها توحدت، وأصبحت الطاعة عمياء للسلطان الناصر محمد، وامتنع أي أمير عن التصرف دون الرجوع له في أي أمر كان، وقبل وصول السلطان إلى دمشق خاف الناس خوفاً شديدا، وانتقدوا السلطان على تأخره عليهم، ولم يعذروه، ومنهم من تحامل عليه وشتمه[٢].

أغار مجموعة من المغول عددهم نحو عشرة آلاف على منطقة القريتين ونواحيها[٣]، وكان سكان هذه المنطقة من التركمان، وأسر المغول كثير منهم[٤]، في أطراف الشام، واجتمعت جيوش بلاد الشام بحماة عند نائبها زين الدين كتبغا، وكان مريضاً جداً، بعد عودته من حملة سيس الناجحة، وكان يحدث الأمراء وهو مسترخي، في الاجتماع، وأرسل زين الدين كتبغا عدة فرق من الجيش لإيقاف المغول الذين أغاروا على القريتين[٥]، وكان الجيش الإسلامي مقسم إلى عدة فرق، وكل أمير يتجه من جهة معينة، يقود فرقة، والقادة هم أسندمر، وأمراء أخرين أسمائهم، درأخي، وكجكن، وغرلو العادلي[٦]، وكل مجموع الجيش الإسلامي ألف وخمسمائة فارس[٧]، وكان الأمير أسندمر نائب الساحل، الذي لعب دوراً كبيراً في فتح جزيرة أرواد هو القائد العام للفرق الإسلامية؛

---

(١) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ١٢٣.

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٣ ، ١٢٤.

(٣) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٣.

(٤) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٧٨.

(٥) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٣.

(٦) الأمير شجاع الدين غرلو العادلي، مملوك العادل زين الدين كتبغا، وتولى نيابة دمشق في سلطنة العادل كتبغا، وكان قبله في النيابة الأمير أيبك الحموي، وبقي غرلو نائباً حتى خُلع أستاذه كتبغا، وتولى لاجين السلطنة، ابن طولون : إعلام الورى ، ص ٣٦ .

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٢٣.

فتوجه أسندمر في ٧ شعبان سنة ٧٠٢هـ / ٢٦ مارس ١٣٠٣م بجيشي حماة وحلب، وكانت الخطة مهاجمة المغول من مكان مناسب، ثم الإحاطة بهم، بعد رصدهم، وبالفعل ترصدتهم الفرق الإسلامية في ١٠ شعبان سنة ٧٠٢هـ/٢٣ مارس ١٣٠٣م، وجرت معركة صغيرة، تشبه حرب العصابات، انتصر فيها المسلمين على المغول، وأحاط بهم أسندمر بعد المعركة، ومنحهم الأمان مقابل أن يستلموا؛ فرفض المغول عرض أسندمر، وقاتلوا بالنشاب، وعمرا السروج ستائر، وناوشهم الجش الإسلامي من الضحى حتى أخر الظهر، ثم حملوا عليهم فقتلوهم عن أخرهم(١)، ونجحوا في تحرير جميع الأسرى التركمان من أيديهم(٢)، وخلصوا النساء والأطفال من الأسر، كما اعادوا منهم المواشي والأموال، بل أخذو منهم غنائم، ولم يستشهد في هذه المعركة سوى أميران، وهما: سيف الدين أنص الجمدار، وناصر الدين محمد بن باشقرد الناصري(٣).

عاد الجيش الإسلامي منتصراً إلى حماة في ١٣ شعبان٧٠٢هـ / ١ أبريل ١٣٠٣م، ولم تكن هذه المعركة حاسمة، انما كانت بهدف إعادة المغول، حتى وصول السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وتجمع فلول الكتائب المهزومة إلى الجيش الرئيسي الذي يقوده قطلوشاه، وتوجه مسرعاً وغاضباً إلى حماة بعد هزيمة الكتائب التي أرسلها إلى القريتين(٤)، وكان قطلوشاه يظن بأن السلطان لم يخرج من مصر(٥)، ونزل زين الدين كتبغا بنفسه؛ للتصدي لقطلوشاه(٦)، واظهر كتبغا قوة وشجاعة في مقاومة المغول، وكان قدومه من صرخد وتواضعه بأن يكون جندياً قد جاء بالوقت المناسب، بالإضافة إلى تعيينه نائباً على حلب قد جاء بالوقت المناسب، لأنه رجل قوي عنده خبرة عسكرية عالية في مواجهة المغول(٧)، لكن كان الوضع خطيراً جداً عندما باغته قطلوشاه فجأة في حماة، وكان من الصعب على مدينة مواجهة الأعداد الضخمة من المغول، وصعوبة المواجهة كانت؛ بسبب تأخر السلطان الناصر محمد عن الوصول، ولم تستطع حماة

---

(١) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٣.
(٢) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٧٨.
(٣) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٧٤.
(٤) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٣.
(٥) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٧٨.
(٦) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٣.
(٧) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ١٨٥.

وحلب التصدي لجيش كبير جداً بالعدد الذي يقوده قطلوشاه[١].

كان المغول يريدون الاستفراد بالمدن واحدة تلو الأخرى، واغتنام فرصة تأخر السلطان والاستفراد بالجيش الشامي وحده[٢]، ووصل المغول حماة في ٢٣ شعبان سنة ٧٠٢هـ/ أبريل ١٣٠٣م، ووصلت مقدمة المسلمين التي يقودها الأتابك بيبرس الجاشنكير، إلى مرج الزنبقية في دمشق، ليلتحق به أمراء الشام فيها[٣]، فالتحق به أمراء الشام، وهم: أقوش الأفرم نائب دمشق، وزين الدين كتبغا نائب حماة، وقراسنقر المنصوري نائب حلب، وأسد الدين كرجي نائب طرابلس، وغيرهم من أمراء الشام ومعهم عساكرهم، حتى تكون المواجهة واحدة وصلبة أمام المغول[٤]، ويروي الأمير والمؤرخ بيبرس المنصوري على قدوم أمراء وجيش حلب وحمص وحماة، قال: «فتوجهت مستكشفاً، والأخبار متعرفاً، فلما وصلنا القطيفة صادفنا عسكر حلب وحمص وحماة قد تقدموا جائين واقبلوا متواترين وأخبروا بأن العدو ساير سير المجد في الرواح والغدو، وقد أقترب الأقوام من الأقوام ودنت الخيام من الخيام فرجعنا إلى مرج راهط، وخرج الأمير ركن الدين أستاذ الدار، والأمير جمال الدين أقوش الأفرم، ومعهما الأمراء المصريون والشاميون، فاقتضت الآراء التأخر عن المرج قليلاً والنزول دونه ولو ميلاً ريثما يحصل التوثق من وصول السلطان واجتماع العساكر قبل أن يلتقي الجمعان، فلما رجعوا إلى خلف شيئاً يسيراً، ولت الاطلاب وعادت العساكر على الأعقاب حتى أكثرهم رمى حماله ورمى أثقاله وأهمل قماشه وماله، ولم يتهيأ ردهم ولا أمكن صدهم وعبروا على مدينة دمشق، فتصدعت قلوب أهلها المكسورة».

يتضح مما سبق أن أمراء المماليك في الشام قد ضيعوا فرصة كبيرة على قائد المغول قطلوشاه من التفرد بمدنهم واحدة تلو الأخرى، وكان انسحاب الأمير زين كتبغا من حماة، ليس تخاذل إنما هو قمة الذكاء العسكري، فليس من المعقول ان تواجه حماة وحدها جيش منظم يبلغ أكثر من تسعين الف مقاتل، وحافظ كتبغا على جيش حماة وجيش حلب الذي دخل تحت قيادته، على النشاط الكامل دون ارهاق الجيش، والدخول في معركة خاسرة، ولو دخل كتبغا في معركة وخسرها، فأن هذا سيؤثر على معنويات الجيش الرئيسي.

---

(١) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٣.

(٢) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٧٤.

(٣) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٣.

(٤) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٧٨.

اختلف الأمراء في دمشق، في الرأي، من فضل الخروج ولقاء العدو قبل وصول السلطان، ومنهم من طالب بانتظار السلطان، واتفقوا أخر الأمر انتظار السلطان، وخشوا من مفاجأة العدو، فنادوا بالرحيل ورحلوا أول رمضان ٧٠٢هـ / ١٨ ابريل ١٣٠٣م[١]، سار جموع الجيش الإسلامي بقيادة بيبرس الجاشنكير إلى مرج الصفر، واقترب المغول منهم تدريجياً، وانتظر الجيش الإسلامي وصول السلطان إليهم، وتقدم المغول باتجاه معسكر الجيش الإسلامي، حتى وصلوا شقحب في أطراف مرج الصُفر طالبين العسكر الإسلامي، وبالتزامن مع وصول المغول إلى شقحب، ووصل السلطان إلى الجيش الإسلامي الذي ينتظره بقيادة بيبرس الجاشنكير[٢]، ولما بلغ المغول أن بيبرس الجاشنكير خرج عن دمشق وأخلاها، ظنوا أنها خدعة منه، حتى يدخلوا المدينة ويشتغلون بنهبها، فيهجم عليهم بسرعة، وهذا مما أرماه الله في قلوبهم من هيبة الجيش المملوكي، وحمى الله دمشق بلطفه من شرهم[٣].

كان الناس في خوف شديد، وكثير منهم راحل من بلاد الشام باتجاه مصر، مع تقدم المغول، ومع غرة شهر رمضان تفاءل الناس ببركة الشهر، وبدأوا بالدعاء والبكاء، يستجيرون بالله ويبكون ويسألونه ويتذللون له وهم صائمون، ومع وصول السلطان الناصر محمد بن قلاوون إليهم، هدأت النفوس حتى أن الجيش نفسه الذي يترأسه بيبرس الجاشنكير كان مضطرباً، وخائفاً، وجاء وصول السلطان بالجيش الرئيسي في الوقت المناسب[٤] .

ثامناً- معركة مرج الصُفر ودور الوحدة في تحقيق النصر:

١-معركة مرج الصُفر (٧٠٢هـ/١٣٠٣م):

تزامن وصول السلطان إلى مرج الصفر مع وصول المغول إليها، ورتب السلطان الجيش كالتالي:

أ- القلب

كان السلطان في القلب بلوائه وبجانبه الخليفة المستكفي بالله أبو الربيع سليمان، وإلى جانبة عدد من الأمراء الكبار، وهم: الأمير سيف الدين سلار نائبه، والأمير ركن الدين بيبرس

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٥٦.

(٢) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٩٣.

(٣) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ٨٥.

(٤) الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٢٣٥.

الجاشنكير، والأمير عز الدين أيبك الخزندار المنصوري، والأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار أمير جندار، والأمير جمال الدين أقوش الأفرم نائب السلطنة بالشام، والمماليك السلطانية[١].

ب- الميمنة

وقف في الميمنة الأمير حسام الدين لاجين الرومي الأستادار، وكانت تحت قيادته، ومعه عدد من الأمراء الشجعان، وهم: الأمير جمال الدين أقوش الموصلي المعروف بقتال السبع[٢]، والأمير جمال الدين يعقوب الشهرزوري، والأمير مبارز الدين أوليا بن قرمان ومضافيهم، وفي جناح الميمنة الأمير **سيف الدين قبجق**، وجميع البدو[٣]، من أل مهنا وأل فضل[٤].

ت- الميسرة

الميسرة الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح[٥]، والأمير شمس الدين قرا سنقر المنصوري نائب حلب، والأمير سيف الدين أسند مركرجي نائب السلطنة بالفتوحات، والأمير سيف الدين بتخاص نائب صفد، والأمير **سيف الدين بكتمر السلاح دار**، والأمير سيف الدين طغريل الإيغاني، والأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصوري، والأمير ركن الدين بيبرس الموفقي، وغيره من مقدمي أمراء الشام، وكنت في الميسرة[٦].

ث- القتال:

كان السلطان والخليفة يمشيان أمام الجيش يمينا وشمالاً؛ لدعمه معنوياً[٧]، وحث الخليفة المستكفي بالله أبو الربيع سليمان ومن معه من العلماء، الجند على الجهاد وشوقوا المجاهدين إلى

---

(١) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٧٥ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٢ ، ص ١٨.

(٢) جمال الدين آقوش المنصوري، المعروف بقتال السبع، كان من كبار أمراء المماليك، كان عظيم البأس، وشهير بكثرة النجدة، له الكثير من الأملاك والمماليك، وبُطش به في غرب نبع المنيا بمصر، وكانت وفاته في رجب سنة ٧١٠هـ/ديسمبر ١٣١٠م، الصفدي : أعيان العصر ، ج ١ ، ص ٥٧٣.

(٣) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٧٥ ، ٣٧٦ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٢ ، ص ١٨.

(٤) العيني : عقد الجمان : ج ١ ، ص ٤١٨.

(٥) الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح، كان من مماليك الأمير فخر الدين بن الشيخ، أحد أبرز أمراء الصالحية، شارك بكتاش في الكثير من الغزوات، وكان حسن السيرة، وعادلاً يكره الظلم، تولى منصب أمير سلاح حتى سنة ٧٠٦هـ، وتنازل عن إقطاعه للدولة، ولزم داره وتوفي في القاهرة في نفس السنة التي عزل في فيها، الصقاعي ، تالي كتاب وفيات الأعيان ، ص ٥٦ ، ٥٧.

(٦) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٧٦ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٢ ، ص ١٨.

(٧) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٦٠.

الجنة، وخطب الخليفة في الجند ومما جاء في خطبة الخليفة، قال: «يا مجاهدون لا تنظروا لسلطانكم قاتلوا عن حريمكم وعلى دين نبيكم صلى الله عليه وسلم»، وبكى الجند من خطبة الخليفة بكاءً شديداً، ومنهم من سقط عن فرسه من شدة البكاء، وأوصى بيبرس وسلار الجيش على الثبات في الجهاد، وثبت السلطان، ومع الحرس الخاص، وأوصى السلطان الناصر محمد بن قلاوون حرسه الخاص، وقال: «من خرج من الأجناد عن المصاف فاقتلوه ولكم سلاحه وفرسه»[١]، وقال بيبرس الجاشنكير : «أنا عاهدت نفسي الموت»، وذلك حين قال له سلار: «يا أخي أنت تعلم أن الحديث فينا كثير، وأنا نسبوني إلى التتار لكوني من جنسهم، وأنت نسبوك إلى أنك تبغض الجند، فبالله أوص لأصحابك بالثبات وإلا لا يبقى لنا وجه عند أحد بعد هذا اليوم»، وتعاهدوا، ووثق بعضهم بكلام بعض، ثم نشروا السناجق والأعلام، وسيروا النقباء، فداروا على الركبدارية والغلمان والجمالة[٢].

أقبلت كراديس المغول، تجاه الجيش الإسلامي، وكان الكثير من قادتهم الكبار، على رأس هذا الجيش، وأبرزهم: قطلوشاه، وسوتاي اقطاجي[٣]، وجوبان[٤]، وبُولاى وقرمشي بن الناق، وشبوشي بن قطلوشاه، وغيرهم، وكان عددهم حوالي مائة ألف جندي من المغول والكرج والأرمن، وغيرهم[٥]، ووقفوا أمام الجيش الإسلامي في ٢ رمضان سنة ٧٠٢هـ/ ١٩ أبريل ١٣٠٣م، والتحم الجيشان وقت الظهر[٦]، وضغطت ميسرة المغول على ميمنة المسلمين، فثبت من كان فيها من

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٥٦.

(٢) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٤١٨.

(٣) سُوْتاي، كان كبار القادة العسكريين للمغول، وكان سوتاي أقطجياً، لأبغا ملك المغول، والأقجي بمنزلة أمير خور عند المماليك، وكان مُعظماً عن ملوك المغول، وعاش أكثر من مائة عام، ورأى أربعة بُطون من أحفاده، ووضعه المغول أميراً على منقطة ديار بكر، وتوفي سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م ، الصفدي : أعيان العصر ، ج ٢ ، ص ٤٨٦ ، ٤٨٧.

(٤) جوبان النوين الكبير، كان من قادة المغول، وأكثرهم شجاعة وإقداماً، وكان من الأمراء المفضلين عند غازان، وشارك في حملات ضد المسلمين، وعندما أسلم حسن إسلامه، وأوصل الماء إلى مكة، في أوائل جمادى الأولى سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م، وأنشأ مدرسة جميلة بالمدينة المنورة في جوار الحرم الشريف، ولعب دور مهم في إتمام الصلح بين ملك المغول بوسعيد والسلطان الناصر محمد بن قلاوون ثم تنمر عليه ملك المغول بوسعيد بعد أن منع المغول من قتل الناس في الرحبة، وكان مقتله في سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٨، ودفن في المدينة المنورة، وبلغ الستينات من العمر، الصفدي : أعيان العصر ، ج ٢ ، ص ١٦٩ – ١٧١.

(٥) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٧٦.

(٦) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٦٠.

الأمراء والجند في القتال، ثباتاً عظيماً، ولما رآهم الأمير حسام الدين أستاذ الدار قال: «بسم الله نية الغزاة»، فجذب سيفه ومشى، وقال بعض مماليكه: «يا خوند ارجع قليلاً عن يمينك أو عن شمالك»، فلم يلتفت إليهم إلى أن صدمته الخيل، وصدمت ابن قزمان أيضاً، فكان الاثنان بينهم كالواحد في ألف، فإن الجميع اجتمعوا على مخاضة واحدة، وهجموا هجوم رجل واحد(١).

بعد استشهاد قائد الميمنة الأمير حسام الدين الأستادار، والأمير مبارز الدين أوليا بن قرمان، أستشهد بعدهم عدد كبير من الامراء والجند، وأبرز الأمراء الذين استشهدوا: الأمير شمس الدين سنقر الكافري، والأمير عز الدين أيدمر الشمسي القشاش، والأمير جمال الدين أقوش الشمسي الحاجب، والأمير عز الدين أيدمر الرفا المنصوري، والأمير عز الدين أيدمر النقيب، والأمير علاء الدين بن دُدا التركماني، والأمير حسام الدين علي بن باخل، وأستشهد حوالي ألف فارس من الجند والأمراء(٢).

بعد استشهاد قائد الميمنة الأمير حسام الدين الأستادار، اِندفع الأمير سيف الدين قبجق بمن تبقى من الميمنة، وحل في قيادة الميمنة في مكان الشهيد الأمير حسام الدين، وشن قبجق هجوماً قوياً وثابتاً، تمكن فيه من سد ثغرة بعد استشهاد كبار الأمراء وألف من الجند(٣)، وعندما أنتبه الأمراء في القلب إلى ما حدث للميمنة، أدركوهم بكثير من الجند، من القلب والميسرة، وصاح نائب السلطنة سلار، وقال : «هلك والله أهل الإسلام»، كما وصرخ الأمير بيبرس الجاشنكير طالباً المماليك البرجية ليساندوه في الهجوم؛ فأتوه، وصدم بهم قطلوشاه، وأبلى بيبرس الجاشنكير بلاء عظيماً في الهجمة التي شنه في القلب، وكان قائدان من المغول وهما جوبان بن تدوان، وقرمجي بن الناق، قد أمدا القائد المغولي بولاي بدعم ليهجم على الجيش الإسلامي من الخلف، فلما شاهدا بداية هزيمة قطلوشاه أتياه بسرعه، ووقفا في وجه سلار وبيبرس الجاشنكير، وثبت المغول مرة أخرى بقوة، فخرج الأمراء سيف الدين قبجق، وأسندمر، وقطلوبك(٤)، وحرس السلطان

---

(١) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٤١٩.

(٢) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٧٦.

(٣) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٣.

(٤) الأمير قطلوبك المنصوري الكبير، كان من مماليك المنصور قلاوون، وصديقاً لسلار نائب السلطنة، رئاسة الدوواين بدمشق سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٨م، ثم أصبح حاجباً بمصر سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٩م، ثم وُلي نيابة طرابلس، فلم يقم بها، وطلب النقل عنها، فأعطي إمرة مائة فارس بدمشق، وكان يحب البذخ والعظمة، والإفراط في التجمل والكرم، فثقلت وطأته على نائب دمشق أقوش الأفرم، وأصلح بينهما أمير اسمه الحاج

وأعانوا بيبرس الجاشنكير وسلار في القلب، وعملوا على تثبيت قوة القلب وسد الثغرات [١].

مع ثبات الميمنة والقلب وضغطهما على المغول، وأمام صمود ميسرة المسلمين التي كان القائد عليها بولاي يستميت لاختراقها، إلى أنه فشل في ذلك، وتمكنت الميسرة من هزيمته[٢]، وقد حدثت معجزة مع الميسرة الإسلامية، ولطفاً من الله، إذا كانت الجهة التي هم فيها بها مياه راكدة، يعجز الجند والخيل من المشي عليها، في ظل فوضى المعركة، إذ شعر الجند كأنهم يمشون على صخور صلبة، وكأنه لا ماء ولا وحل حتى أنه لم يتبلل الفرسان ولا الخيل، ولا أنقطع حمل الأحمال الثقال[٣]، وكان الناس يكثرون من الدعاء للجيش الإسلامي وللسلطان، بالنصر في الوقت الذي كانت فيه المعركة مع المغول[٤]، وأبدى السلطان الناصر محمد بن قلاوون شجاعة وثباتاً عظيماً[٥].

كان الجيش الإسلامي منسجماً في القتال، وكانت الطاعة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون عمياء، وكان الجند يُقاتلون كأنهم بنيان مرصوص، وقد كان الأمراء بالفعل لا خيار أمامهم إما النصر أو الشهادة، ولم يفكر أحدهم في الانسحاب والهروب من المعركة[٦]، وأندهش قطلوشاه من ثبات الجيش الإسلامي والأمراء، وألقاهم بأنفسهم إلى الموت، وتحول اندهاشه إلى خوف، وقرر الانسحاب؛ لأنه رأى بأن المسلمين راغبين في الثبات والموت، حتى لو قتلوا جميعاً في المعركة[٧].

مع حلول الظلام، توقف الفريقين عن القتال، وهرب المغول إلى أعلى جبل غباغب، وهو

بهادر، وكان قطلوبك ينوي محاربة السلطان الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، لكنه تراجع ومال إلى السلطان، ولما عاد إلى مصر، وُلي نيابة صفد في سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، لكنه أرتكب أخطاء، فقبضَ عليه الناصر وسجنه بالكرك، وقتل في سجنه سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤ ، ٢٩٤-٢٩٦.

(١) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٥٧.

(٢) النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٢ ، ص ١٩ ؛ ينظر ، بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٧٧.

(٣) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٧٧.

(٤) البرزالي : المقتفي ، ج ٣ ، ص ٢٢٢.

(٥) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ٨٧.

(٦) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ١٢٥ ، ١٢٦.

(٧) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٤١٩.

قريب من المعركة، وأضرموا النيران أعلاه[١]، وكان قطلوشاه على الجبل يظن أنه قد أنتصر، وأن قائده بولاي في أثر المنهزمين يلاحقهم [٢]، وكان عكس ما توقع، إذ أن السلطان بعد نهاية المعركة لاحقهم، وأطبق عليهم حصاراً كالحلقة حول الجبل[٣].

كان الجيش الإسلامي ثابتاً مع السلطان حول الجبل، ورايات ترفرف خفاقة، وعندما صعد قطلوشاه أكثر في الجبل شاهد الجيش الإسلامي يحاصر، فصدم صدمة شديدة، وتحير، وكان المغول قد نجحوا في أسر أحد امراء المماليك وهو عز الدين ايدمر نقيب الحرس الخاص للسلطان، فأحضره قطلوشاه وسأله: «من أين أنت» فقال : «من أمراء مصر»، ولم يعرف قطلوشاه بقدوم السلطان مع المماليك في مصر وجنوب الشام إلا منه، فقد كان يعتقد بأنه يُقاتل فقط المقدمة التي كانت مع بيبرس الجاشنكير وعسكر الشام فقط والذي يمثل حلب، وحماة، وحمص، ودمشق، وكأنت صدمته أشد عندما علم أن السلطان هو الذي كان يقود المعركة ويحركها[٤]، وسأل قطلوشاه الأمير عز الدين أيدمر وقال: «فأي وقت وصلتم إلى ههنا»، فأخذ يعرفه أيدمر، ويخبره من يوم خرج من مصر إلى هذا اليوم، من جملة ما قال له أيدمر: «هذا الذي كسرتموه من الميمنة فقط، وعسكر الملك الناصر كثير»، فلم يصدقوه، حتى أحضروا أسيراً غيره، فسألوه فأخبرهم بنفس كلام الأمير عز الدين أيدمر، ثم سألوا غيره وغيره من أسرى المسلمين، إلى أن سألوا جماعة كثيرة، فالكل أخبروا بخبر واحد، ولما تحققوا صدق كلامهم[٥]، ودخل الخوف في قلب قطلوشاه؛ فجمع أمراء المغول وشاورهم فيما يفعل[٦]، وقال القائد المغولي بولاي لقطلوشاه والأمراء: « ألم تعلموا أن الخان قازان قد كتب يغلق، وعاهدنا أننا إذا رأينا أو سمعنا أن الملك الناصر حاضر بعسكره أو بغير عسكره لا نضرب معه مصافاً»، فقال له قطلوشاه: «لو علمنا من الأول أن الملك الناصر حاضر ههنا ما ضربنا معه رأساً، ولكن اعتقادنا أنه نائب الشام مع عسكر الشام، والآن فقد وقعنا كلنا في فم السبع فما بقي إلاّ الموت جميعاً أو

---

(١) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٧٧.

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٥٧.

(٣) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٧٧.

(٤) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٥٧.

(٥) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٤٢٠.

(٦) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٥٧.

الحياة جميعاً»[١]، وبعد لحظة من حديثهم هذا، وإذا بكوسات وبوقات السلطان والأمراء قد رجت الأرض بصوتها وحسها، وأزعجت قطلوشاه والمغول وأخافتهم، وكان لهذه الكوسات والبوقات دوراً مهماً في إرهاب المغول وقادتهم[٢]، وقال بولاي لقطلوشاه: «هذا الطبل ما يدق إلاّ للسلطان، وأنا ما أخالف يسق الخان»، ونزل بولاي هارباً من أمام قطلوشاه، من أعلى الجبل[٣]، وفر معه زهاء عشرين ألفاً من فرسان المغول[٤]، وعلم الجيش الإسلامي بفراره، وفتحوا له الطريق، ولم يستطع أحد أن يقربه ولا أن يتبعه من الجيش الإسلامي؛ بسبب الظلام؛ وحتى لا يتم فك الحصار عن باقي المغول حول الجبل[٥].

كان الأمراء سلار وبيبرس الجاشنكير وأسندمر وقبجق، وباقي الأمراء الكبار في حرص يقظة تامة طوال الليل وكانوا يتأكدون من يقظة باقي الجيش، وكان قبجق المستشار العسكري للسلطان والأمراء، بسبب خبرته في عقلية المغول؛ لأنه تعامل معهم، وأشار قبجق على السلطان والأمراء، بعدم القتال في الليل، لأن المغول لو قتلوا عن آخرهم في هذا المكان، ما ينزل أحد منهم في الليل ولا يقاتل، وإنما لا بد لهم من النزول في الصباح، فسمعوا كلامه[٦]، ومع إطلاله صباح يوم الأحد الثالث من رمضان، كانت الخيول قد أتمت حصار المغول في جبل غباغب، وأرعب الجيش الإسلامي المغول كثيراً، بالعرض العسكري الذي قام به حول الجبل، وقد دُهش المغول كثيراً وبهتوا من ما يملكه الجيش المملوكي من علوم وفنون القتال[٧]، وقام الأمراء بيبرس الجاشنكير وسلار وقبجق بمساعدة السلطان في تنظيم الجيش، وكان الأمراء الكبار يكثرون من التأكيد على يقظة الجيشة وأخذ الأهبة[٨]، ومن شدة الخوف لم يستطع أحد منهم ان يتحرك من مكانه، وهلك كثير من خيل المغول من شدة العطش[٩]، وقد حصل اشتباك بالسهام، وهاجم

---

(١) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٤٢٠.

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٥٧.

(٣) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٤٢٠.

(٤) النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٢ ، ص ١٩ ؛ ينظر ، بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٧٧.

(٥) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٤٢٠.

(٦) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٤٢٠.

(٧) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٧٧.

(٨) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٥٨.

(٩) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٧٧.

المغول الجيش الإسلامي في عمليات كر وفر، أي نزولهم من على الجبل وقتال المسلمين ثم يصعدون مرة اخرى، وقد قُتل من المغول ثمانين مقاتلاً، وجرح الكثير منهم، وأسر الكثير منهم، وتم التحقيق مع الأسرى عن نية المغول وخطتهم للمواجهة؛ فأعترفوا بأنهم قد أجمعوا على النزول وقت السحور، ومصادمة الجيش، وأستشار السلطان الأمراء، وأتفقوا على أن يفرج لهم عند نزولهم ثم يركب الجيش الإسلامي بملاحقتهم وقتلهم[١]؛ فأمر السلطان أن يفرج لهم ثغرة من رأس الميسرة ليبادروا بالفرار[٢].

وفي وقت السحور يوم ٤ رمضان سنة ٧٠٢هـ/٢١ أبريل سنة ١٣٠٣م، بدأ المغول بالنزول من على الجبل[٣]، فنزلت فرقة أولى على رأسها القائد المغولي جوبان في زهاء ثلاثين الفاً من المغول، ثم تلاه قطلوشاه بقرقة ثانية بلغ عددها حوالي ثلاثين ألفاً، وبقي منهم فرقة ثالثة بقيادة القائد المغولي طيطق، وتقديرها عشرين ألفاً، فأمر السلطان الناصر محمد بإغلاق الثغرة، للاستفراد بهم؛ بسبب قلة عددهم، وتمكنوا من إبادتهم جميعاً، وبقي حتى الليل وتم النصر الحاسم مع المغول[٤].

نجح الجيش المملوكي في تمزيق وتشتيت المغول، وارهاقهم من الجوع والعطش، وأوكل السلطان مهمة ملاحقة المغول لعدد من الأمراء، منهم للأميرين، سلار، وسيف الدين قَبجق[٥]، وأنطلق الأمراء والجيش الإسلامي يلاحق فلول المغول، وقتلوا منهم الكثير في الطريق، وتجاوزوا الرحبة في ملاحقتهم، وقتلوا منهم الكثير[٦]، وأسروا الكثير منهم أيضاً في منقطة القريتين[٧]، وشتتوا شملهم وفرقوهم، ومن شدة الإرهاق الذي أصاب المغول، لم يستطيعوا عبور الفرات ومن عبر منهم غرق، وبعضهم هلك في الطريق من شدة الجوع والعطش، ولم ينجو من المغول سوى ثلاثين ألفاً فقط، من المائة ألف الذين أرسلهم غازان، واستمرت معركة مرج الصُفر ثلاثة أيام،

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٥٨.
(٢) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٧٧.
(٣) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٥٨.
(٤) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٧٧.
(٥) الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦.
(٦) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ١٢٦.
(٧) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٤.

نجح فيها الجيش المملوكي من الحسم النهائي مع المغول، وتأديبهم وقتل ثلاثة أرباع جيشهم[١].

اختلفت المصادر حول مشاركة الأمير زين كتبغا في المعركة، ويروي أبو الفداء أنه لم يستطع تحريك يديه ولا رجليه؛ بسبب مرضه، وعند خروجه من حماة أشتد عليه الألم، وأستقر بالقرب من مصر حينما هاجم المغول حماة[٢]، أما ابن الوردي فذكر أنه بالرغم من مرضة أنه كان متواجد مع الجيش في مرج الصُفر، لكن لم يذكُر مشاركته أم لا[٣]، واتفقت المصادر على أنه بعد المعركة عاد إلى نيابة السلطنة في حماة وتوفي فيها، في يوم عيد الأضحى يوم الجمعة ١٠ ذو الحجة ٧٠٢هـ/ ٢٥ يوليو ١٣٠٣م، ووصفته المصادر بأنه كان رجلاً شجاعاً، وشهماً ديناً يخاف الله، يعشق الجهاد في سبيل الله[٤]، ودفن في جبل قاسيون، بالقرب من الرباط الناصري[٥]، وتولى نيابة حماة بعده الأمير سيف الدين قبجق[٦] .

مهما يكن الأمر من مشاركة زين الدين كتبغا في معركة مرج الصفر أم عدم ذلك، فإنه رجل حقيقي، لم يرضى أن يقف مكتوف اليدين بعد هزيمة المسلمين في معركة وادي الخزندار، وتواضع جداً وعرض على السلطان الناصر محمد بن قلاوون، أن يكون جنديا في جيش المسلمين، يشارك في الدفاع عن الإسلام، بعد أن كان سلطاناً، ولعب دوراً حيوياً في التصدي للمغول في منطقة القرنين، وكبدهم خسائر بشرية ومادية فادحة، بل وحرر المسلمين منهم، ووحد جيوش الشام تحت لوائه، وأخر هجوم المغول على الشام، حتى يصل السلطان إليه، وربما يكون الأمير، وأنا أميل إلى رواية ابن الوردي في وقوفه في أرض المعركة إلى جانب السلطان، وربما ساهم في إعداد خطة المعركة؛ لأنه مخطط عسكري ممتاز، فكانت خطته الإيقاع بالمغول في منطقة القرنين، اكثر من ناجحة، فقد قتل معظم العشرة آلاف المهاجمين على المنطقة، وحرر منهم الأسرى والنساء والأطفال، بل وحرر منهم الغنائم التي استولوا عليها، ومن خلال وصف المصادر له بالشجاعة والشهامة التي فيه، أرجح مشاركته، وحتى لو كانت مشاركة يسيرة، وهذا

---

(١) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ١٢٦ ، ١٢٧.

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٩٤.

(٣) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٤.

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٩٤ ؛ البرزالي : المقتفي ، ج ٣ ، ص ٣٢٩ ؛ الذهبي : ج ٢، ص٢٣٦ ، ٢٣٧.

(٥) البرزالي : المقتفي ، ج ٣ ، ص ٣٢٩ ؛ الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧.

(٦) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٩٤.

ما جعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون، يكون مسروراً منه بعد المعركة.

أستمرت معركة مرج الصُفر ثلاثة أيام، حيث بدأت في الثاني من رمضان وكان أخر يوم في الرابع من رمضان، وبعد تحقيق النصر، أرسل السلطان رسائل بالحمام الزاجل إلى مدن الشام ومصر؛ ليبشر الناس بالنصر، ويدخل الطمأنينة إليهم، وينزع الخوف من قلوبهم، وفي يوم الاثنين بات السلطان في مرج الصُفر، وفي صباح يم الثلاثاء الخامس من رمضان، توجه إلى دمشق ومعه الخليفة والجيش، وخرج الناس لاستقباله[١]، وقد زينت الشام لاستقبال السلطان، وتم استقباله استقبال الفاتحين والأبطال، وعند دخوله زاد سرور الناس، وتحول حزنهم إلى فرح، وارتفعت مكانته ومحبته في قلوب الناس[٢]، ثم توجه إلى مصر، فوصلها في ٢٣ شوال سنة ٧٠٢هـ/١١ أبريل ١٣٠٣م، ومعه القضاة الأربع والخليفة، وفرح به الناس، ودعوا له، وزار السلطان قبر والده قلاوون، ثم صعد القلعة[٣] .

٢- دور الوحدة في تحقيق النصر على المغول في معركة مرج الصفر سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٣م:

أ- توحيد الجبهة الداخلية بين السلطان الناصر محمد بن قلاوون والأمراء قبجق، وبكتمر وألبكي، بعد الإنقسام، أخاف المغول خوفاً شديداً، واضطروا من وحدة المماليك فقط، للهرب من بلاد الشام، حتى طُهرت الشام من المغول؛ بالوحدة فقط، وليس بالحرب[٤].

ب- الأمير سيف الدين قبجق قائد عسكري مُحنك، ووجوده على رأس ميمنة المسلمين، أنقذ الجيش الإسلامي كله من الهزيمة، فبعد استشهاد قائد الميمنة حسام الدين الأستادار، وكثير من أمراء وجنود المسلمين في الميمنة، أمسك راية قيادة الميمنة، وأندفع في هجوم مُحكم، أنقذ فيه الميمنة، بل والجيش المملوكي كله من الهزيمة، ووجه ضربه عسكريه سريعة لميسرة المغول؛ أدت إلى احداث خلل في توازن الجيش المغولي، وهذه الفائدة التي قدمها الأمير قبجق للجيش الإسلامي، ولو كان في

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٥٨.

(٢) النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٢ ، ص ٢٦ ، ٢٧.

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤١٤ ، ٤١٥.

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٩٠.

صفوف المغول، لكان العكس[١].

ت- أشار قبجق على السلطان والأمراء، أثناء حصار الجيش الإسلامي للمغول في اليوم الثاني من المعركة، بعدم القتال في الليل؛ لأن المغول سيقاتلون حتى الموت، ونصحهم بعدم النزول، والصبر للصباح، فسمعوا كلامه، وكانت نصيحته قد أنقذت المسلمين من الهلاك والهزيمة، بل حققت خطته نصراً استراتيجياً على المغول[٢].

ث- قدوم الأمراء سيف الدين قفجق، وسيف الدين بكتمر، وفارس الدين ألبكي، من مصر إلى الشام، وشكل قوة معنوية للسلطان والأمراء والجيش كله، وشكل صدمة قاسية لغازان[٣].

٣-صدمة وموت غازان بعد هزيمة جيشه في معركة مرج الصُفر:

بعد وصول أنباء عن هزيمة المغول في معركة مرج الصفر، لغازان، صُدم صدمة شديدة، ولم يصدق ما حدث، وأصيب بألم نفسي، ثم تبعه حمى شديدة، ومات مكموداً[٤]، وكانت وفاته في شوال سنة ٧٠٣ هـ/ مارس ١٣٠٤م، أي بعد حوالي أقل من سنة معركة مرج الصُفر، وكان شاباً لم يتكهل، وتولى بعده اخوه خَربَندا محمد[٥].

تاسعاً- تصفية الخلافات الداخلية بعد الانتصار في معركة مرج الصُفر:

١-انقلاب بيبرس الجاشنكير وعزل السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى الكرك:

استمر تماسك الوحدة الداخلية بين السلطان والأمراء من معركة مرج الصُفر حتى عام ٧٠٧هـ/ ٢ يوليو ١٣٠٧، وفي بداية محرم من هذه السنة وقعت وحشة بين السلطان والأميران سلار، وبيبرس الجاشنكير، وتجهز مماليك السلطان لحماية سلطانهم، وبقي السلطان في القلعة، والأميران سلار، وبيبرس والجاشنكير كل منهما في داره[٦]، وزادت بينهما الفتنة، وقبض السلطان على مماليك سلار، وأرسلهم إلى القدس، فعز ذلك على الأمير سلار، وكان المغول في ظل هذا الخلاف الجديد بين المماليك، قد عزموا على الإغارة على بلاد الشام من جديد؛ فأمر السلطان

---

(١) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤.

(٢) العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٤٢٠.

(٣) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ١١٤ ، ١١٥.

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٤٩٤.

(٥) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨.

(٦) البرزالي : المقتفي ، ج ٣ ، ص ٣٥١.

بعمل عرض عسكري، والتجهز للقتال وعين الأميران جمال الدين آقوش الموصلي المسمى قتال السبع، والأمير شمس الدين الدكز السلحدار، وأمرهم بالتوجه لحلب، لكن وصلت الأخبار بوقوع خلاف بين المغول، ورجوعهم إلى بلادهم فتوقفت الحملة[١].

اِستدعى السلطان الأمير بكتمر الجوكندار، وتعهد الأخير بحماية السلطان، من بيبرس الجاشنكير وسلار، ودقت بالقلعة كوسات السلطان دقاً حربياً، وكانت العلاقة بين السلطان والأميران قد وصلت إلى طريق مسدود، وكان الأمير بكتمر الجوكندار، يعتزم القبض عليهما، لتمردهما على صلاحيات السلطان، وكان للأميران جواسيس داخل القلعة، ثم راسل الأميران سلار، وبيبرس الأمير بكتمر الجوكندار واجبراه على الدخول في حلف معهما، ضد السلطان، فدخل وعندما تأخر بكتمر عن السلطان أعتقد السلطان بان مكروها قد حدث معه، وعندما أشيع في القاهرة أن الأمراء يريدون قتل السلطان أو إخراجه إلى الكرك، أغلقت الأسواق، وخرج العامة والجند تحت القلعة، لحراسة السلطان، وأراد حرس السلطان قتالهم، فمنعهم السلطان، وأرسل السلطان للأمراء المتمردين رسالة كتب لهم فيها: «ما سبب الركوب على باب إسطبلي إن كان غرضكم في الملك فهل أنا متطلع إليه فخذوه وابعثوني أي موضع أردتم» ، فردوا الجواب مع الأمير بيبرس الدوادار والأمير عز الدين أيبك الخزندار، والأمير برلغي الأشرفي، بأن السبب هو من مماليك السلطان الذين يحرضونه على الأمراء، فعاتبهم على ما هو فيه وأنكر أن يكون أحد من مماليكه ذكر له شيئاً عن الأمراء، وتضامن الناس مع السلطان، وصاروا يقولون «يا ناصر يا منصور»، وقالوا أيضاً، الله يخون من يخون ابن قلاوون[٢].

في ٢٥ رمضان سنة ٧٠٨هـ/ ٧ مارس ١٣٠٩م ذهب السلطان الناصر إلى الكرك[٣]، مظهراً الحج، فأقام بالكرك، وأمر نائبها بالذهاب إلى مصر[٤]، وكان وصوله إلى الكرك في ١٠ شوال سنة ٧٠٨هـ/ ٢٢ مارس ١٣٠٩م[٥]، وبعد أيام من خروجه، وثب بيبرس الجاشنكير على

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤١٩ ، ٤٢٠.

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٤١٣ ، ٤١٤.

(٣) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٤٠٤.

(٤) الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٢٤٠.

(٥) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٤٠٤.

السلطنة، وأعلن نفسه سلطاناً، وخُطب له، وركب بخلعة الخلافة، والتقليد، ولُقب بالمظفر[١]، وأرسل لهم السلطان برسالة، يأمرهم باجتماع الكلمة، وبقاء الوحدة[٢].

٢- سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة، وحفاظه على الوحدة الداخلية حتى وفاته عام ٧٤١هـ/ ١٣٤١م:

اضطربت الأحوال في مصر بعد استيلاء بيبرس الجاشنكير على السلطنة، وأصبح الجيش فرقتين، فرقة مع بيبرس الجاشنكير، وفرقة مع الناصر محمد بن قلاوون، ولكن الاكثر كانوا مع الناصر؛ بسبب حب الجيش له، وتسلل كثير من المماليك الناصرية من القاهرة إلى الكرك، وهدد بيبرس الجاشنكير السلطان، بأن لم يتوقف عن مكاتبة الأمراء بأنه سوف ينفيه إلى القسطنطينية، كما فعل الأشرف خليل مع أولاد الظاهر بيبرس البندقداري، وبذكاء سياسي حاد، أستعطف الناصر محمد بن قلاوون أمراء الشام، فراسل قراسنقر المنصوري نائب حلب، وأسَندَمُر نائب طرابلس، وقفجق نائب حماة، ونائب صفد، وذكرهم بما لوالده عليهم من الفضل والعتق والتربية، ولما وصلت الرسائل للنواب، أخذتهم الحمية إلى ابن أستاذهم المنصور قلاوون، وأرسلوا يقولون له: «نحن مماليكك ومماليك أبيك، فمهما شئت، نحن طوع يدك، وتحت أمرك»، وفرح السلطان بردهم، وخرج من الكرك ومع كثير من البدو، وراسل السلطان الأمير آقوش الأفرم نائب دمشق وكان الأخير تابعاً لبيبرس الجاشنكير، وراسل الأفرم نائب السلطنة سلار، فطالبه بالتجهز لقتال الناصر، وأنفق بيبرس الجاشنكير أموالاً لقتال الناصر[٣].

خرج السلطان الناصر محمد بن قلاوون من الكرك في شهر رجب سنة ٧٠٩هـ/ ديسمبر ١٣٠٩م، وعند وصوله أطراف الشام، خاف آقوش الأفرم، وهرب، وأرسل السلطان بالأمان للأفرم لكسبه إلى صفه، ورحب أهل الشام كثيراً بقدوم السلطان عليهم، ثم عاد الأفرم، فأكرمه السلطان، وأمرة بمباشرة نيابة السلطنة، وبعد يومين وصل نائب حماة قفجق، ونائب طرابلس أسندمر، وفي ٢٨ شعبان سنة ٧٠٩هـ/ ٣٠ يناير ١٣١٠م وصل قراسنقر نائب حلب، وخرج السلطان في ٩ رمضان سنة ٧٠٩هـ/ ٩ فبراير ١٣١٠؛ لإعادة الوحدة الداخلية بالقوة، وعند وصوله إلى غزة، رحب به أهلها كثيراً، وفيها جاءه كثير من الامراء من مصر داخلين في طاعته، وطالبين منه

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٢٣ ، ٤٢٤.

(٢) الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٢٤٠.

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٢٥ – ٤٢٧.

الأمان، وفي غزة وصلته خبر نزول بيبرس الجاشنكير عن السلطنة، وهرب من مصر خائفاً، كما وهرب نائب السلطنة سلار[١]، وعندما شاهد الناس نزول بيبرس الجاشنكير من القلعة في ١٦ رمضان/ ١٦ فبراير ١٣١٠م، رموه بالحجارة، وخطب للناصر محمد بن قلاوون على المنابر، ودخل السلطان الناصر محمد بن قلاوون القاهرة، في الثاني من شوال سنة ٧٠٩هـ/ ٤ مارس ١٣١٠م، وتولى سلطنة البلاد، وهي السلطنة الثالثة له، والتي تعتبر سلطنته الحقيقة، ونفى السلطان الأمير سلار، وأمر السلطان بإحضار بيبرس الجاشنكير، فأحضروه له، في ٢٤ ذي القعدة سنة ٧٠٩هـ/ ٢٤ أبريل ١٣١٠، ووبخه السلطان بما وقع منه، ثم أمر بخنقه أمامه، فخنق حتى مات[٢]، وعمل الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة والحقيقية، على ضبط البلاد، والحفاظ على قوتها وهيبتها، ووحدتها، وتوفي في ٢٠ ذي الحجة سنة ٧٤١هـ/ ٥ يوليو ١٣٤١م، وله من العمر نحو ثمانية وخمسين سنة، وقد حزن الناس والجند عليه حزناً شديداً[٣] .

(١) الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢.

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٣٠ – ٤٣٥.

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٨١ – ٤٨٣.

الخاتمة ونتائج البحث:

تعددت مظاهر توحيد الجبهة الداخلية للمماليك من فترة زمنية إلى أخرى، وقد تناول الباحث دور الخطر المغولي في توحيد الجبهة الداخلية للمماليك، ودور هذه الوحدة في تحقيق النصر على المغول منذ قيام دولة المماليك عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م حتى وفاة الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٤١هـ/١٣٤١م، وخلُص إلى عدة نتائج وتوصيات:

أولاً- أهم النتائج:

- الخطر المغولي الذي كان يُجبر المماليك على الوحدة، بعد الصراع والانقسام الداخلي؛ الذي كان ينتج عن مقتل سلطان أو أحد كبار أمراء الدولة، أو بسبب محاولات أحد الأمراء الكبار في الاستقلال بدمشق أو بالشام كلها عن مصر، أو بسبب التنافس على السلطة، أو نتيجة لتصفية خلافات سابقة بين السلطان وعدد من الأمراء.
- توحيد جبهة المماليك الداخلية إبان الخطر المغولي، ظاهرة إيجابية في دولة المماليك، وكان توحيد الجبهة الداخلية هو ليس من أجل العاطفة، أو المصلحة الشخصية، أو إظهار الشخصية أمام الناس، بل من أجل حماية الإسلام وإنقاذ الأمة من السقوط، تحت أشرس عدو واجهته الأمة الإسلامية.
- قبل إتمام الوحدة بين الأطراف المتنازعة من المماليك، يحدث مراسلات ربما يبادر السلطان، وربما يبادر أحد كبار الأمراء الذين كانوا في حالة عداء مع السلطان.
- كانت بلاد الشام أرض خصبة لاحتضان أمراء المماليك، الذين يدخلون في حالة نزاع مع السلطان في مصر.
- لعب المماليك الذين كانوا في حالة صراع مع السلاطين، أدواراً مهمة في نجاح انتصار المسلمين ضد المغول، ففي معركة عين جالوت لعب بيبرس البندقداري دوراً مهماً في قيادة المعركة وكسر المغول، وأما معركة حمص الثانية فقد لعب سُنقر الأشقر والحاج أزمر، وعيسى بن مهنا، دوراً كبيراً في إنقاذ الجيش الإسلامي من الهزيمة، وأما معركة مرج الصفر (شقحب) لعب الأمير قفجق دوراً كبيراً في إنقاذ ميمنة المسلمين من الهزيمة.
- ترتفع الروح المعنوية لجميع الأطراف المتخاصمة، بعد إتمام الوحدة وتوقيع المصالحة، وينعكس ذلك إيجاباً في الاستعدادات للمواجهة، والإقبال عليها يكون بشغف.
- كان إتمام الوحدة بين إطراف المماليك، يُشكل صدمة لدى المغول، حيث كانت تدخل

الخوف في قلوبهم الخوف، ويجعلهم مرتبكين، فكان كتبغا خائفاً من انسجام الكتائب الإسلامية في معركة عين جالوت، وأنصدم أبغا بن هولاكو من الوحدة التي تمت بين المنصور قلاوون وسنقر الأشقر ومسعود بن بيبرس البندقداري، وكانت صدمة كبيرة للمغول، في عهد غازان، حيث قام الأمراء: قفجق، وبكتمر، وإلبكي، بالانسحاب من الشام والانضمام للناصر محمد بن قلاوون .

- بعد إتمام الوحدة بين أطراف وفرق المماليك التي كانت في حالة صراع، يتعاونون على إعداد خطة مشتركة، لمواجهة المغول، ولا يكون هناك ديكتاتورية أو صراع حول القيادة، أو إعداد خطة المواجهة، وكان تعاونهم ينتج عن خطة محكمة وقوية.
- قبل مواجهة المغول كان المماليك يحيدون الصليبيين أو يقومون بتأديبهم.
- انتصار المماليك على المغول كان يسبب، قوة معنوية للمسلمين، وكان يسبب أزمات نفسية للمغول وقادتهم، وكان عادة ما يموت الخان المغولي، بسبب هذه الأزمة النفسية، بعد مدة بسيطة تتراوح ما بين شهر و٣ سنوات، من هزيمتهم أمام المماليك.

ثانياً- التوصيات: يوصي الباحث بما يلي:

١- أن تهتم المكتبات العربية والإسلامية، بجلب المصادر والمراجع التي تتناول أهمية الوحدة، ودورها في تحقيق النصر، ليدرك العرب والمسلمين أهمية الوحدة، ودورها في إنقاذ الأمة الإسلامية، وتحقيق النصر على أعدائها؛ حتى تعود أمة قوية كما كانت.

٢- عقد مؤتمرات للأكاديميين والباحثين؛ لتوعية العرب والمسلمين، شعوباً وحكاماً، حول الوحدة وأهميتها.

٣- ضرورة استفادة الحكام العرب والمسلمين، من تجربة المماليك في توحيد جبهتهم الداخلية إبان الخطر المغولي، وتطبيقها؛ لمواجهة الخطر الصليبي واليهودي الذي يهدد المسلمين، وأسقط الخلافة الإسلامية، وفرق المسلمين، وقسم المنطقة ثم احتلها.

٤- إدراك الحكام العرب المسلمين الذين سقطوا في التحالف مع اليهود والصليبيين، أن فك هذا التحالف والعودة للصف الإسلامي، سيكسر قوة اليهود والصليبيين، ويزيد من قوة العرب والمسلمين، ويعيد أمجاد الخلافة الإسلامية، ويحرر فلسطين من اليهود.

الملاحق

الملاحق:

أولاً- الرسائل التي أرسلها هولاكو للناصر يوسف وللمظفر قطز:

الملحق رقم (١)

١-رسائل التهديد التي أرسلها هولاكو إلى الناصر يوسف[١]:

أ- الرسالة الأولى:

«يعلم السلطان الملك الناصر طال بقاؤه أنه لما توجهنا إلى العراق وخرج إلينا جنودهم فقتلناهم بسيف الله ثم خرج إلينا رؤساء البلد ومقدموها فكان قصارى كلامهم سببا لهلاك نفوس تستحق الإهلاك وأما ما كان من صاحب البلدة فإنه خرج إلى خدمتنا ودخل تحت عبوديتنا فسألناه عن أشياء كذبنا فيها فاستحق الإعدام وكان كذبه ظاهرا ووجدوا ما عملوا حاضرا أجب ملك البسيطة ولا تقولن قلاعى المانعات ورجالى المقاتلات وقد بلغنا أن شذرة من العسكر التجأت إليك هاربة وإلى جنابك لائذة.

أين المفر ولا مفر لهارب ولنا البسيطان الثرى والماء

فساعة وقوفك على كتابنا تجعل قلاع الشام سماءها أرضا وطولها عرضا والسلام»

ب-الرسالة الثانية:

«فيه خدمة ملك ناصر طال عمره أما بعد فإنا فتحنا بغداد واستأصلنا ملكها وملكها وكان قد ظن وقد فتن الأموال ولم ينافس الرجال أن ملكه يبقى على ذلك الحال وقد علا ذكره ونمى قدره فخسف في الكمال بدره إذا تم أمر بدا نقصه توقع زوالا إذا قيل تم ونحن في طلب الازدياد على ممر الآباد فلا تكن كالذين نسوا الله فأنساهم انفسهم وأبد ما في نفسك إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان أجب دعوة ملك البسيطة تأمن شره وتنل بره واسع اليه بأموالك ورجالك ولا تعوق رسلنا والسلام» .

ج- الرسالة الثالثة:

يقول فيه اما بعد فنحن جنود الله بنا ينتقم ممن عتا وتجبر وطغى وتكبر وبأمر الله ما ائتمر وإن عوتب تنمر وان روجع استمر ونحن قد أهلكنا البلاد وأبدنا العباد وقتلنا النسوان والأولاد فيها أيها الباقون أنتم بمن مضى لا حقون ويا أيها الغافلون أنتم إليهم تساقون ونحن جيوش

---

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ج ١ ، ص ٤٧٢ – ٤٧٥.

الهلكة لا جيوش الملكة مقصودنا الانتقام وملكنا لا يرام ونزيلنا لا يضام وعدلنا في ملكنا قد اشتهر ومن سيوفنا.

أين المفر أين المفر ولا مفر لهارب ولنا البسيطان الثرى والماء

ذلت لهيبتنا الأسود وأصبحت في قبضتي الأمراء والخلفاء

ونحن إليكم صائرون ولكم الهرب وعلينا الطلب ستعلم ليلى أي دين كداينتم وأي غريم بالتقاضي غريمها دمرنا البلاد وأيتمنا الأولاد واهلكنا العباد واذقناهم العذاب».

الملحق رقم (٢)

٢- نص رسالة التهديد التي أرسلها هولاكو إلى قُطز[١]:

«من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتنعمون بإنعامه ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر قطز وسار أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال أنا نحن جند الله في أرضه خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه . فلكم بجميع البلاد معتبر وعن عزمنا مزدجر فاتعظوا بغيركم وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ . فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم البلاد فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب . فأي أرض تأويكم وأي طريق تنجيكم وأي بلاد تحميكم . فما من سيوفنا خلاص ولا من مهابتنا مناص . فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال . فالحصون لدينا لا تمنع والعساكر لقتالنا لا تنفع ومطركم علينا لا يسمع فإنكم أكلتم الحرام ولا تعفون عند الكلام وخنتم العهود والأيمان وفشا فيكم العقوق والعصيان . فأبشروا بالمذلة والهوان فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون فمن طلب حربنا ندم ومن قصد أماننا سلم . فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا وإن خالفتم هلكتم فلا تهلكوا

---

(١) المقريزي: السلوك ، ج ١ ، ص ٤١٥ ، ٤١٦ ؛ يُنظر ، قرطاي العزي: تاريخ مجموع النوادر ، ص ٩٢،٩٣ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٦٤.

نفوسكم بأيديكم . فقد حذر من أنذر وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة فكثيركم عندنا قليل وعزيزكم عندنا ذليل وبغير الأهنة لملوككم عندنا سبيل . فلا تطلوا الخطاب وأسرعوا برد الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها وترمى نحوكم شرارها فلا تجدون منا جاهاً ولا عزاً ولا كافياً ولا حرزاً . وتدهون منا بأعظم داهية وتصبح بلادكم منكم خالية . فقد أنصفنا إذ راسلناكم وأيقظناكم إذ حذرناكم فما بقي لنا مقصد سواكم . والسلام علينا وعليكم وعلى من أطاع الهدى وخشي عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى.

ألا قل لمصرها هلاون قد أتى بحد سيوف تنتضى وبواتر

يصير أعز القوم منا أذلـــــة ويلحق أطفالاً لهم بالأكـابر.

ثانيا- خرائط وتصميمات لمعركة عين جالوت:

١- خرائط سير الجيوش الإسلامية من مصر إلى فلسطين:

٢- الملحق رقم (٣)

أ- سير جاليش العسكر الأمير بيبرس البندقداري حتى انتصاره في معركة غزة[١]:

الملحق (٣) خط سير بيبرس (تصميم الباحث: محمد الياس أبو مصطفى)

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٥ ، ٥١٦.

الملحق رقم (٤)

ب-تصميم خط سير الجيش الإسلامي من مصر حتى عين جالوت بفلسطين[١]:

خريطة : حركة الجيوش الإسلامية داخل فلسطين حتى "عين جالوت"

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٥ ، ٥١٦.

٣- تصميمات من إعداد الباحث محمد الياس أبو مصطفى لمعركة عي جالوت:

الملحق رقم (٥)

أ- تصميم استدراج الأمير ركن الدين بيبرس المغول إلى فخ عين جالوت[١]:

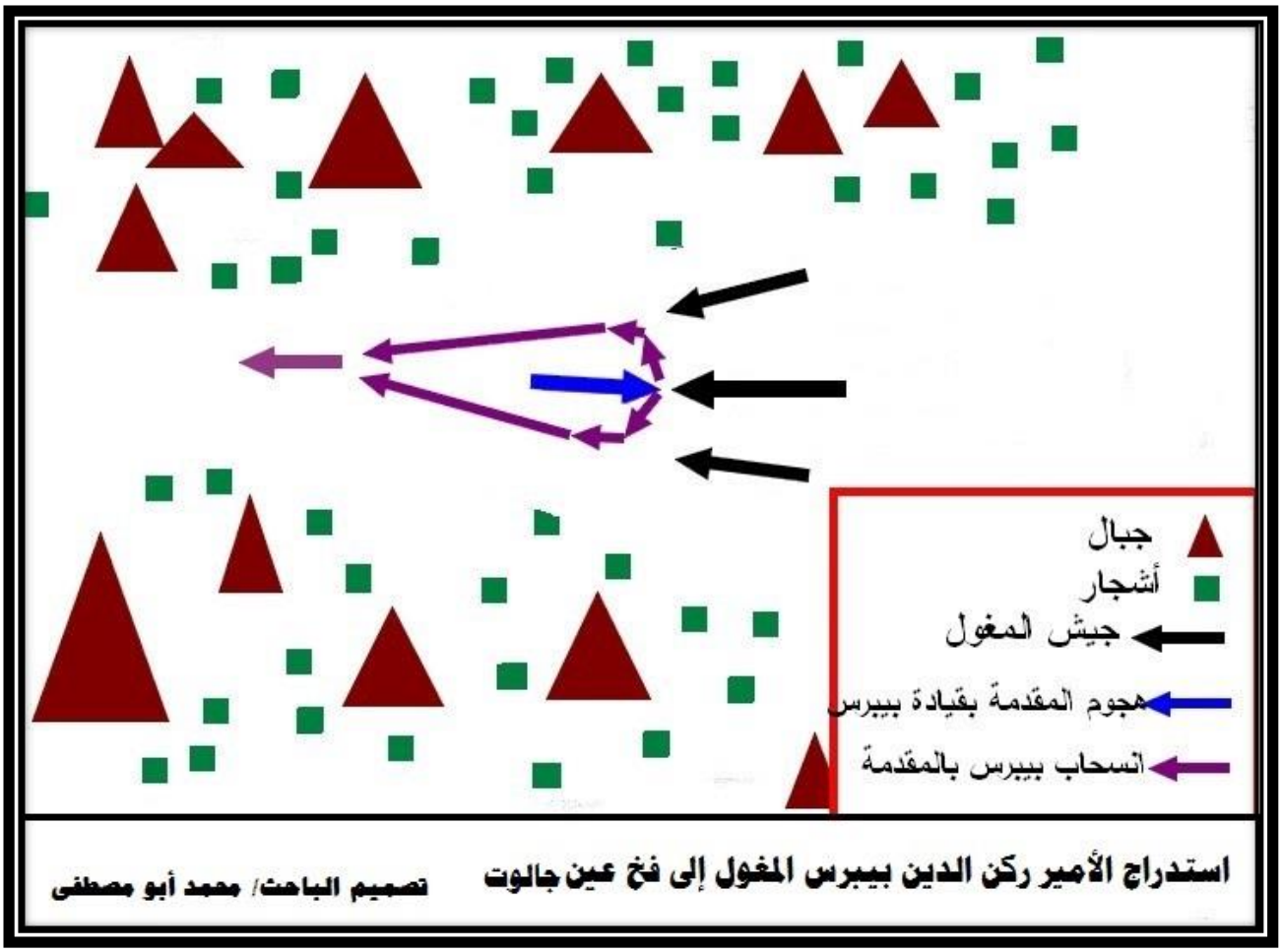

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٣٩.

الملحق رقم (٦)

تصميم نجاح مهمة بيبرس في استدراج المغول وإيقاعهم في الفخ[١].

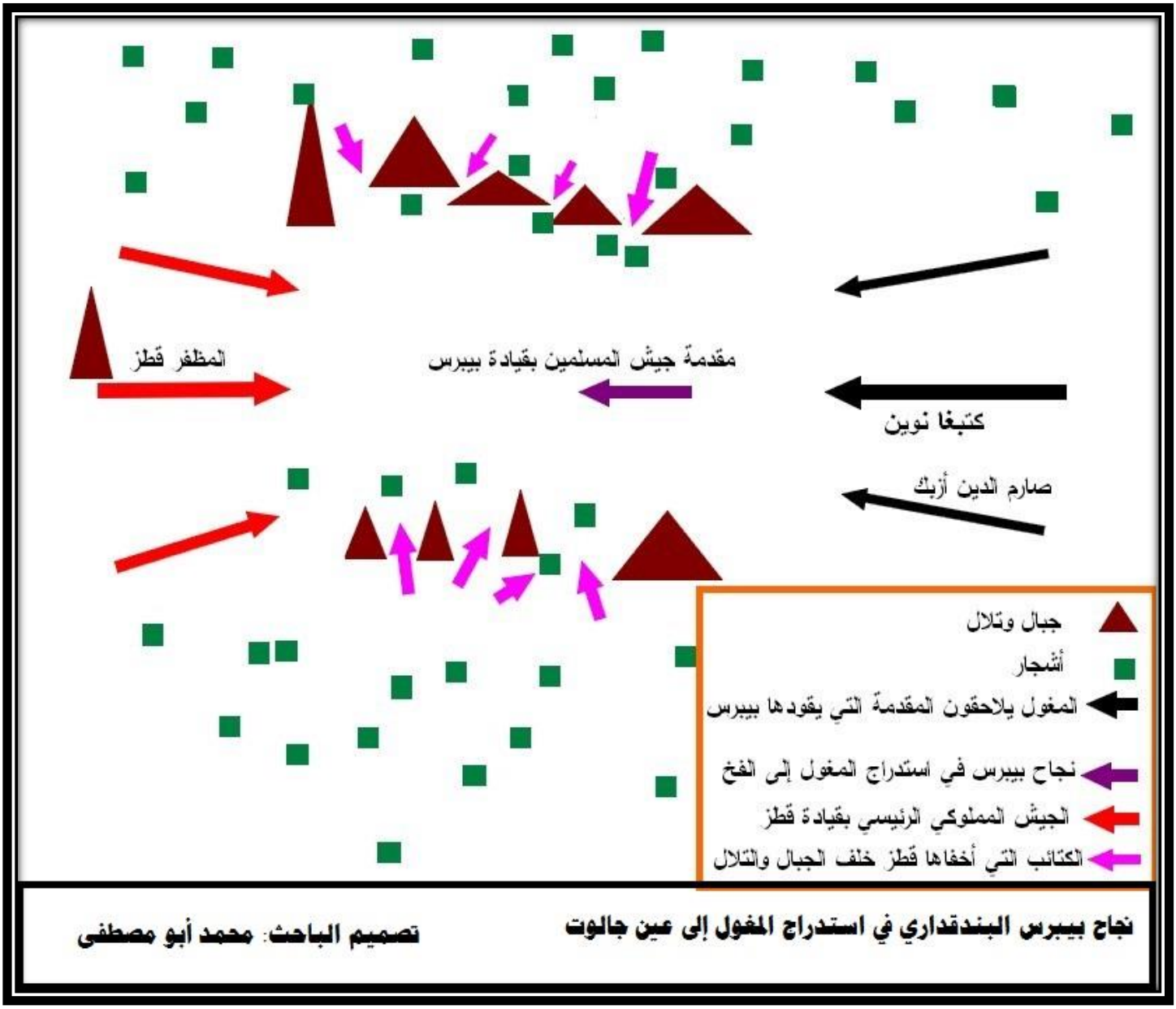

(١) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٤٩ ؛ ينظر ، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٣٩ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٦.

الملحق رقم (٧)

تصميم بداية معركة عين جالوت[١]:

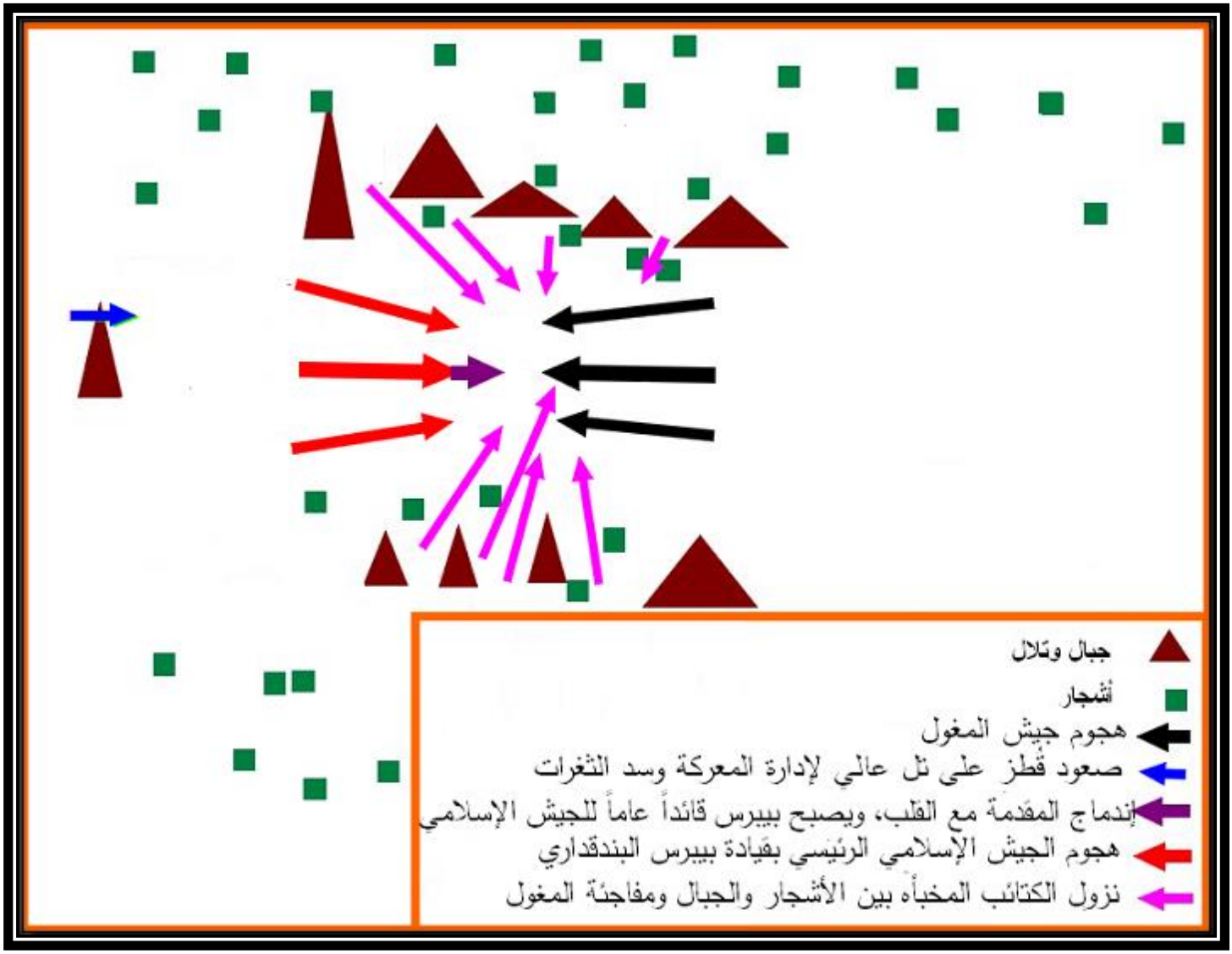

(١) قرطاي العزي : تاريخ مجموع النوادر ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام : ج ٤٨ ، ص ٦١ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٦.

الملحق رقم (٨)

ب- تصميم نزول قطز أرض المعركة، وانسحاب صارم الدين أزبك منها:

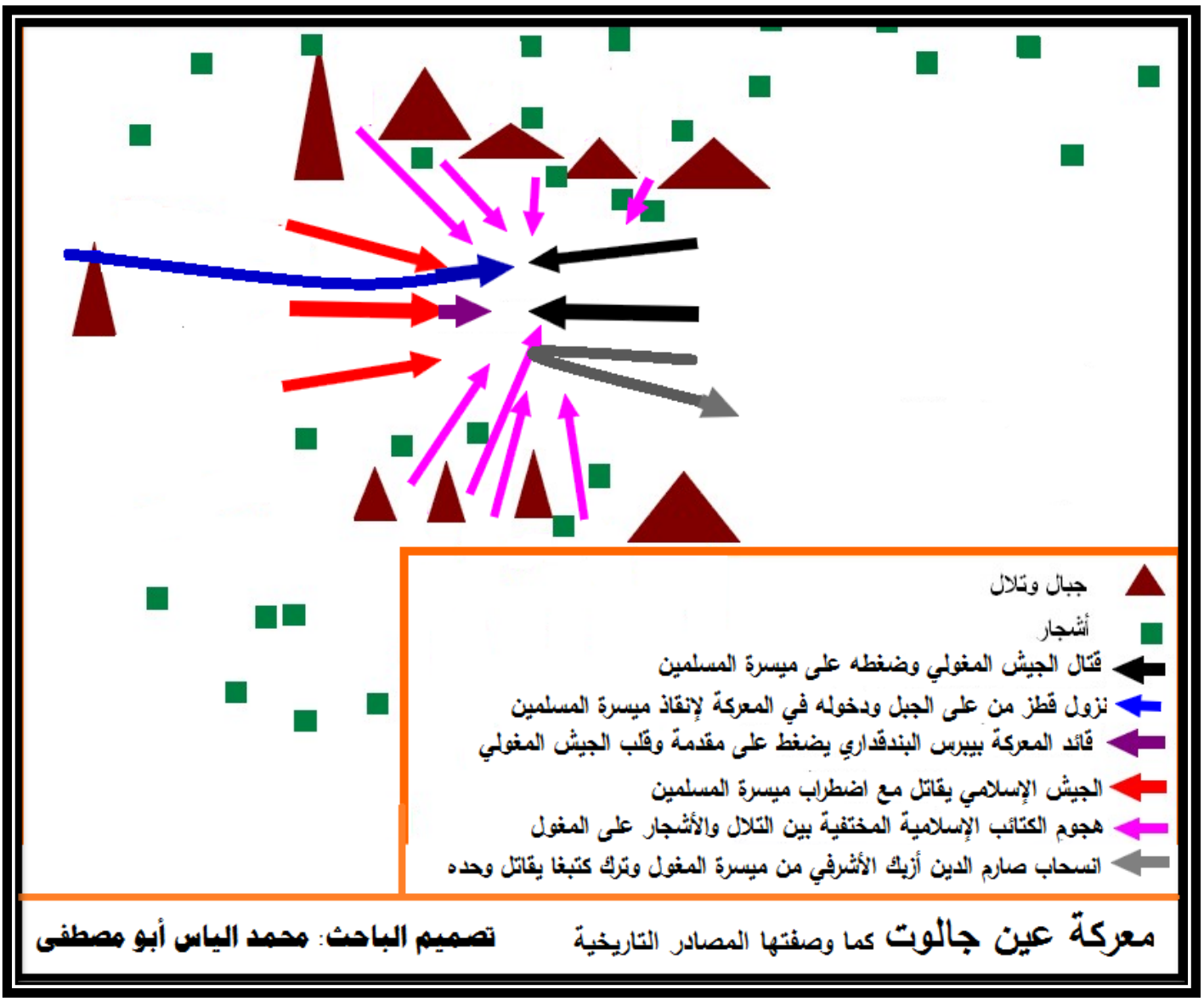

← ضغط المغول على ميسرة المسلمين، ونزول قطز من أعلى الجبل، ودخوله في المعركة لإنقاذ ميسرة المسلمين، وضغط بيبرس البندقداري على قلب الجيش المغولي[١] .

← هجوم الكتائب الإسلامية المخبأه خلف التلال، وانسحاب صارم الدين أزبك من ميسرة المغول وترك كتبغا يقاتل وحده [٢] .

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٦ ، ٥١٧.

(٢) قرطاي العزي : تاريخ مجموع النوادر ، ص ١٠٣.

المحلق رقم (٩)

ت- أثر نزول قطز، وانسحاب صارم الدين أزبك في انقلاب موازين المعركة لصالح المسلمين[١]:

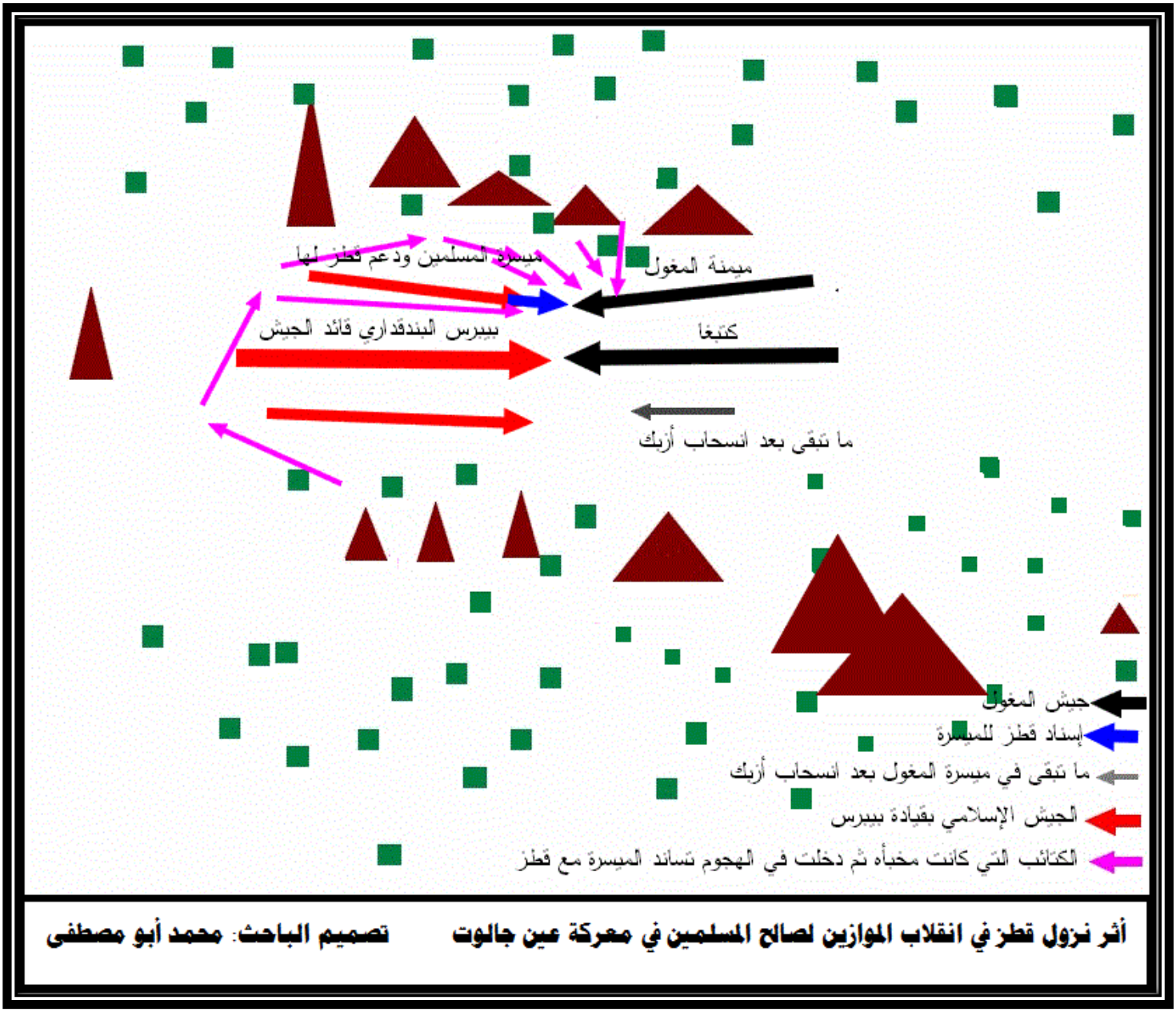

(١) قرطاي العزي : تاريخ مجموع النوادر ، ص ١٠٢ ؛ ينظر ، المقريزي ، ج ١ ، ص ٥١٧.

ثالثاً – فرمانات غازان لأهل الشام، وتوليته للأمراء الموالين له على بلاد الشام :

الملحق رقم (١٠)

١–فرمان تولية غازان للأمير سيف الدين قفجق على دمشق[١]:

«بتقوى الله وميامين الملة المحمدية، فرمان السلطان محمود غازان: الحمد لله الذي جرّد لنصر هذه الدولة القاهرة سيفاً قاضياً، وانتضى لتأييدها من أوليائها قاضياً قاضياً، وارتضى لها من أصفيائها من أصبح الملك عنه راضياً، نحمده ونشكره على نعمته التي أورثتنا الممالك، وجمعت لنا ما بين النصر والفتح وما أشبه ذلك، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تنيل النجاة وترفع الدرجات، ونشهد أن محمداً نبيه المرسل بالهدى والصدق، والمبعوث بدين الحق صلى الله عليه صلاة تنيله الوسيلة والفضيلة، وعلى آله خير آل وأشرف قبيلة، وبعد: فإن الله تعالى لما منّ علينا بالإيمان، وهدانا إلى أشرف الأديان، حمدناه وشكرناه على أنه أضاف إلى ملكنا للدنيا ملكنا للآخرة، وجلل علينا حلل الدين الفاخرة، ونذرنا أن نعم الرعيّة بعدلنا، ونشمل البرية بفضلنا، وأن لا نسمع بمظلوم إلا نصرناه، ولا نطلع على مقهور إلا أنقذناه، فلما اتصل بنا ما بمصر من المظالم، ومن فيها من غاضب وظالم، هاجرنا لنصر الله تعالى ونصرة الدين، وبادرنا لإنقاذ من فيها من المسلمين، وراسلناهم وأنذرنا، وكاتبناهم وزجرناهم، ووعظناهم فلم تنفع فيهم العظة، وأيقظناهم فلم تكن فيهم يقظة، فلقيناهم بتقوى الله تعالى، فكسرناهم وقطعنا آثارهم، وملّكنا الله تعالى أرضهم وديارهم، وتبعناهم إلى الرمل وحطمناهم كما حطم سليمان وجنوده وادي النمل، فلم ينج منهم إلا الفريد، ولا سلم إلا البريد، فلما استقر تملكنا البلاد وجب علينا حسن النظر في العباد، فأحضرنا الفكر فيمن نقلده الأمور، وأمعنا النظر فيمن نفوض إليه مصالح الجمهور، فاخترنا لها من يحفظ نظامها المستقيم، ويقيم ما أباد من قوامها القويم، يقول فيسمع مقاله، ويفعل فتقتفى أفعاله، يكون أمره من أمرنا، وحكمه من حكمنا، وطاعته من طاعتنا، ومحبته هي الطريق إلى محبتنا، فرأينا أن الجناب العالي الأوحدي الكفيلي المجاهدي الأميري الهمامي النظامي السيفي، ملك الأمراء في العالمين، ظهير الملوك والسلاطين قفجق، هو المخصوص بهذه الصفات الجليلة، والمحتوي على هذه المناقب الجميلة، وأن له حرمة المهاجرة إلى أبوابنا، ووسيلة القصد إلى ركابنا، فعرفنا له هذه الحرمة، وقابلناه بهذه النعمة، ورأينا أنه لهذا

---

(١) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٤٠ ، ٣٤١ ؛ العيني : عقد الجمان ، ٣٦٦ ، ٣٦٧.

المنصب حفيظ قمين، وعلى ما استحفظ قوي أمين، وأنه يبلغنا الغرض من حفظ الرعايا، فأقمناه مقامنا في العدل والقضايا، فلذلك رسمنا أن نفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالممالك الدمشقية والبعلبكية والحمصية والساحلية والجبلية والعجلونية والرحبية من العريش إلى سلمية، نيابة تامة عامة، كاملة شاملة، يؤتمر فيها بأمره، ويزدجر فيها بزجره، ويطاع في أوامره ونواهيه، ولا يخرج أحد عن حكمه ولا يعصيه، له الأمر التام والنظر العام، وحسن التدبير وجميل التأثير والإحسان الشامل لأهل البلاد، واستجلاب الغزاة والقوّاد، وتأمين من يطلب الأمان والطاعة والامتنان متفقاً في الاستخدام والتأمين مع ملك الامراء ناصر الدين، فإن اجتماع الآراء بركة، والهمم تؤثر إذا كانت مشتركة، وكل من أمّناه فإنه أماننا أجريناه على قلمهما ولسانهما، وقد أنعمنا عليه بالسيف، والسنجق الشريف، والكؤوس، والبائزة الذهب برأس السبع، ورسمنا له بألف فارس من المغل يركبون لركوبه وينزلون لنزوله، وليكونوا تحت حكمه رفعةً لقدره، وتنويهاً باسمه، وسبيل الأمراء والمقدمين وأمراء العربان والتركمان والأكراد والدواوين والصدور والأعيان والجمهور بأن يتحققوا أنه نائبنا في السلطنة الشريفة، فإن له هذه المنزلة المنيعة، وليطيعوه طاعة تزلفهم لديه وتقربهم إليه، ويحصل لهم بها رضاه عنهم وإقباله عليهم وقربهم منه، وليلزموا عنده الأدب في الخدمة كما يجب، وليكونوا معه في الطاعة والموافقة على ما يحبّ، وعلى ملك الأمراء سيف الدين بتقوى الله في أحكامه، وخشيته في نقضه وإبرامه وتعظيم الشرع وحكامه، وتنفيذ قضية كل قاض على قول إمامه وليعتمد الجلوس للإنصاف والعدل، وأخذ حق المشروف من الأشراف، وليقم الحدود والقصاص على كل من وجبت عليه، وليكف الكفّ العادية عن كل من يتعدى إليه، وقد تقدم من الأمر بالآثار الجميلة في الشام المحروس ما تشوقت إليه الأعين وتاقت إليه النفوس، وقد رده الله سبحانه إليهم ردّاً جميلاً، فليكن بمصالح الدولة ومصالح الرعية كفيلاً، والله تعالى يجعل له إلى الخير سبيلاً ويوضح له إلى مراضى الله ومراضينا دليلاً، بمنّه ولطفه».

الملحق رقم (١١)

٢- فرمان تولية غازان للأمير سيف الدين بكتمر السلحدار على حلب وحمص وحماة [١]:

«بقوة الله وميامين الملة المحمدية، فرمان السلطان محمود غازان: الحمد لله الذي أيدنا بالنصر العزيز والفتح المبين، وأمدنا بملائكته المقربين، وجعلنا من جنده الغالبين، نجدة على

(١) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٤٢-٣٤٤ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٣٦٧.

الهداية إلى سبيل المهتدين، والإرشاد إلى إحياء الدين، حمداً يوجب المزيد من فضله كما وعد الحامدين، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تنظمنا في سلك المخلصين، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين، أما بعد: فإن الله تعالى لما ملكنا البلاد وفوض إلينا النظر في أمور العباد، وجب علينا أن ننظر في مصالحهم، وأن نهتم بنصائحهم، وأن نقيم عليهم نائباً يتخلق بأخلاقنا في كرم السجايا، ويبلغنا الأغراض في مصالح الرعايا، فأعملنا الفكر فيمن نقلده الأمور، وأمعنا النظر فيمن نفوض إليه مصالح الجمهور، واخترنا لها من يحفظ نظامها المستقيم، ويقيم ما تأود من قوامها القويم، يقول فيسمع مقاله، ويفعل فتقتفى أفعاله، يكون أمره من أمرنا، وحكمه من حكمنا، وطاعته من طاعتنا، ومحبته هي الطريق إلى محبتنا، فرأينا أن الجناب العالي الأوحدي المؤيدي العضدي النصيري العالمي العادلي الذخري الكفيلي السيفي سيف الدين، ملك الأمراء في العالمين، ظهير الملوك والسلاطين بكتمر، هو المخصوص بهذه الصفات الجميلة، والمحتوي على هذه السمات الجليلة، وله حرمة المهاجرة على أبوابنا، ووسيلة الوصلة إلى ركابنا، فرعينا له هذه الحرمة، وقابلناها بهذه النعمة، ورأينا أنه لهذا المنصب حفيظ مكين، وخاطبنا لسان الاختيار " إن خير من استأجرت القويّ الأمين "، وعلمنا أنه يبلغ الغرض من صون الرعايا، ويقوم مقامنا بالعدل في القضايا، فلذلك رسمنا أن نفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالممالك الحلبية، والحموية، وشيزر، وأنطاكية، وبغراس، وسائر الحصون، والأعمال الفراتية، وقلعة الروم، وبهنسي، وما أضيف إليها من الأعمال والثغور، نيابة تامة عامة، كاملة شاملة، يؤتمر فيها بأمره، ويزدجر فيها بزجره، ويطاع في أوامره ونواهيه، ولا يخرج أحد عن حكمه ولا يعصيه، له الأمر التام والنظر العام، وحسن التدبير وجميل التأثير، والإحسان الشامل إلى أهل البلاد، والإحسان الشامل إلى أهل البلاد، واستجلاب الولاء والوداد، وتأمين من يطلب الأمان، ويتلقى من يترامى إلى الطاعة والخدمة بالإمتنان، متفقاً في الإستخدام والتأمين مع ملك الأمراء والوزراء ناصر الدين، فإن اجتماع الآراء بركة... إلى آخره مثل ما في آخر الفرمان الثالث».

مؤرخ في ثالث عشر جمادى الآخرة سنة تسعة وتسعين وستمائة

الملحق رقم (١٢)

٣- فرمانات غازان التي خدع بها أهل الشام بالخطاب الديني[١]:

أ- الفرمان الأول من غازان لأهل الشام:

«ميامين الملة المحمدية، فرمان قازان، ليعلم الأمراء والأكابر وأشراف السادات العظام، والمشايخ الكرام، وسائر مشاهير الأعراب، من الخواص والعوام، إنه في كل زمان يقتضي الدوران. يرسل الله تعالى نبياً لهداية العالم، ودلالة الإنسان إلى طريق الصواب. وحفظ الأساطير في ملل الدين، فلما انتهت النوبة إلى خاتم النبيين محمد المصطفى الذي أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، أرسله إلى جميع الخلائق ليهدي كافة الأنام من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام، ويرشدهم من علائق الجثمانيات إلى زوايا الروحانيات، ويزّينهم بكمال الدين وتهذيب الأخلاق، وأنزل عليه القرآن العظيم، وعلمه الأحكام الشرعية الشريفة المطهرة لينقذ بها التابعين من نار جهنم، فالواجب على كل أحد متابعة هذا النبي ومطاوعة شريعته، والذي يخالفه يكون مأواه جهنم وبئس المصير، ومن أول بعثته ومفتتح رسالته إلى زماننا هذا كلما وقع في أمور الدين الخلل وظهر الوهن في شريعة المسلمين، وأقدم الإنسان على العصيان وأصرّ على الطغيان، وأظهر لهم من أولى الأمر شخصاً يقوى الأمور الدينية ويزكي الخلائق طراً، وينهاهم عن الأمور المستنكرة، ويردّهم إلى الطرائق المستقيمة المستحسنة، وقبل زماننا هذا قد ظهر المشركون وعبدة الأوثان، والجماعة الذين كانوا يلايمونهم من المسلمين الذين يقولون آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، ظلموا وتعدّوا، وكانوا يعلمونهم الحيف والجور على الرعية وغصب أموالهم وأكل الربا، وترك الصلاة والزكاة والصيام والصدقات وأعمال البر، وقدر الله من المعجز النبوي المصطفوي المحمدي على صاحبة الصلاة والسلام أننا من أولاد جنكزخان الأعظم الذي تحت حكمهم معظم الأقاليم العظيمة دخلنا في هذا الدين القويم والصراط المستقيم بغير تكليف، بل جلا نور هداية الحق ودين النبي المصطفى على قلوبنا، وكرّمنا الله بالإسلام، وفضّلنا بالعدل والإحسان ورسخ في قلوبنا محبة الدين الحنيفي، ووفقنا الله تعالى بالجهاد في قتل المشركين وعبدة الأوثان والمخالفين، وهدم بيوت الأصنام ودفع شر الظالمين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أمر الله في محكم كتابه: " إن الله يأمر بالعدل والإحسان " الآية. فأمرنا

---

(١) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٣٣٣ – ٣٣٩ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٣٦٢ –٣٦٨

في الممالك كلها ببناء المساجد ونصب المنابر وإقامة الصلوات وإيتاء الزكاة، ونهينا عن أخذ الربا، ومنعنا من سائر أنواع الظلم والخطأ، فإن الظلم مرتعه وخيم، وقررنا في بلاد الإسلام الأموال المقننة لمصالح عساكر الإسلام عند المجاهدة في سبيل الله عز وجل، حسبما اقتضاه الشرع المطهر بلا إحداث قاعدة ولا حيف ولا عدوان ولا تطاول على أحد من المسلمين، واجتهادنا في استخدام هذه المعاني زائد عن الحد، " والحمد الله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله " .

وحيث آباؤنا وأجدادنا سمّونا غازان، كان ذلك بتقدير الله عز وجل في الأزل في الإلهام الإلهي الملهم بالتلقيب لهذا الاسم الذي هو مشتق من الغزو، أوجبنا على أنفسنا الغزو والجهاد، وقمع المشركين والخوارج والمتمردين والظالمين، وسمعنا أن أهل مصر والشام الذين أمسى منهم مسلمون ما لهم عهد ولا ميثاق ولا أمانة ولا ديانة، ويأخذون أموال المسلمين، ويقصدون دماءهم، توجهنا قاصدين دمارهم لدفع الحركات الردّية البادية منهم، وإثباتهم على دين الإسلام ليكونوا هم وذرياتهم مفلحين من أهل الجنة، ويحصل لنا ثواب الاجتهاد، ويردهم السؤال في معنى خللهم وزللهم في دين الإسلام. والجواب أنهم لما تحققوا أننا أولاد سلاطين ربع أقاليم الأرض، وإنا مسلمون ومعاونون دين الإسلام يجب على كل أحد مطاوعتنا، اقتداء بكلام الله عز وجل: " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم "، فحيث عصى من عندنا سولتمش، وانخرط في الخوارج والمرتدين، وأقدم على إيذاء المسلمين ببعض بلاد الروم، وتخريب بيوتهم، ونهب أموالهم، هرب من عسكرنا المنصور، وتوجه إلى تلك البلاد، كانت الشريعة النبوية والشفقة الإسلامية تقتضي أن تمسكوه وتبعثوه مغللاً بالحديد، مسلسلاً إلى عتبتنا العالية، فتغافلتم وتهاونتم عن هذا، بل زودتموه بالعساكر والأنعام والنجدة إلى فوج من التركمان، ووعدتموه مواعيد عرقوب حتى يقع القتال بين المسلمين من عسكرنا المغول وساكني بلاد الروم، وعسى ما بلغهم أن جميع عسكرنا من المغول والأيغورية والقفجاق والخطائية، وكل من كان بعد هذا من اختلاف الملل دخلوا كافة وطرا بصدق النية في الإسلام، وأدركهم بتوفيق الله حسن الاتفاق، وارتضعوا أفاويق الوفاق، ونحن كأسنان المشط في الاستواء والنفس الواحدة في التئام الأهواء، وما كان فينا من لم يؤمن بربه الأعلى ونبيه المصطفى، وعاش على دين المغول ثمانين عاماً، فإنه في هذه السنة آمن بالله والملة الحنيفية ودخل في زمرة المهتدين والحمد الله رب العالمين.

وإذا كنتم متهاونين في قضية سولتمش وسائر الطاغين، فالله تعالى الذي هدانا للصراط المستقيم ردّه مقيداً مكبلاً على يد أقل مملوك من مماليكنا، فجاءوا به إلى عتبتنا العالية لما أنعم الله علينا بالدين القويم، ووفقنا، لتشييد قواعد سنن رسوله الكريم، وأرشدنا في عنفوان الصّبا وريعان الحداثة للانخراط في سلك أمة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وعلى آله وصحبه الكرام، عسى لم يعجبكم تقوية دين الله عز وجل التي نحن مصرون عليها. ولو وصل لأجل هذا لقلوبكم البهجة والسرور لشكرتم الرحيم الغفور، وبعثتم من يهنئنا بدخولنا في دين الحق من إخوانكم وأقاربكم، فما فعلتم من هذا شيئاً؟ ألا إن من اعتصم بالله كفاه.

وأيضاً من أفعالكم المذمومة أن تتصبوا في كل شهر وعام سلطاناً، وتبايعون وتحلفون على طاعته والإعراض عن مخالفته، ثم تخالفونه بعد قليل، وتقتلون ذوي الأمر منكم خلافاً لما أمر الله في كتابه العزيز بطاعة أولى الأمر منكم. وتنقضون ميثاقكم، ولم توفوا بعهدكم حتى تصيروا من " الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون "، وأي جرح أقبح من هذا.

وأما سائر أخلاقكم وعدم مشروعيتها فهي واضحة غير خافية، ومستغنية عن الشرح والتفصيل. فقد وافقنا مع عمنا خان الأعظم وسائر أعمامنا وإخوتنا وعشائرنا فمنهم: قايدو، ونوقاي، وتوفتا، وقرمجي، وطو، وغيرهم، وها نحن متوجهون بأنفسنا إلى تلك البلاد بالعساكر الكثيرة التي مالا نهاية ولا حدّ، والكتائب الجرارة التي لا تحصى ولا تعدّ، ومن ولاية الإفرنج والروم والتكفور وديار بكر وبغداد بعثوا أفواجاً كثيرة لا تعد، وجعاً غفيراً لنهدي بهم سبيل الرشاد، وندفع عن سائر المسلمين الشر والفساد.

فإن كنتم تتبعون الهدى وتستقبلون عساكرنا المنصورة، فنحن في هذه النهضة الميمونة عازمون على أن لا يصدر عن أمرنا المطاع إلاّ إطفاء النائرة، ومحافظتهم في الأمن والأمان، ليستريح المسلمون في عهد الشفقة والإحسان؛ تعظيماً لأمر الله وشفقة على خلق الله، وقد حرّمنا على عساكرنا المنصورة التعرض إلى نفوس المسلمين والطموح إلى أموالهم، فإن لم تسمعوا ما رسمنا ونصحنا:

السيف أصدق أنباءً من الكتب ... في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب

ولما كانت همتنا المنصورة مقصورة على وضع قواعد العدل والإنصاف، وعزمتنا المنيفة مصروفة إلى رفع قوانين الزور والاعتساف بحيث يستقيم الأمر في مركزه تأسّياً بقوله تعالى: " يا داود إنا

جعلناك خليفة في الأرض " الآية. ولهذا توجهنا إلى تلك الجهات، وكيف يجوز تعذيب الرعية من غير جريمة صادرة عنهم لا سيما سفك دمائهم وسبي حريمهم، فتجب علينا محافظتهم ودفع الأسواء عنهم بموجب قوله صلى الله عليه وسلم: " كلكم راعٍ وكل راعٍ مسؤول عن رعيته " . والتزمنا بمحافظة الرعية في أنفسهم وأموالهم، والسعي في ترفيه خواطرهم وتطييب قلوبهم، فينبغي أن يسكنوا في دورهم آمنين مستكنين، ويقيموا أسواقهم ويرتبوها، ويشتغلوا بالكسب والمعاملات بعد أداء وظائف العبادات وإقامة مراسم الطاعات، داعين لدوام هذه الدولة القاهرة، ودوام أيامنا الزاهرة؛ إذ وجب عليهم وعلى كافة المسلمين طاعتنا لقوله تعالى وأمره بطاعة أولى الأمر منكم؛ وعليهم أن يخطبوا على المنابر باسمنا، وعند قرب الوصول إلى بلادهم يستقبلوننا، وتصاحبنا القضاة والعلماء والصلحاء والمشايخ والسادات والفقهاء مرشدين إلى المزارات المباركة من مشاهد الأولياء ومواقف الأنبياء، مستوهبين من الله تعالى التوفيق لنيل مثوباتهم، وإحراز بركاتهم، وبعد ذلك نقصد الإحرام بحجة الإسلام وزيارة بيت الله الحرام، سيما وهو أكبر قواعد الإسلام؛ إذ هو على كافة لقوله عز وجل: " ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلا " .

وقد نذرت يميننا على ذلك، وانعقد نذر بأنه ينادي من جهتنا بأن جميع المسلمين وسائر المتوكلين في أمان من الله ورسوله، ويكونون مطمئنين، فارغي البال، رافعي الحال، ونحن عاهدنا الله ورسوله على جميع ذلك، وإذا وقفوا على ما أنفذنا إليهم يبعثون إلينا من يعرف أحوالهم، وخلوص عقيدتهم، وصفاء طويتهم حين نعين الشحاني المعتبرين. وفي صحبتهم التواقيع والفرامين ليحفظوا البلاد، ويقيموا الأسواق، ولا يمكنوا أحداً من الظلم والجور، ولا تشويش خواطرهم، لأن العسكر المجهز إليهم معهم ما يكفيهم سنة وأكثر، فاستراحوا من ذلك.

فإذا تشرفوا بمطالعة هذا التوقيع الشريف، وامتثلوا مقاصده وفحواه فقد فازوا فوزاً عظيماً، وإلاّ فقد خسروا خسراناً مبيناً، وعقاب ذلك سفك الدماء وغارة الأموال بوقوع الهرج والمرج، ونحن نبرأ من ذلك، وقد أعذر من أنذر " والسلام على من اتبع الهدى».

ب- الفرمان الثاني لأهل الشام الذي قرأ بالمسجد الأموي بدمشق:

«بقوة الله وميامين الملة المحمدية، فرمان السلطان محمود غازان، ليعلم الأمراء والنواب والولاة والقضاة والسادة والصدور والناس كافة بممالك الشام والسواحل أن جدنا جنكزخان كان ملكاً وابن ملك إلى سبعة جدود في بلاد المغول، وحيث أيده الله تعالى ملك بسيفه ربع الأرض المسكون، ولم يبلغنا في تاريخ من التواريخ من لدن آدم عليه السلام وإلى يومنا هذا أن ملكاً ملك من الأقاليم

ما ملكه، ولا تيسر له من التأييد ما تيسر له، ونحن سادس ملك من صلبه، وكان قد سبق في تقدير الله أن يصيب أولاده ممن سلف قبلنا عين نافذة، فوقع بينهم الخلف وطال التنازع بينهم سنين كثيرة، فاجتمع من بقايا سيوفهم أمم مختلفون يتسترون في الأكنان ويتغيبون في أبعد المكان، وكان منهم سكان مصر والشام، واجتمع بها من المماليك والخوارج زمرة غرّتهم سلامتهم من المغل المشتغلين عنهم بما كان أهم عندهم منهم، وطفقوا كل قليل يختارون من بينهم مملوكاً من أرذل الأجناس، فيملكونه على الإسلام، ويحكمونه في رقاب الأنام، وحسبوا أن ذلك تدبير الملك، ولم يتعرفوا طريق النجاة من الهلك، حتى وصلت نوبة المملكة إلينا، وزفّت عروسها علينا، زين الله قلوبنا بالإسلام، وأبهجها بأنوار الإيمان، وكان من الواجب المتعين وأدب الملوك الهين أن هؤلاء المماليك يهنئوننا بما وهب الله لنا من الملك العظيم وهدانا إليه من الصراط المستقيم، ويرسلون إلينا رسلهم بتحف السلاطين، ويجدون في استجلاب مودتنا أوضح القوانين، فمرت على ذلك ثلاث سنين، وهم يجهلون حقوق الأدب، ولم يؤدوا من عوائد الملك ما يجب، ولما علموا أننا دخلنا في الإسلام راغبين، ولرضى الله سبحانه طالبين، حسبوا أنهم إذا فتحوا إلينا طريق المودّة جاءنا أكثر عسكرهم هاربين، ولم يكن لهم من التمييز أن يعلموا أن الملك يؤتيه من يشاء من عباده، وقد ملّك كثيراً من الكفار أكثر بلاده، كما بلغهم عن جنكزخان وعن كثير ممن كان، ولو كان نيل الملك بالتقوى لكان بنو فاطمة عليهم السلام على الخلافة أقدر وأقوى، ولم يرضوا بذلك حتى سلكوا من التهجم والتقحم أقبح المسالك، وقصدوا طرفاً من أطراف بلادنا على غرّة، وهجموا عليها على فترة، وكذلك سلامش لما تسحب خوفاً من ذنوب اقترفها وديون ارتكبها حموه، وأنفذوا معه عسكراً، وقصدوا أن يشعثوا الروم، وقد يكون حتف المغرور فيما يروم.

فلما رأيناهم قد تجاوزوا في البغي غاية الحد، واتخذوا المملكة لعباً واتكلوا على الجد، واغتروا بعدم التفاتنا إليهم، فكان ذلك وبالاً عليهم، لأنا رفعنا التنازع بيننا وبين أقاربنا، وجعلنا قصد مهلكتهم من مطالبنا، خشينا أن جيوشنا تستأصل من المسلمين الأصاغر والأكابر، فأرسلنا إليهم رسلاً ينذرونهم ويحذرونهم ويذكرونهم، فحبسوا الرسل وقطعوا السبل، ثم حملهم الجهل والغرة على مقابلة جيوشنا ومقاتلتهم، وتمثلوا في أنفسهم الغلبة فأقدموا على مماثلتهم، وكانوا قد عاجلونا وأكثر عساكرنا لم يركبوا خيولهم ولم يشهدوا الحرب، لما لم يعلموا تعجيلهم، وما لقيهم غير تسعة آلاف كانوا قد ركبوا معنا، فلقونا بأجمعهم، وما قابلوا جمعنا، وكان من أمرهم ما كان، وتبين لذوي البصائر أن الله لم يرض منهم ذلك العدوان، فاجتمعت معنا أمراء دولتنا، وذكروا لنا أن هذه

الطائفة من المماليك لهم أربعون سنة يقصدون الحصون فيخربونها، والمدن المستصعبة فيدمرونها، حتى إنهم خرّبوا من البلاد وقتلوا من العباد ما يعادل أهل مصر والشام، وأوضحوا في ذلك مقول الكلام، والمصلحة أننا نشن الغارة على الشام من غزة إلى الفرات، وينقل من فيها من الرعية فيعمر بها ما خربوا ليقابل الفاسد بمثله، فما قبلنا مشورتهم، وقلنا: نحن لم نرض فعلهم، فنصير بما فعلوا مثلهم، وأعرضنا عن ذلك، ورحمنا الرعية، وجعلنا مأمنهم أول نعمة الله عليهم، ومبدأ عطية، وإن كان قد وقع إلى أحد من عساكرنا بعض من استضعف فقد أمنه بانتزاعه من يد من استلبه، حتى يبلغ برجوعه إلى أهله إربه، فأرسلنا إلى أهل القلاع والجبال والأعراب والتركمان والعشائر كتب الأمان ليكونوا في أمان الله ورسوله وأماننا، وإذا خفت العساكر من هذه البلاد ردّ كل إلى وطنه، ورجع كل إلى سكنه.

ولقصدنا مصلحة الرعايا وحمايتهم، رتبنا مولاي وجبجك وأبشغا وبغا وهلاجو وقرابغا وبهادر مقدمين على أربعين ألف فارس، وتركناهم على غزة والغور، وأمرنا الأمير سبا أن يقيم على حلب وحماة وحمص في عشرين ألف راكب، وأعطينا الأمير سيف الدين قفجق نيابة السلطنة بدمشق، ورتبنا الأمير سيف الدين بكتمر نائب السلطنة بحماة وحلب، والأمير فارس الدين إلبكي نائب السلطنة بصفد وطرابلس والسواحل، وجعلنا ملك الأمراء والوزراء ناصر الدين يحيى شادا على الدواوين في هذه الأقاليم كلها، فكل من أعطاه أحد من هؤلاء الأمراء أماناً فهو أماننا، وكل جندي أراد خدمتنا فقد أمرناهم أن يعينوا له إقطاعاً يليق به، وليثقوا بما أودعه الله لهم في قلوبنا من الرأفة وحسن النية، وليطيعوا هؤلاء الأمراء طاعة موفقة، ولا يتخلف أحد عن طاعتهم، فقد أخذنا عليهم العهود بالعدل والشفقة، وإن خالف أحد أو عصى فلا بد أن يذوق كأس الردى، والله تعالى يجمع قلوب رعايانا على الهوى، إن شاء الله تعالى».

رابعاً- رسالة التهديد التي ارسلها غازان للناصر ولأمراء المماليك قبل معركة مرج الصفر:

الملحق رقم (١٣)

١-رسالة تهديد غازان للسلطان الناصر محمد بن قلاوون ولأمراء المماليك[١]:

«جماعة الأمراء اعلموا أنّ نحن جند الله في أرضه خلقنا من سخطه، وسلطنا على من أقدم على معصيته، ولكم فيما مضى معتبر، فأنظروا إلينا بعقولكم، وسلموا إلينا أموركم قبل أن ينكشف

(١) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ١٢٠.

الغطاء، ويعود عليكم الخطاء، فسيوفنا صواعق، ورماحنا خوارق، وسهامنا رواشق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال، والعساكر لدينا لا تنفع والحصون من أيدينا لا تُمنع، ودعاؤكم علينا لا يستجاب ولا يسمع، لأنكم أظهرتم البدع، واستحللتم الحرام، وأكلتم مال الأيتام، وأنتم أهل الظلم والعدوان، فملكُنا لا يُرام وجارنا لا يُضام، ونحن ملوك الأرض شرقاً وغرباً، ونأخذ أموالكم سلبا ونهباً، ونأخذ منكم كل مدينة غصبا، أنتم تقولون أن نحن الكفرة، وأنتم عندنا الفجر، فقد سلط الكفرة على الفجرة، من له الأحكام المُدبرة، والامور المُقدرة، وقد أنصفناكم إذ كاتبناكم، والسلام» .

الملحق رقم (١٤)

٢-رد السلطان الناصر محمد بن قلاوون على رسالة غازان[١]:

«أما بعد، فإنك عبدٌ غلب الهواء على عقلك فأراك القبيح حسناً، والسمج مُستحسناً، فأطمعك أملك الخائب في نيل النجوم، وجَسرك طمعك الكاذب فبادرت إلى قنص الأسود بالهجوم، لتعلم إذ نزل بك الخطب لك منه ولي ولا ناصر، ولو كان لك أمير أو عندك عاقل مشير لأشار عليك العفو عما اجترمته من الجريمة، وارتكبته من العظيمة، من الملك الناصر، والأسد الكاسر، ومن عساكره الليوث العوابس، والبدور في الحنادس، الذين ضاق عليهم الفضاء، وتحرقت أكبادهم عليك باللظى، فالنفوس تتلهب عليك غيظاً وحنقاً، والعيون تفتتا من الجلامد عند اللقاء، قد أكل الحقد أكبادهم، وقد الأسف زنادهم، فهم بين متأسفين عليك، ومتشوقين إليك، وقد ندموا لى ما فرط من ايديهم ندما أفاض من العيون دماً، فما بينك وبينهم سو أن تطلع عليك أعلامهم المنصورة، وفرسانهم المشهورة؛ فتأهب لحرب تنسيك ما حل بآبائك الأقدمين، وتعرفك سوء عاقبة الظالمين، وعجباً بافتخارك بما جرى في هذه الوقعة، وبما أظهرت بما من المفخرة والسُمعة، فلو رجعت إلى عقلك الغائب، وظنك الخائب، وأملك الكاذب، لعلمت أن الجواد يكبو، والشمس المنيرة تخبو، وإذا حقق معلك المقال، ووقع التناصف في المحال، علمت أنك المخذول المقهور، وعسكرنا القاهر المنصور، لأن الذين قاتلوا من عسكرنا شرذمة يسيرة، وعصابة غير كثيرة، وقد قتلوا من عسكرك أمما كثيرة، وعساكر عظيمة حقيرة، وكم لنا من قبل من هزيمة، وكم لنا عليك من جسيمة، وما نفتخر بشيء منها، ولا تخبر بشيء عنها، فأنتم أعدم الأمم نخوة ومروءة، وأقلهم شدة وقوة، وإنما تقاتلون بأميال من بعيد وتفتخرون بكثرة العدد والعديد، وعادة آبائك الاعتصام منا

---

(١) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار ، ص ١٢٠ – ١٢٢.

بالفرار وتولية الادبار، فتداركوا ما فات، وجنبوا القتل والشتات، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين، فلولا أنكم تُلمون بالإسلام، والتزام الأحكام، لغزوناكم في أماكنكم، وأخرجناكم من مواطنكم؛ وقد أعذر من أنذر، وأنصف من حذر، وقد قال الله تعالى في كتابه المبين: ﴿**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ**﴾[1]، فخذ ما اشترطناه عليك، والتزم ما رسمناه إليك، فقد غزوت غزوة لا انفصال إلا بالتزامها، وهفوت هفوة تؤذن لغزوتك بانفصامها ولولا ما جلونا عليك من العلم، وعجلنا عليك من الحلم، لعجلناك بالعقوبة قبل الإنذار، فحذار من المخالفة حذار».

(١) سورة الانفال ، الآية ٥٨.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع:

أولاً- القرآن الكريم؛

ثانياً- المصادر ؛

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري (ت:٦٣٠هـ/١٢٣٣م):

١- أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: عادل أحمد الرفاعي ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، ط١ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

٢- الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .

٣- اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت، د.ط، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي، المعروف بالشريف الادريسي (ت: ٥٦٠هـ/١١٦٥م):

٤- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، دار الكتب ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

ابن الأزرق، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد الأزرق الأصبحي الغرناطي، الأندلسي المالكي (ت:٨٩٦هـ/١٤٩١م):

٥- بدائع السلك في طبائع المُلك، تحقيق: علي سامي النشار، وزارة الإعلام العراقية، العراق، ط١، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

الاصطخري، أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخـــري، المعروف بالكرخي (ت:٣٤٦هـ/٩٥٧م):

٦- المسالك والممالك، الجامع الكبير لكتب التراث العربي والإسلامي، الأردن، الإصدار ٤ ، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

ابن إياس، زين العابدين محمد بن أحمد المعروف بن إياس الحنفي (٩٢٩هـ/١٥٢٣م):

٧- بدائع الزهور في وقائع العصور، تحقيق : محمد مصطفى، ج ١، ق١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

ابن أيبك، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدَواداري (ت: ٧١٣هـ/١٣١٣م):

٨- كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٨ ، الدُرة الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق: أُولِرخ

هارمَان، قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار ، القاهرة ، د.ط ، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

٩- كنزر الدرر وجامع الغرر، ج ٩ ، الدُر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: هانس رُبرت رويمر، قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار ، د.ط، القاهرة، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م.

البرزالي، علم الدين أبي محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي الإشبيلي الدمشقي (ت:٧٣٩/١٣٣٩م):

١٠- المُقتفي على الروضتين المعروف بتاريخ البرزالي، مخطوط أحمد الثالث: رقم ٢٩١٥/١٦١، تحقيق: عُمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط١

ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي أبو عبد الله (ت: ٧٧٩هـ/١٣٧٧م):

١١- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

البعلي، عبد الرحمن بن عبد الله البعلي الحنبلي (ت: ١١٩٢هـ/١٧٧٨م):

١٢- كشف المخدرات والرياض المزهرات لشرح أخصر المختصرات، تحقيق: محمد بن ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية ، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي (ت: ٤٨٧هـ/١٠٩٤م):

١٣- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ٤ج ، عالم الكتب ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

البهوتي، منصور بن يونس بن إدريس البهوتي (ت: ١٠٥١هـ/١٦٤١م):

١٤- شرح منتهى الإرادات المسمى دقائق أولي النهى لشرح المنتهى، عالم الكتب، بيروت، ط٢ ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

١٥- كشاف القناع عن متن الإقناع، تحقيق هلال مصيلحي هلال، دار الفكر، بيروت، د.ط، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

بيبرس المنصوري، ركن الدين بيبرس المنصُوري الدّوادَار (ت: ٧٢٥هـ/١٣٢٥م):

١٦- زُبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، تحقيق دُونَالد س. ريتشَاردز، الشركة المتَحدةِ للتوزيع، ألمانيا، ط١ ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

١٧- مُختار الأخبار، تحقيق وتقديم : عبد الحميد صالح حمدان ، الدار المصرية اللبنانية ،

القاهرة ، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

التبريزي، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي (ت: ٧٤١هـ/١٣٤١م):

١٨- ديوان الحماسة، دار القلم ، بيروت، د.ط ، د.ت.

ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي أبو المحاسن، جمال الدين (ت:٨٧٤/١٤٦٩م):

١٩- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، د.ط ، د.ت .

٢٠- مرد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

التميمي، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد ابن منصور التميمي السمعاني (ت: ٥٦٢هـ/١١٦٧م):

٢١- الأنساب، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، دار الفكر، بيروت، ط١ ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت:٧٢٨هـ/١٣٢٨م):

٢٢- منهاج السنة النبوية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، السعودية، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

ابن الجزري، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أبو بكر الجـــــزري القُرشي (ت:٧٣٨هـ/١٣٣٨م):

٢٣- تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والاعيان من أبنائه، ج١، تحقيق: عُمر عبد السلام تَدمُري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، صيدا-بيروت، ط١ ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

ابن جعفر، أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي(ت: ٣٣٧هـ/٩٨٤م):

٢٤- الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق: محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد، العراق، ط١، د.ت.

ابن الحاج، اسم المؤلف: أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج (ت: ٧٣٧هـ/١٣٣٧م)

٢٥- المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على كثير من البدع المحدثة والعوائد المنتحلة ، دار الفكر ، دمشق ، ط١ ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله القسطنطيني الرومي الحنفي، الشهير حاجي خليفة، وكاتب

جلبي (ت: ١٠٦٨هـ/١٦٥٧م):
٢٦- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ط ، ١٤١٣/١٩٩٢م.
ابن حجر العسقلاني، الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م):
٢٧- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، نشر مجلس دائرة المعارف العثمانية، صيدر اباد/الهند، ط٢، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
٢٨- رفع الإصر عن قضاة مصر ، تحقيق : علي محمد عمر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م .
الحسيني، محمد بن علي بن الحسن الحسيني الدمشقي الشافعي (ت: ٧٦٥هـ/١٣٦٤م):
٢٩- ذيل (تذكرة الحفاظ للذهبي) لتلميذه أبي المحاسن الحسيني الدمشقي، بيروت دار الكتب العلمية، ط١ ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري (ت بعد : ٨٦٦هـ/١٤٦٢م):
٣٠- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إ. لافي بروفنصال ، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
ابن حوقل، محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، أبو القاسم (ت: بعد ٣٦٧هـ/٩٧٨م):
٣١- صورة الأرض ، دار صادر وأفست ليدن، بيروت ، د.ط ، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.
ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، (ت : ٨٠٨هـ/١٤٠٦م):
٣٢- تاريخ ابن خلدون ، بيروت، دار القلم، ط٥، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت:٦٨١هـ/١٢٨٣م):
٣٣- وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة ، لبنان، د.ط ، د.ت.
الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي(ت:٧٤٨/١٣٤٧م):
٣٤- سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٩ ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
٣٥- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عبد السلام تدمري، دار الكتاب

العربي، بيروت، ط١ ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٣٦- دول الإسلام، تحقيق وتعليق: حسن إسماعيل مَرْوَة ، تقديم، محمود الارناؤوط، ج٢، دار صادر ، بيروت ، ط١، ١٩٩٩.

٣٧- العبر في خبر من غبر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ط٢ ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٣٨- من ذيول العبر، تحقيق: صلاح الدين المنجد ، مطبعة حكومة الكويت، الكويت ، د.ط ، د.ت .

٣٩- المعجم المختص بالمحدثين، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق، السعودية/الطائف، ط ١ ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

ابن الرابي، الرابي بنيامين بن الرابي يونة التطيلي النباري الإسباني اليهودي (ت: ٥٦٩هـ/١١٧٤):

٤٠- رحلة بنيامين التطيلي، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، ط ١ ، ٢٠٠٢م.

الرازي، زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت:٦٦٦هـ/١٢٦٨م):

٤١- مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية والدار النموذجية، بيروت-صيدا، ط٥، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (ت: ٧٩٥هـ/١٣٩٣م):

٤٢- ذيل طبقات الحنابلة، د.ن ، د.ط ، د.ت .

الزُبيدي، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (ت: ١٢٠٥هـ/١٧٩١م):

٤٣- تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية ، الرياض، السعودية، د.ط، د.ت.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨ هـ/١١٤٣م):

٤٤- الجبال والأمكنة والمياه، ج١ ، تحقيق: أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة ، د.ط ، ١٣١٩هـ/١٩٩٩م.

السبكي، أبي الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي (ت: ٧٥٦هـ/١٣٥٥م):

٤٥- فتاوى السبكي، دار المعرفة، بيروت، د.ط ، د.ت.

السخاوي، الحافظ شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن

عثمان بن محمد السخاوي (ت:٩٠٢هـ/١٤٩٧م):

٤٦- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، دار الجيل ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

٤٧- البلدانيات ، تحقيق: حسام محمد القطان، دار العطاء، السعودية، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

ابن سباط، حمزه بن احمد بن عمر المعروف بأبن سباط الغربي (ت بعد: ٩٢٦هـ/١٥٢٠م):

٤٨- تاريخ ابن سباط، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس ، طرابلس/لبنان، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

ابن سعيد المغربي، نور الدين أبو الحسن علي بن موسى العنسي المغربي(ت:٦٨٥/١٢٨٦م):

٤٩- الجغرافيا، الجامع الكبير لكتب التراث العربي والإسلامي، الأردن، الإصدار ٤ ، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

السمهودي، علي بن عبد الله بن أحمد الحسني السمهودي (ت : ٩١١هـ/١٥٠٥م):

٥٠- خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى، الجامع الكبير لكتب التراث العربي والإسلامي ، الأردن، الإصدار ٤ ، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد سابق الدين خن الخضيري الأسيوطي (ت:٩١١هـ/١٥٠٥م):

٥١- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، الجامع الكبير لكتب التراث العربي والإسلامي ، الأردن، الإصدار ٤ ، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

٥٢- لب اللباب في تحرير الأنساب، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت ، د.ط ، د.ت.

أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدسي الدمشقي الشافعي، المعروف بأبي شامة (ت:٦٦٥هـ/١٢٦٧م):

٥٣- الذيل على الروضتين، وضع حواشيه وعلق عليه: إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

ابن شداد، عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي (ت:٦٨٤هـ/١٢٨٥م):

٥٤- تاريخ الملك الظاهر، اعتِناء: أحمد حطيط، فرانز شتايز بفسبَادان للنشر، إشراف المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت، ألمانيا، إصدار: جمعية المستشرقين الألمانية، إسطفان فيلد

وغرنوت رؤتر، ج٣١ ، د.ط ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٥٥- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام و الجزيرة، الجامع الكبير لكتب التراث العربي والإسلامي ، الأردن، الإصدار ٤ ، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

الشوكاني، محمد بن علي الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ/١٨٣٤):

٥٦- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

الصفدي، أبو الصفا صلاح الدين خليل بن عز الدين أيبك بن عبد الله الألبكي الصفدي (ت: ٧٦٤هـ/١٣٦٣م):

٥٧- أعيان العصر وأعوان النصر ، تحقيق علي أبو زيد وآخرون، ٦ج، تقديم: مازن عبد القادر المبارك ، دار الفكر ، دمشق ، ط ١ ، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

٥٨- الشعور بالعور ، تحقيق : عبد الرازق حسين ، دار عمار ، الأردن/عَمان ، ط١ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

الصُقاعي، فضل الله بن أبي الفخر الصُقاعي (ت:٧٢٥هـ/١٣٢٥م):

٥٩- تالي كتاب وفيات الأعيان ، تحقيق: جاكلين سُوبلة، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ، د.ط، دمشق ، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

الطرطوسي، إبراهيم بن علي بن أحمد بن عبد الواحد ابن عبد المنعم الطرسوسي، نجم الدين (ت: ٧٥٨هـ/١٣٥٧م):

٦٠- تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك ، اسم المؤلف، الجامع الكبير لكتب التراث العربي والإسلامي، الأردن، الإصدار ٤ ، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

ابن طولون، محمد بن طولون الصالحي الدمشقي (ت:٨٥٣/١٤٤٩م):

٦١- إعلام الورى بمن ولي نائباً من الاتراك بدمشق الكبرى، تحقيق: محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

ابن عبد الهادي، محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي (ت:٧٤٤هـ/١٣٤٣م):

٦٢- العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكاتب العربي، بيروت، د.ط، د.ت.

ابن العبري، غريغوريوس (واسمه في الولادة يوحنا) ابن أهرون بن توما الملطي، أبو الفرج المعروف بابن العبري (ت: ٦٨٥هـ/١٢٨٦م):

٦٣- تاريخ مختصر الدول، تحقيق: انطون صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني، لبنان، ط٢ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت:٦٦٠هـ/١٢٦٢م):

٦٤- بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت.

ابن العماد، شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي (ت: ١٠٧٩هـ/١٦٦٨م):

٦٥- شذرات الذهب في أخبار من ذَهَب، مج ٧ ، أشرف على تحقيقه وخرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، حققه وعلق عليه: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت ، ط ١ ، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

ابن العميد، عبد الله جرجس بن أبي ياسر بن أبي المكارم بن أبي الطيب بن قردينة بن الطيب بن يوسف بن العميد، المشهور بالشيخ المكين (٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م):

٦٦- أخبار الأيوبيين، مكتبة الثقافة الدينية ، بور سعيد ، مصر ، د.ط ، د.ت.

العُليمي، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليمـــــي الحنبلي، أبو اليمن، مجير الدين (ت:٩٢٧/١٥٢١م):

٦٧- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحيق، عدنان نباتة، مكتبة دنديس، عمان، د.ط ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمــري (ت: ٧٤٩هـ/١٣٤٩م):

٦٨- مسالك الأبصار في ممالك الامصار ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، ط ١ ، ١٤٢٣هـ.

العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العيني (ت:٨٥٥/١٤٥١م):

٦٩- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، الجامع الكبير لكتب التراث العربي والإسلامي ، الأردن، الإصدار ٤ ، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

٧٠- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط ، د.ت.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ/١١١١م):

٧١- فضائح الباطنية، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار الكتب الثقافية ، د.ط ، د.ت .

أبو الفداء، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي (ت : ٧٣٢هـ/١٣٣٢م):

٧٢- المختصر في أخبار البشر، مكتبة المعارف، بيروت، د.ط ، د.ت .

ابن الفوطي،كمال الدين أبي الفضل عبدالرزاق بن أحمد الشيباني البغدادي(ت:٧٢٣/١٣٢٣م):

٧٣- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق: مهدي النجم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت:٨١٧هـ/١٤١٤م):

٧٤- القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، د.ط ، د.ت

ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة(ت:٨٥١هـ/١٤٤٧م):

٧٥- طبقات الشافعية، تحقيق: الحافظ عبد العليم خان ، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

قرطاي العزي، شهاب الدين قرطاي العزي الخزنداري (ت: بعد ٧٠٩/١٣٠٩م):

٧٦- تاريخ مجموع النوادر مما جرى للأوائِل والأواخِ، تحقيق ودِراسة: هُورْست هاين و محمد الحجيري، كلاوس شڤارتس للنشر، برلين – بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م

القزويني، زكريا بن محمد بن محمود القزويني (ت: ٦٨٢هـ/١٢٨٣م):

٧٧- آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

القطيعي، عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي، صفيّ الدين (ت:٧٣٩هـ/١٣٣٩م):

٧٨- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٢هـ/١٩٩١ .

القلقشندي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي ثم الفزاري (ت: ٨٢١هـ/١٤١٨م):

٧٩- صبح الأعشى في كتابة الإنشا، تحقيق: عبد القادر زكار ، نشر وزارة الثقافة ، دمشق، د.ط، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٨٠- مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، الكويت ، ط ٢ ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

القيسي، ابن ناصر الدين شمس الدين محمد بن عبد الله بن محمد القيسي الدمشقي

(ت:٨٤٢هـ/١٤٣٨هـ):

٨١- توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١ ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي (ت: ٧٦٤هـ/١٣٤٥م):

٨٢- فوات الوفيات، تحقيق علي محمد يعوض الله وعاد أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري، ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ/١٣٤٣م):

٨٣- البداية والنهاية، دار المعارف ، بيروت ، د.ط، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

المحبي، محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد المحبي الحموين ثم الدمشقي (ت: ١١١١هـ/١٦٩٩م):

٨٤- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر ، بيروت، د.ط ، د.ت.

المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي المقريزي (ت:٨٤٥/١٤٤١م):

٨٥- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

٨٦- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية)، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة، ط ٢ ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.

المهلبي، الحسن بن أحمد المهلبي العزيزي (ت: ٣٨٠هـ/٩٩٠م):

٨٧- المسالك والممالك (الكتاب العزيزي) ، تحقيق : تيسير خلف ، د.ن ، د.ط ، د.ت .

ابن ناصر الدين الدمشقي، محمد بن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقي (ت: ٨٤٢/١٤٣٨م):

٨٨- الرد الوافر على من زعم بأن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت ، ط١، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

ناصر خسرو، أبو معين الدين ناصر خسرو الحكيم القبادياني المروزي (ت: ٤٨١هـ/١٠٨٨م):

٨٩- سفر نامه، تحقيق: يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط٣، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

النووي، محي الدين بن شرف النووي (ت:٦٨٦هـ/١٢٨٧م):

٩٠- تهذيب الأسماء واللغات، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت ، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت:٧٣٣هـ/١٣٣٣م):

٩١- نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق : مفيد قمحية وآخرون ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي الاسلمي، المدني، الواقدي (ت:٢٠٧هـ/٨٢٣م):

٩٢- فتوح الشام، دار الجيل، بيروت، د.ط، د.ت.

ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي (ت: ٧٤٩هـ/١٣٤٨هـ):

٩٣- تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

الهمداني، ابن الحائك، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود الشهير بالهمداني (المتوفى: ٣٣٤هـ/٩٤٥م):

٩٤- صفة جزيرة العرب، مطبعة ليدن – ليدن ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

اليافعي، عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليمني المكي (ت:٧٦٨هـ/١٣٦٧م):

٩٥- مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، وضع حواشيه: خليل المنصور ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت:٦٢٦هـ/١٢٢٩م):

٩٦- معجم البلدان، تحقيق: أحمد الرفاعي ، دار الفكر ، بيروت ، د.ط، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٧م.

اليعقوبي، أحمد بن إسحاق (أبي يعقوب) بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي (ت: بعد ٢٩٢هـ/٩٠٥م):

٩٧- البلدان، تحقيق: محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد الحسين أحمد اليونيني البعلبكي (ت:٧٢٦هـ/١٣٢٦م):

٩٨- ذيل مرآة الزمان، الجامع الكبير لكتب التراث العربي والإسلامي ، الأردن، الإصدار ٤ ، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

ثالثاً/ المراجع العربية:

الألوسي، محمود شكري بن عبد الله بن محمد بن أبي الثناء الألوســي (ت: ١٣٤هـ/١٩٢٤م):

٩٩- غرائب الاغتراب، الجامع الكبير لكتب التراث العربي والإسلامي، الأردن، الإصدار ٤، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

بدران، عبد القادر أحمد (ت: ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م):

١٠٠- منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت ، ط ٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

البغدادي، إسماعيل باشا (ت: ١٣٣٩هـ/١٩٢١):

١٠١- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

١٠٢- **حسين، حمدي**: دراسات في تاريخ الأيُوبيين والمماليك ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، مصر ، د.ط ، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

١٠٣- **حلاق، حسان وصباغ، عباس**: المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

١٠٤- **حمدي، حافظ**: الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربي، مصر، ط١، د.ت.

١٠٥- **الدباغ، مصطفى مراد**: بلادنا فلسطين ، دار الهدى ، كفر قرع – فلسطين ، ط ٢ ، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

١٠٦- **دهمان، محمد** : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت – دار الفكر ، دمشق ، ط ١ ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

١٠٧- **الصلابي، علي**: دولة المغول والتتار بين الانتشار والانكسار، دار المعرفة ، بيروت ، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

١٠٨- **طقوش، محمد سيهل** : دراسات في تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

١٠٩- **العبادي، أحمد مختار** : في التاريخ الأيُوبي والمملوكي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، مصر ، د.ط ، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

الغزي، كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى البالي الحلبي، الغزي (ت: ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م):

١١٠- نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية، حلب، د.ط، د.ت .

١١١- **قاسم، عبده قاسم وعلي، السيد علي** : الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعَسْكري ، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، القاهرة ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

رابعاً/ المراجع الأجنبية المترجمة:

فانديك، ادوارد كرنيليوس (ت: ١٣١٣هـ/١٨٩٦م):

١١٢- اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، صححه وزاد عليه: السيد محمد علي الببلاوي، مطبعة التأليف (الهلال) ، مصر ١٣١٣هـ/١٨٩٦م .

١١٣- **لاين، جورج** : عصر المغول (سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ)، ترجمة: تغريد الغضبان، مراجعة: سامر أبو هواش، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، ط١ ، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.

١١٤- **موير، وليم** : تاريخ دولة المماليك في مصر ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ترجمة: محمود عابدين وسليم حسن ، ط ١ ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

خامساً/ مواقع الإنترنت:

١١٥- **Group** : Data center on local development in Lebanon ، web : loca liban، http://www.localiban.org